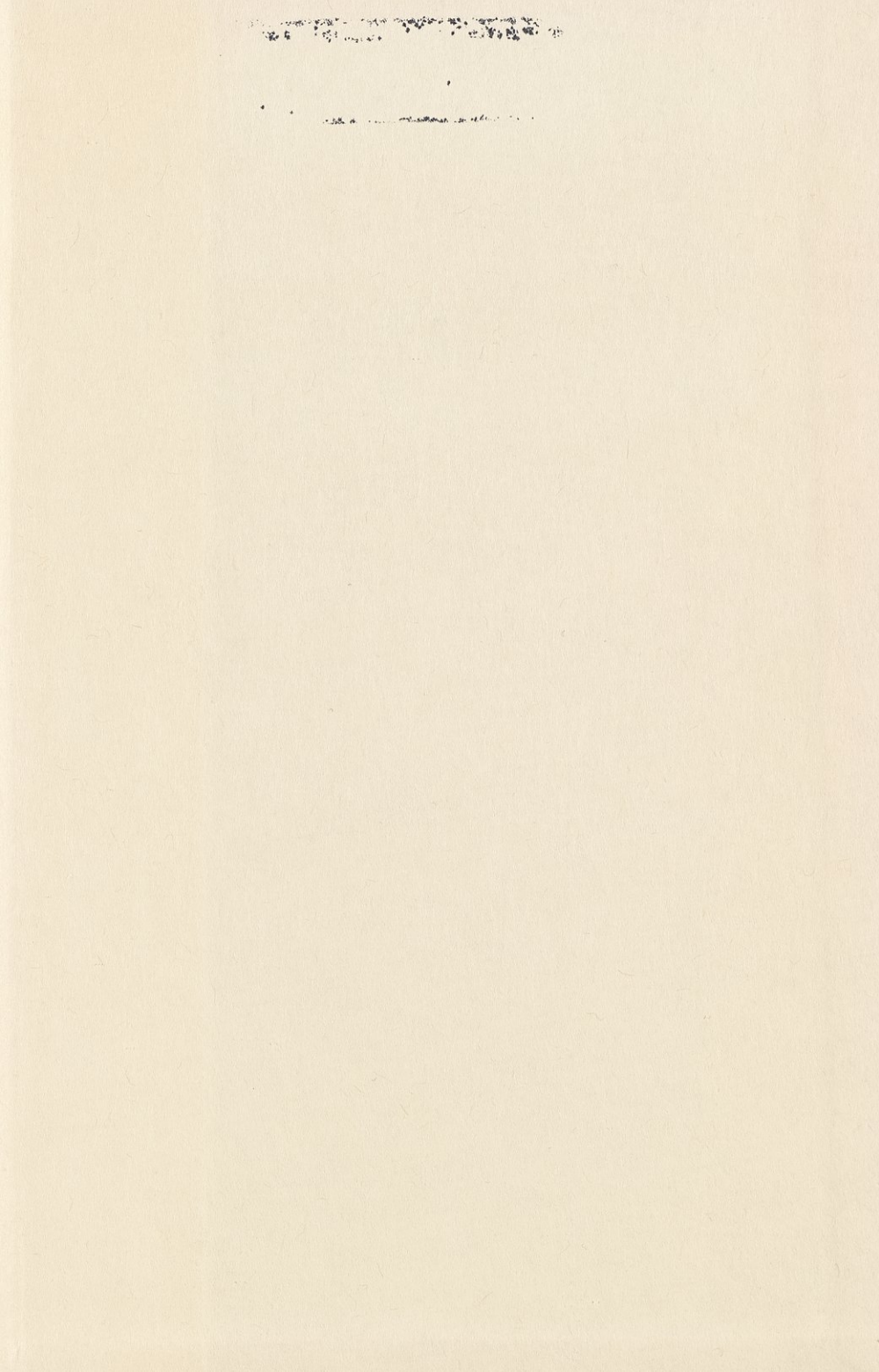


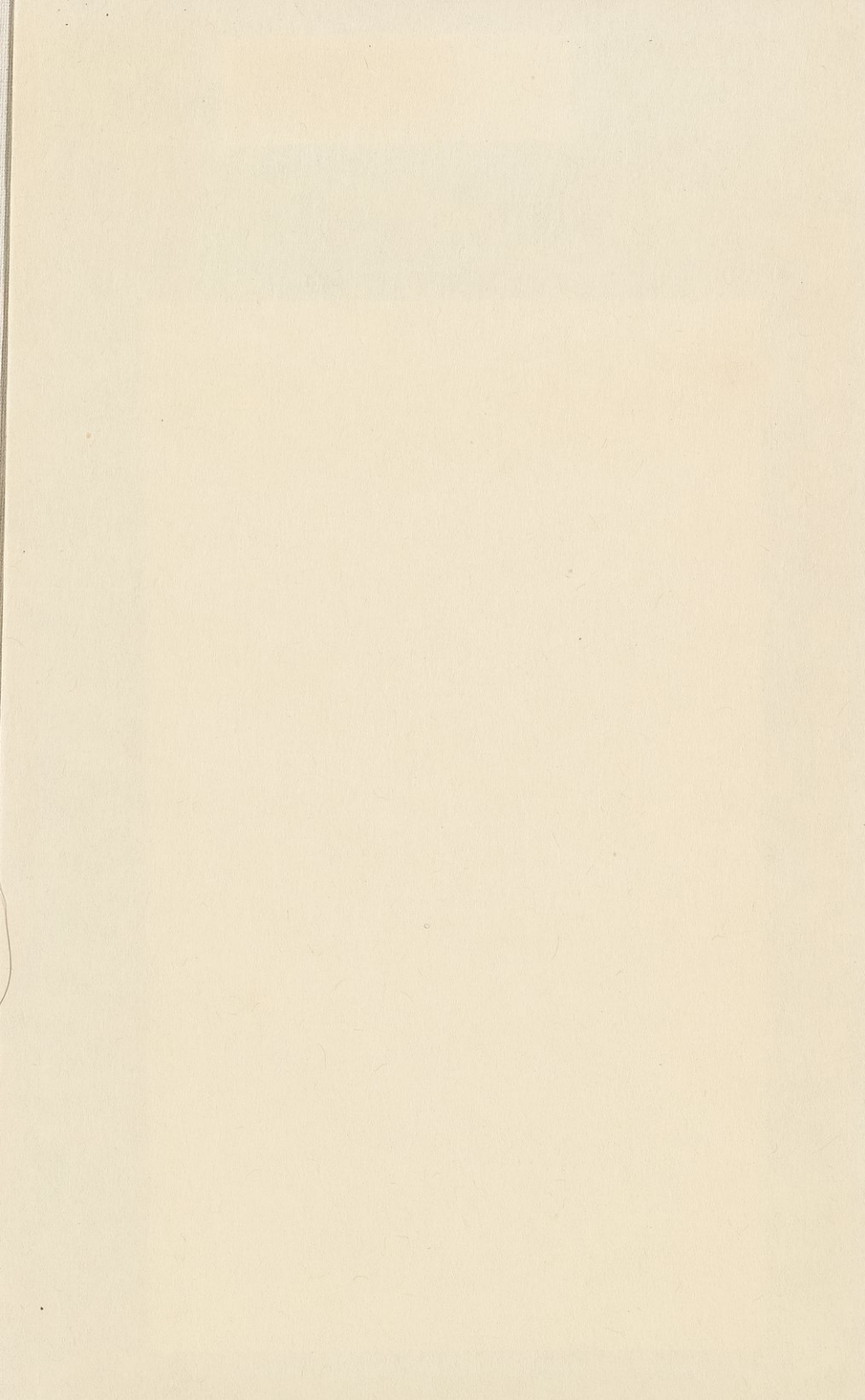




PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

*This book is due on the latest date
stamped below. Please return or renew
by this date.*

--	--



على باب الكبير

تأليف

محمد رفيع رضا

ماجستير في الآداب ودبلوم في التربية
مدرس بالمعهد العالي للمعلمين

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربي

على بك الكبير

Ramadan

تأليف

محمد رفيع رمضان

ماجستير في الآداب ودبلوم في التربية
مدرس بالمعهد العالي للمعلمين

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربي

(Arabs)

DT98

..5

,R35



32101 014497323

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير الكتاب

لو قص علينا المحدثون قصة صبي مسيحي اختطفه تجار الرقيق من بلاد اليونان من أحضان أبيه القسيس الارثوذكسي وباعوه في مصر بشمن بخس ، فاذا به يغدو في يوم من الأيام حاكما بأمره في مصر العثمانية ويقود جموع الحجاج إلى بيت الله الحرام لقلنا أنها من بنات الأفكار أو ثمره الخيال . والواقع أنها قصة الكثيرين من حكام مصر في وقت من الأوقات ، انها حقيقة واقعة وكثير من الحقائق أغرب من الخيال وأمتع ، انها قصة على بك الكبير . ضمنيتها هذا الكتاب الذي أقدمه إلى حضرات القراء .

وهذه القصة نواة رسالة كنت قد تقدمت بها إلى كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول للحصول على درجة الماجستير في التاريخ ، ولما أقرت لجنة الامتحان هذا البحث فكرت في نشره لكي تعم فائدته لاسيما أنه يعالج فترة غامضة من تاريخ مصر والشام في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، فيلقى الضوء على لون من ألوان الحكم المملوكي تحت السيادة العثمانية ويبين كيف استفحل نفوذ على بك الكبير في مصر على حساب الدولة العثمانية الضعيفة ، ويوضح أثر ذلك في مرافق البلد السياسية والاقتصادية وعلاقاتها الخارجية عندما تطلع إلى ضم الحجاز وشرع في غزو الشام بالتحالف مع صديقه ظاهر العمر . واختتمت البحث بمناقشة العوامل التي أدت إلى فشل الحركة وعودة مصر ترزح تحت عسف المماليك وأطاع العثمانيين حتى دخلها نابليون بونابرت .

ولا يفوتني في هذا المقام أن أتوجه بالشكر إلى أستاذي الجليل حضرة صاحب السعادة محمد شفيق غربال بك على كريم إرشاده وسديد توجيهه ، كما أشكر حضرات من يسروا لي طرق البحث في دار المحفوظات بالقلعة ووزارة الأوقاف بالقاهرة وإدارة حفظ الآثار العربية ودور الكتب المختلفة .

والله ولي التوفيق

المؤلف

القاهرة في ١٥/٣/١٩٥٠

مقدمة

في نشأة البيوت المملوكية

استعملنا كلمة (ثورة) في التعبير عن حركة على بك ولا نقصد منها معناها المرسل كاستعمالها في (الثورة الفرنسية) مثلاً فهي لم تستتبع تغييرات أساسية وإنما قصدنا منها معناها الخاص الذي يمكن أن نطلقه على الحركات المملوكية في مصر في أبان القرن الثامن عشر على وجه الخصوص . يعبر عنها مؤرخو الفرنجة بكلمة (عصيان Revolt) لأن هذه الحوادث في نظرهم خرق للنظام الموضوع وخروج على الوضع الذي يجب أن يكون . ونحن لهذا الأمر بالذات استعملنا كلمة (ثورة) من باب التجوز .

* * *

ولكي ندرس (ثورة على بك) ينبغي لنا أن نناقش مسألتين : تدفعنا الأولى إلى أن نلقى نظرة شاملة على العالم العثماني في أبان تلك الثورة فنجدة يوج بحركات مماثلة ، أبرزها حركات ظاهر العمر في فلسطين ، والاشراف الهواشم في مكة ، والاكراد في شمال العراق والشام ، والأغوات الحكام في مدن الأناضول وموانيه ، كما نجد ثورات أخرى أوسع نطاقاً في البوسنة والهرسك والجبل الأسود والأفلاق والبغدان .

ونلاحظ أن هذه الثورات يمكن تصنيفها فتدخل تحت قسمين : قسم يشمل حركات الشرق العثماني المسلم يثيرها فرد أو جماعة ، والثاني يشمل حركات القسم الأوربي المسيحي . وثورات هذا القسم الأخير كانت حركات انفصالية بعثتها الروح القومية والدينية وغذتها الدعاية الروسية فلم ينسأهله أنهم ورثة الحضارة البيزنطية المسيحية وفي الوقت نفسه (رعية) سلطان مسلم حل بارضهم واتخذها

قاعدة للتوسع الاقليمي . فوصفنا لهذه الحركات بانها حركات انفصالية أو استقلالية لا غبار عليه ويقر بنا كثيرأ من غرضها الحقيقي (١) .

أما حركات الشرق العثماني فكانت تهدف إلى اغراض أخرى ولكنها ليست الاستقلال أو الانفصال بحال من الأحوال : فولاياته كانت موطن الحضارة الاسلامية وتكشفت لشعوبها منذ القرن الحادى عشر الميلادى اطماع الغرب السياسية بعد أن تدرع باسم الدين وتقدم فى ظل الصليب مستغلًا تفكك وتنافس العالم الاسلامى الذى لم ينعم بالوحدة منذ ضعفت قبضة العباسيين حتى أصابه شىء من حسن الحظ بالاتحاد فى صورة ما وبالقدر الذى مكّنه من طرد المستعمرين والغزاة الصليبيين فحى الدين وحافظ على تراثه من الحضارة الإسلامية ولكنه ما لبث أن تفكك وتخاذل .

ثم استهل القرن السادس عشر وبدأت موجة الفتوح العثمانية فى الشرق : استجابت الشام (١٥١٦) ومصر والحجاز (١٥١٧) ثم العراق (١٥٣٤) . وفى هذا المحيط الواسع لم تحاول الدولة العثمانية أن تقيم سلطانها على قواعد من الاستعمار المنتج ، ولم تحاول أن تصبغ أهل هذه الولايات بالصبغة العثمانية أو تربطهم برباط الحضارة العثمانية أو توجد بينهم شيئًا من التعاون المتبادل أولونا من النشاط المشترك بل اتبعت نفس المبدأ الذى سارت عليه فى كل أملاكها تقريبًا : أن تترك العناصر الأصلية فى حكم البلاد المفتوحة مع تعديلها التعديل الذى يضمن لها بقاء السيادة والسيطرة وتقاضى ثمن هذه السيادة والسيطرة — لم تحاول أن تمس العقائد الدينية والمدنية أو التقاليد القومية وسارت الشعوب على ما ألفته لا يضيرها إلا تعسف فى الجباية أحيانًا ومفاسد الحكم والادارة وعناصر هذا الفساد فى أغلبها موروثه عن العصر السابق وليست كلها مستحدثة فى العصر العثمانى .

ورغم أن الدولة العثمانية لم تحاول أن تنظم هذه الولايات في عقد استعماري منسجم فثمة رابطة كانت قد بدأت في القرن السابع الميلادي وظلت تقوى مع الزمن، تلك هي الديانة والحضارة الإسلامية التي كانت تربط بين كل ولاية وجاراتها وبينها وبين الدولة العثمانية نفسها. أما الحضارة الإسلامية فقد تأثرت بالبيئة واتخذت نظم الحكم في كل ولاية لونا محليا، وأما الديانة فقد أوجدت عن طريق العاطفة الدينية نوعا من التماسك بين الدولة وولاياتها، تقوى العاطفة ويزيد التماسك كلما بدت نواجد الاطماع الغربية المسيحية فالشرق كان — ولا يزال — يخشى أطماع الغرب. والدولة العثمانية كانت في نظر كل ولاية من ولاياتها درعا يقيها شر تلك الأطماع ويضمن لها في ظل الدولة العثمانية المسلمة نوعا من الحرية في مزاوله تقاليدها الموروثة وأن تمحي حياة أفضل — في نظرها على الأقل — مما لو اكتسفتها دولة أوروبية مسيحية.

ونظرة أهل هذه الولايات إلى الدولة العثمانية على هذا الاعتبار نظرتهم إلى البطل يحمي الذمار ويدفع العدوان ويتقاضى لذلك جعلاً مع الاعتراف له بالسيادة. وكما كانت القسطنطينية في عصرها البيزنطي المسيحي حتى ١٤٥٣ تقف حاجزا يحول بين الإسلام الناشئ الفتى وبين أوروبا المسيحية المنحلة، أصبحت في عصرها الإسلامي وثوبها العثماني درعا يقي الشرق الإسلامي المتداعي أطماع الدول الأوروبية الفتية. هكذا ارتبطت صوالم الولايات العثمانية في الشرق الإسلامي مع الدول الحاكمة برباط الدين والمصلحة السياسية. وهذا الارتباط كان يمنع أي ولاية من القيام بأية حركة انفصالية حتى لا تدفع بنفسها إلى مخالاب أقوى وبلاء أعظم فنظرتنا إلى الأحداث الداخلية في هذه الولايات ينبغى ألا تؤل هذا التأويل وينبغى أن تحمل على حمل آخو. تلك الأحداث في جملتها محاولات فرد أو جماعة للتسلط على شئون الحكم والإدارة في الولاية مع بقائها تابعة للدولة العثمانية حتى تحتوى بها من أطماع الغرب.

وكثيراً ما نلاحظ ونحن نستعرض تلك الحركات حدوثها في عدة ولايات في وقت واحد أو فترات متقاربة وخاصة وقت انشغال الدولة العثمانية في متاعب خارجية سياسية كانت أو حرية . والحق أن التقارب أو التوافق الزمني لا ينبغي أن يعزز الرأي الذي سلفناه وإنما نعمل ذلك بأن متاعب الدولة الخارجية كانت في نظر القائمين بأمر هذه الحركات فرصاً لا تعوض في سبيل تحقيق أغراضهم الخاصة ولم يكونوا يتعدون ذلك إلى حد التعاون مع العدو الأوربي للدولة بل أن هذا التعاون كان في عرف أهل الولايات (خيانة وكفراً) للدولة العلية لا ينبغي اتخاذه سلاحاً لتحقيق الأطماع الخاصة . وكانت هذه إحدى التهم الشيعة التي تغذي المهارات بين المتنافسين في الولاية العثمانية كما كان الحال سنة ١٧٧٢ بين علي بك الكبير في مصر ومنافسه أبو الذهب الذي كان يندد بعلاقة علي بك بالروسيا . فالتنافس على الحكم ، كلمة السر التي تقودنا إلى فهم معظم حركات الشرق العثماني في ذلك الحين .

ويدفعنا ذلك إلى مناقشة المسألة الثانية فينقلنا إلى ميدان أكثر تخصصاً وتحديداً من ميدان الدولة العثمانية عموماً وهو (مصر العثمانية) ويجرنا إلى الكلام عن نظام الحكم العثماني في مصر ، وقد ناقشه المؤرخون ودرسوه وأعجب بعضهم « بحكمة السلطان سليم » التي جعلته يوزع السلطة في مصر بين ثلاث هيئات متوازنة يضمن لها تنازعها وتنافسها بقاء مصر تابعة للدولة العثمانية . والواقع أن هذا الرأي أصبح لا يستقيم مع دراسة وثائق ذلك العصر التي تظهر لنا أن سلماً الأول لم يفعل في مصر إلا ما فعله في غيرها من الولايات والاما يتمشى مع مبدأ العثمانيين في الابقاء على أنظمة الحكم في البلاد المفتوحة بعد تعديلها تعديلاً يكفل بقاء السيادة العثمانية . كان يمثل السلطان العثماني في القاهرة عاصمة الولاية المصرية (باشا عثماني) حل محل (السلطان المملوكي) وكذلك كان الحال في جدة وفي دمشق وطرابلس وحلب وصيدا ، فقد وجه باشوات عثمانيون حلوا محل

الحكام المماليك السابقين ، وكان بمصر (أوجاقت عثمانية) حلت محل (الجيش المملوكي) عملها الأساسي الدفاع عن مصر وامتد نشاطها إلى بعض أعمال الإدارة الداخلية أو بعبارة أدق المساعدة في تنفيذ الأوامر الإدارية من جمع الميرى وحفظ الأمن وحراسة قوافل الحجاج . الخ . ومثل هذه الفرق كان موجوداً بدرجات متفاوتة من حيث الكثرة والقلة في كل ولاية من الولايات وبنفس الاختصاصات تقريباً وهذا أمر طبيعي . واستدعى الحال اشراك اغواتهم في الإدارة العليا لمصر عن طريق الديوانين وهذا أمر طبيعي أيضاً فهم العنصر الحاكم ، والدولة العثمانية كانت تعتمد في ذلك الوقت على الجيش والقوة الحربية قبل أى شئ آخر .

وإعطاء حكومات الأقاليم (الصنجقيات والكاشفيات) لبكوات المماليك دليل قوى على الرأى الذى قلنا به : كانوا حكام الأقاليم في عهد السلطنة المملوكية وتمشيا مع التقاليد العثمانية ينبغي بقاؤهم حكاما على الصنجقيات والكشوفيات . فمشكلة الحكم في مصر العثمانية إنما حلت بوضع الأمور كما كانت على قدر الإمكان وجاء ذلك متمشيا مع مبدأ العثمانيين . ففيما عدا (الحزنة) السنوية والخطبة والسكة وملكية السلطان نظريا للأرض بقيت مصر تحيا الحياة التى كانت تحياها في عصر سلاطين المماليك . بل إن العنصر المملوكى الحاكم في ذلك العصر كان لا يزال مسيطراً على الإدارة المحلية في العصر العثمانى .

والعنصر المملوكى ليس عنصراً أصيلاً في حكم مصر ولكنه على كل حال أقدم من العنصر العثمانى ، والسيادة المملوكية على مصر كانت أسبق من السيادة العثمانية بما يزيد على قرنين ونصف من الزمان . ولما حلت هذه الأخيرة سنة ١٥١٧ استبقت السيطرة المملوكية على الأقاليم .

والتطور الذى حدث في نظم الحكم في مصر منذ أوائل القرن الثامن عشر — وهو تطور في مدى سلطة الحكام وليس في نوع اختصاصاتهم — إنما نشأ

عن ضعف الدولة العثمانية نفسها وفساد الاداة الحكومية والحربية فيها (١). وانعكس هذا الفساد في الولايات وتمثل في ضعف شخصية الولاة العثمانيين وسوء الإدارة عموماً. كما أنه أوجد الفرصة الذهبية للمماليك في مصر كي يحوزوا السلطة التي كانت بيد الوالى العثمانى الضعيف. وفي غفلة من هؤلاء الولاة الضعاف ظهرت عصبيات مملوكية قوية هددت سلطة الوالى العثمانى تهديداً خطيراً. وتنافست فيما بينها وكان تنافسها خطراً على الأمن الداخلى لأنها كانت مسلحة وكان من حقها المقرر أن تتسلح.

يعبر عنها مؤرخو الأجانب باسم (عصابات أو جماعات) ويسمى بهم مؤرخو العصر وعلى رأسهم الشيخ عبد الرحمن الجبرقى (البيوت المملوكية) فأياها أقرب إلى الصواب؟ هل كانت الرابطة التي تجمع بين كل فريق منهم روح العصابة وهي استعمال العنف في تحقيق الاطماع والحصول على الأسلاب أو كانت تجمعهم رابطة الأسرة وهي رابطة التضامن والتساند والاتحاد على السراء والضراء في سبيل مجد رب الأسرة والمنافع المتبادلة. وبعبارة أخرى: هل كان (على بك الكبير) زعيم عصابة مملوكية أو كان صاحب بيت مملوكي؟ حقا كانت تجد ظروف يقوم فيها المماليك بضروب النهب والسلب بما لا يفتقر عن أعمال العصابات المنظمة وغير المنظمة ولكن هذا كان من باب التهور والتماذى في الانتقام. وإنما كانت تنتظم المماليك قواعد ثابتة وتقاليده راسخة وتربطهم وشائج لا تنفصم. والترية المملوكية التي أنجبت سلاطين دولتى المماليك كانت — مع تعديل طفيف — نفس الترية التي أنجبت بكوات المماليك في العصر العثمانى: اهتمام بالروح والبدن وتدريب على الرياضة والحرب وتمارين على استخدام الخيل والسلاح. ووجود هذه البيوت كان خطراً على سلطة الوالى العثمانى في مصر لا على الدولة العثمانية نفسها. ولم يكن يحد من هذا الخطر سوى تعدد البكوات وتنافسهم على المناصب فيما بينهم.

نشأة البيوت المملوكية

وتتبع نشأة البيوت المملوكية يعود بنا إلى منتصف القرن الثالث عشر الميلادي عند ما تأسست دولة المماليك الأولى ووضعت التقاليد المملوكية التي ما زالت تنحدر من عصر إلى عصر وطاولت بقاياها الزمن حتى أوائل القرن التاسع عشر. وهي تتضح إذا ناقشنا كلمة (مملوك). فقد تعود مؤرخو مصر المملوكية أن يشرحوا تلك الكلمة على أساسين: أساسها (اللغوي) أي شخص في يمين شخص آخر يملكه كما يملك السائمة. والاساس الثاني معناها (الاصطلاحى) بإطلاقها على (الارقاء) البيض الذكور من أسرى الحرب أو بالشراء من أسواق الرقيق ينشئون في مصر وفق التقاليد المملوكية الخاصة. والواقع أن مدلول هذه الكلمة على هذا الوجه أو ذاك لا يصح إلا (باعتبار ما كان) لأن الأمير عند ما كان يشتري مملوكه أو يحوزه عن طريق الأسر أو الهدية أو الاغتصاب إنما يبقيه ملكاً يمينه مدة تدريبه وتعليمه فقط، حتى إذا ما بلغ سناً معينة — وكانت الثامنة عشرة في أغلب الأحيان — أعتقه وسمح له بإرخاء لحيته، وهذا أول حقوق المملوك المعتوق في عرفهم. ولا يعد ربط الأمير المملوكي بمملوكه السابق سوى حق الولاء. ويبقى المملوك في خدمة أستاذه مقبلاً على ولائه مهما علت مرتبة هذا المملوك، ولا يأنف أن ينسب نفسه إلى سيده ويفخر بأصله المملوكي. وهذا النسب لا يأتي عن طريق صلة الدم وإنما عن طريق الحياة السابقة والتبني والعلاقة التي تربط بين الأمير ومماليكه وبين هؤلاء المماليك فيما بينهم أقرب ما تكون إلى رابطة الأسرة، تقوم في الحالة الأولى على علاقة التبعية السابقة والولاء المقيم، وفي الثانية على رابطة (الخشداشية) أي الزمالة. فالأمير (أستاذ) مماليكه وصاحب ولائهم وهم (أتباعه ومماليكه وأهل بيته). وكل واحد من هؤلاء المماليك (خشداش) الآخر أي زميله في الرتبة (١).

(١) الخشداش أو الخوشداش أو الخجداش أو الخوجدش — معرب اللفظ الفارسي خواجاناتش ومعناه الزميل في الخدمة. والخشداشية في اصطلاح عصر المماليك بمصر هم الأفراد الذين نشأوا عند أستاذ واحد.

وكلما أعتق الأستاذ مملوكا ، أصبح من حق هذا الأمير اقتناء ممالك آخرين . ينتسبون كلهم إلى أستاذهم الأول ويتعصبون له . وهكذا يتكون البيت المملوكى . وقوة أى أمير من الأمراء إنما تكون بعدد ممالك بيته .

وكانت (فرقة الممالك البحرية) أول هيئة منظمة للممالك عرفت فى مصر (١) . ولكنها لم تكن بيتاً من البيوت المملوكية بالمعنى الدقيق . انما بدأت النشأة الأولى للبيوت المملوكية مع نشأة السلطة المملوكية نفسها ، وكان أبرزها بيت قلاوون الذى يمكن اعتباره نموذجاً للبيوت المملوكية التى ستظهر تبعاً فى خلال عصر الممالك ؛ ولكنها نلاحظ أن قوة سلاطين الدولة الأولى وانحصار السلطنة حوالى مائة عام فى بيت قلاوون (١٢٧٩ — ١٣٩٠ م) خففت من غلواء العصيات المملوكية ولم ترسم الحدود الفاصلة المميزة لها كما حدث فى دولة الممالك الثانية عند ما أصبح السلطان (كبير أمراء) أكثر منه (سلطاناً) بما تحمله هذه الكلمة من معان ، فلا شبهه ورائه ولا قداسة للعرش وانما القوة هى التى تقرر من يتولى ومن يدير دفة الأمور . أصبح كما يقولون (primus inter pares) يختاره خشداشونه أو بعبارة أدق هو الذى يجبرهم على اختياره للعرش بقوة شخصيته وبقوة ممالكه ومهارته فى تصريف الأمور وسخائه فى بذل الوعود (٢) .

وإذ توفى السلطان وكانت تريد ممالكه رابطة المصلحة المشتركة ظلوا على اتحادهم وكونوا (بيتاً) يعرف باسم أستاذهم السلطانى وإلا تفرقوا فى البيوت المملوكية الأخرى تحت لواء أساتذة آخرين . وهكذا ظهرت فى دولة الممالك الشمالية بيوت (الأشرقية والناصرية والمؤيدية) يجمع كلا منها شعور بالذاتية المستقلة ويحركها عزم على الاحتفاظ بالنفوذ وكسب أكثر ما يمكن

(١) دكتور محمد مصطفى زيادة — بعض ملاحظات جديدة فى تاريخ دولة الممالك بمصر
ص ٧٢ — ٧٣ من مجلة كلية الآداب مايو ١٩٣٦ .

(٢) Lane- Poole : A History of Egypt in the Middle Ages . pp 325-7 .

من الثروة، والقيام بمناورات وتكوين تحالفات توطئ العرش لأحد أمرائها . وقد أدى ذلك إلى تنافس ونزاع مستمر كان يصحبه دائماً « قتال شوارع » فأوجد نوعاً من الارهاب والفرع في عاصمة القطر ، وفترات قلق لا يأمن فيها المصري أو غيره على نفسه وماله .

نرى مما تقدم أن البيوت المملوكية تشأت مع العصر المملوكي نفسه لأنها محوره وعنصر دوامه . ولكن قوة سلاطين الدولة الأولى أخذت شرور تلك العصبيات إلى حد ما . وكان ضعف بعض سلاطين الدولة الثانية والتنافس المريع على عرش السلطنة السبب المباشر لظهورها ونشاطها في عنف وقوة قاست منهما مصر كثيراً وأصبحت ميداناً لاستبداد الجند ، المملوكي إلى أن بدأ العصر العثماني ودالت دولة المماليك واختفت بيوتها بتفرق ممالكها (١) .



وورثت مصر العثمانية بعض التقاليد المملوكية فيما ورثت عن العصر المملوكي ولكن في شكل أقل انسجاماً، وصورة أكثر اضطراباً . وانحطت أهدافها وتواضعت أغراضها ، فبعد أن كان الأمراء يهدفون إلى عرش السلطنة أو نيابتها ، أصبحوا يتنافسون ويتناحرون في سبيل (شياخة البلد) و (إمارة الحج) . وبعد أن كان السلطان المملوكي يؤلف قلوب ممالكه بالاقطاعات أصبح الأمير المملوكي لا يتورع أن يطلق ممالكه لنهب قصور منافسيه وسبي نسائهم وأولادهم وماعساه يقع تحت أيديهم غير مكترث لما يؤدي إليه هذا الأمر من فزع للأهالي وضيق وبطالة أو خسارة في المال والأرواح .

وتميز العصر العثماني في مصر ، وخاصة في القرن الثامن عشر عند ما ضعفت قبضة الوالي العثماني ، بالتنافس الشديد بين البيوت المملوكية والمعارك الدموية بين أمراء البيت الواحد بحيث كان الأصل ينقسم إلى فروع والبيت المملوكي الواحد ينقسم على التوالي إلى يموت متنافرة متنافسة تتحد حيناً وتتنازع أحياناً .

البيوت المملوكية في العصر العثماني :

وقد حاول مؤرخ العصر العثماني الشيخ عبد الرحمن الجبرتي أن يبحث في نشأة تلك البيوت وبدأ بإشمل الفرق في عصره وهما فرقنا (الفقارية والقاسمية) فأورد عن أصلهما روايتين : أما الأولى فتجعل بدء ظهورهما في عصر السلطان سليم الأول وفي مدة إقامته بمصر على وجه التحديد (١٥١٧ م ٩٣٣ هـ) فتقص علينا كيف زار السلطان قصر الأمير سودون وأعجب بحكمة ولديه (قاسم وذى الفقار) وزاد إعجابه بهما لما أبدياه من ضروب الفروسية والشجاعة والاقدام فجعل ذا الفقار على رأس الفرسان العثمانيين وقاسما على رأس فرسان المماليك وأمرهما بتمثيل ممركة حربية كادت تنقلب إلى ملحمة حقيقية ، فأمر السلطان بوقف القتال ولكن تولدت في النفوس حزازات اتضحت في تحزب المماليك حزبين ينسب أحدهما إلى ذى الفقار ، يميل إلى العثمانيين ويتخذ اللون الأبيض شعارا له . والآخر فريق القاسمية يميلون عن العثمانيين وشعارهم اللون الأحمر (١).

هذا ولم يرد أى ذكر أو إشارة إلى تلك الحادثة في كتابات المعاصرين للفتح العثماني كابن أياس وابن زنبيل والأرجح أنها قصة خيالية متواترة حاولت أن ترجع انقسام المماليك وعداوة بعضهم للعثمانيين إلى أصول تاريخية . والواقع أن أول انقسام كبير للمماليك في مصر العثمانية كان إلى (قاسمية وفقارية) حقيقة ولكن لم يبدأ سنة ١٥١٧ وهى سنة الفتح وإنما سنة (١٧٠٧ م — ١١١٩ هـ) على أثر النزاع بين (قاسم بك الدفتردار) ومنافسه (ذى الفقار بك الكبير) أمير الحج على نحو ما جاءت به الرواية الثانية .

ونحن إذا أردنا أن نقف على سر هذا الانقسام والانقسامات التالية فلا ينبغي أن نلنسه في شعور المماليك العدائى نحو العثمانيين كما جاء في الرواية الأولى وإنما في تنافس المماليك على النفوذ وتنازع بسكواتهم على المناصب الرئيسية في

الحكومة . كما أننا لا ننتظر حدوثه في القرن السادس عشر عندما كانت الدولة في أوج مجدها وعنفوان قوتها فتستطيع في هذه الحالة أن تقضى على كل ما ينتقص من هيبتها أو يهدد نفوذ ممثلها في مصر ، وإنما نتوقع حدوثه في القرنين السابع عشر والثامن عشر عند ما بدا ضعف الدولة واضحا في ميادين السياسة والحرب سواء في أوزبا أو في ولاياتها وخاصة مصر حيث أصبح النفوذ الحكومى مطمعا للبكوات المتنافسين ونهبها بينهم . ذلك لأن النزعة التي كانت تسير بكوات المماليك في مصر العثمانية لم تكن نزعة انفصالية وإنما هي الأثرة وحب السلطنة فان تربيتهم واحلامهم وأعمالهم كانت كلها موجهة نحو ذلك الغرض . وكانوا أبدا في نضال ونزاع ، لا يكاد الواحد منهم يبرز بين خشداشينه حتى يطمع في أن يكون صاحب منصب ، فيعمد إلى الدسيسة والخداع حيناً وإلى القتال حيناً آخر حتى يقضى على شيخ البلد الموجود مثلاً أو ينهزم فيفر مع خاصة مماليكه إلى الصعيد أو الشام أو بلاد المغرب حيث يلم شعث (مماليكه) ويجمع حوله (المنافي) ممن يحدون مثله على من بيده النفوذ ويستعين (بالمرتزقة) من المغاربة أو العربان أو متاوله الشام أو دروز لبنان . وقد يقتل ويذهب ضحية اطاعه فيتولى رئاسة مماليكه (ابنه أو خزنداره) مثلاً (فيفتح بيت ابيه وأستاذه) . وهكذا يبدأ تكوين البيت المملوكى الجديد . وبمجرد وصولهم إلى المناصب تتولد اطماع جديدة قد تؤدي إلى انقسام جديد . وهم في كل ذلك لا يراعون إلا ولا ذمة ولا يقيمون أى اعتبار للتحالف أو الزمالة فقد يكون شيخ البلد الذى يهاجمونه حليفهم السابق الذى تعاقدا معه على الوفاء وقد يكون خشداشهم أى زميلهم الذى طالما حاربوا الى جانبه تحت لواء أستاذهم المشترك .

يتضح مما تقدم أن العاملين الأساسيين اللذين أديا إلى ظهور تلك البيوت — زيادة على الأسباب التي تقدمت في عصر السلطنة المملوكية — هما ضعف الدولة العثمانية وعجزها عن حفظ هيبتها في مصر . بحيث أصبح في استطاعة بكوات المماليك أن يستحوذوا على نفوذ كامل في المناصب الرئيسية المقصورة عليهم

واهمها منصب (شيخ البلد وأمير الحج والدفتردار) بالقاهرة (والصنجقيات والكاشفيات) في الأقاليم . وثانيهما تنافس بكوات الممالك في سبيل شغل هذه المناصب بأنفسهم أو باتباعهم .

يقول الجبرتي : (واستهل القرن الثاني عشر (الهجري) وأمراء مصر فقارية وقاسمية ^(١)) ومن التناقص بين هاتين الفرقتين ستنشأ البيوت المملوكية التي ملأ نضالها تاريخ العصر بثورات محلية منظمة تحدث عنها المؤرخون باسم (الفوضى المملوكية) .

فمن (القاسمية) أنحدر بيت الإيوازية وأبى شنب . ومن (الفقارية) نشأت بيوت بلفية ورضوان والصابونجي والخشاب والقطامشة والدمايطه والجلفية والقازدغلية والابراهيمية والعلوية والحمدية ^(٢) . ولعل من الطريف أن نصادف بيوتا أخرى مملوكية ولكنها لا تنسب إلى أحد الأمراء وإنما إلى أحد السراة أو الأعيان المصريين . (كجماعة الفلاح) و (بيت الشرايبي ^(٣)) . وقد حدث بين هذه الفرق والبيوت خليط معقد من التنافس والمنازعات انتهى بتفوق (بيت القازدغلي) وهو ينتسب إلى الأمير مصطفى كتحدا الكبير القازدغلي الذي كان سراجا عند الأمير حسن أغا بلفية الفقاري أستاذ ذلك البيت

(١) الجبرتي . ج ١ ص ٢٣

(٢) تجد بيانا وافيا بأصول هذه البيوت وما حدث بينها في الجبرتي ج ١ ص ٢٣ وما بعدها .

(٣) جماعة الفلاح أستاذهم الحاج صالح الفلاح من قرية الراهب بالنوفية (١١٦٧ هـ)

ترى بمنزل على كتحدا الجلفي « ولم يزل ينتقل في الأطوار حتى صار من أرباب الأموال واشترى الممالك والعبيد والجواري — يزوجه من بعضهم ويشتري لهم الدور والإيراد ويدخلهم الوجقات والبلدات بالمصانعات والرمشات لأرباب الحل والعقد والمتكلمين وتلقوا حتى تلبسوا بالمناصب الجليلة كتحدا واختيارية وأمراء طبخانات وجاوشية وأوده باشيه ، وصار لهم اتباع وممالك . » (الجبرتي ج ١ ص ١٩٠) أما بيت الشرايبي فخدم الحاج محمد الشرايبي من كبار التجار بالازبكية ببيتهم بيت مجدوغر وعز أوماليه من أعيان مصر وكان لهم مكتبة مبدولة للخاص والعام وتتردد على منزلهم العلماء والفضلاء وكانت لأسرهم تقاليد خاصة . (الجبرتي ج ١ ص ٢٥٤) .

فرقاه حتى تقلد كستخدا مستحفظان ، وحدث بينه وبين (كجك محمد باش اوده باشه مستحفظان) تنافس شديد ادى إلى نفى مصطفى كستخدا إلى الحجاز ، ولما عاد إلى مصر تم له اغتيال كجك محمد سنة ١١٠٦ هـ ، وصفا له الجو ، وتمكن من تأسيس بيت مملوكى استمر بعد وفاته ١١١٥ هـ ^(١) . وانقسم إلى بيوت اخرى اهمها (الابراهيمية) وفروعها (العلوية والمحمدية والمرادية والابراهيمية) انتهت امرها مذبحه القلعة ١٨١١ فى ولاية محمد على باشا .

(والماليك الابراهيمية) انحدروا من (القازدغلية) ، واستاذهم ابراهيم كستخدا ^(٢) . كان جاويز اليكيجرى ، ثم تولى الكستخدائية وانفصل عنها بعد ثلاثة اشهر . ثم اخذ ينافس شيخ البلد عثمان بك الفقارى (الذى كان له فضل القضاء الأخير على القاسمية وظهور الفقارية) « لأمور وحقد باطنى لا تخلو عن الرياسة والامارة » . حتى اضطره إلى الفرار من مصر إلى الأناضول حيث بقى ثلاثين عاما ، وتوفى هناك تاركا المجال فى مصر (لإبراهيم كخبا) فزادت سطوته ، واستكثر من المماليك ، وقلد اول صناجقه عثمان بك الذى عرف فيما بعد (بالجر جاوى) اشارة إلى توليه حكم الصعيد . وبعد انقطاع درلة القطامشة والدمايطة والخشائية « ادرك المترجم من العز والعظمة ونفاذ الكلمة وحسن السياسة واستقرار الأمور ما لم يدركه غيره » ، وكان قسيمه رضوان كستخدا العزب — استاذ الجلفيه — ولكنه ترك السلطة بيد ابراهيم وركن إلى الدعة والترف . واقتنى ابراهيم كخيا قبل وفاته مئات المماليك ، أمر منهم ثلاثة صناجق وهم : عثمان بك (الجر جاوى) وعلى بك (الغزاوى) وحسين بك (ككشكش) ، ثم زاد صناجق الابراهيمية سبعة آخرون بعد وفاة استاذهم (١٧٥٤ م — ١١٦٨ هـ) وهم حسين بك (الصابونجى) وخليل بك (الكبير) . وحسين بك (جوجه) واسماعيل بك (ابو مدفع) واسماعيل بك وعلى بك (السروجى) . وعلى بك (لوت قبان) وهو على بك الكبير الذى سوف نتكلم عن حركته فى الأبواب التالية .

(١) الجبرى . ج ١ ص ٩١ — ٩٣ .

(٢) ابراهيم كستخدا تابع سليمان كستخدا القازدغلى تابع مصطفى كستخدا الكبير جد القازدغلية .

الباب الأول

ظهور على بك الكبير

نشأته — تلبسه بالصنجدية — توليته شياخة
البلد — تقلده امرة الحاج — نفيه وعودته

اكتنف الغموض مولد على بك ، شأنه في ذلك شأن معظم المماليك ، يذكر
لوزنيان — الذى احتك طويلا بعلى بك — أنه ولد في عام ١٧٢٨ في بلاد ابازة
من أعمال القوقاز العثمانى (١) حينئذ .

وكان والده داود ، أحد قساوسة الكنيسة اليونانية ، يأمل أن ينشئ ابنه
يوسف (كما كان يسمى منذ ولادته حتى حضوره إلى مصر) تنشئة دينية ليشغل
منصباً في الكنيسة ، ولكن شاء القدر أمراً هو أبعد ما يكون عن رغبة الوالد
أو ما هياً له الولد ، إذ بينما كان الفتى اليافع يوسف بن داود مع بعض خلانه في

(١) بلاد ابازة أو أباسية أو أباطة بلاد روسية في سفح جبال قوقاز في الجهة الجنوبية
المقابلة للبحر الأسود طولاً بين خطى عرض ٤٢ ، ٤٤ شمالاً ، وقد جاء عنها في (دائرة
المعارف للبستاني في مجلد أول ص ١٧٠) أن أهلها ليسوا من الجراكسة أصلاً وإنما من نسل
أهالى المستعمرات اليونانية القديمة ، قوى عندهم الروح الحربية ويشغلون بالزراعة وتربية المواشى
والتجارة مع الأرمن والعثمانيين وبها غابات مسهبة جداً أخشابها فاخرة وهى مورد رزق لهم .
ويشيع بينهم بيع السرارى والمماليك . اعتنق أهلها المسيحية في القرن الرابع ثم أسلموا ولكنهم
لا يزالون متمسكين باعتقادات وعادات مسيحية ووثنية . وقد خضعوا لدول كثيرة وكان
خضوعهم غالباً بالاسم . فبعد إنسلاخهم عن اليونان الذين هم منهم خصصوا للأفرس ثم الحراكسة
ثم العثمانيين وأصبحت بلادهم إمارة ١٧٧١ حتى خضعت لروسيا سنة ١٨٢٤ وعاصمتها
صوفى صو .

رحلة صيد بإحدى الغابات فاجتهد عصابة من قطاع الطرق فأسروه بضاعة وباعوه إلى كرد أحمد وهو من كبار تجار الرقيق. فقصده به إلى الاسكندرية ١٧٤٣ حيث باعه إلى مديري جمرهما : الأخوين اليهوديين اسحق ويوسف، وهذان تقربا به هديه إلى ابراهيم جاوش اليسكيجرى ومن أصحاب النفوذ في مصر حينئذ . وكانت الهدية تليق بقدر المهدي إليه حقا ، فقد كان يوسف يافعا في عامه الرابع عشر تلوح على محياه مخايل الذكاء وتلمع عيناه ببريق عجيب فيه معنى الإرادة والحزم^(١)

تلبسه بالصنعية :

ومنذ تلك اللحظة التي قبل فيها ابراهيم تلك الهدية البشرية بدأت حياة جديدة ليوسف بن داود كما تبدأ حياة غيره من الممالك عندما يشتريهم أسياهم البكوات . مهدوا له الطريق فاعتنق الاسلام واسموه (عليا) ، ثم درس تعاليم الدين الحنيف ، ونصوص القرآن، ومبادئ القراءة والكتابة العربية والتركية، وسرغنا ما اطمانت نفس الشاب إلى حياته الجديدة بفضل عطف استاذة ورغبته هو في أن يصل إلى المثل الأعلى الذي اوحته إلامه حياة زملائه الممالك المتقدمين عليه . وأخذ على يرتقى حتى أصبح خزانة دار بيت استاذة .

وكان على يتخذ من عمله فرصة لكسب التجارب، فكان يأخذ نفسه بالتدريب الدائم حتى أتقن التمرينات البدنية، وفاق الممالك في ركوب الخيل، وقذف الحراب، ولعب الجريد، وضرب السيف، واستعمال الأسلحة النارية وهو في كل هذه الألعاب يمزح ويحج ويلاعب ويدرس ثم هو يستلقت الأنظار بخفته ونشاطه ويستشير الإعجاب بإتقانه وأحكامه فأكسبه ذلك لقب (جن على) الذي اشتهر به^(٢)

Lusignan: A History of The Revolt of Ali Bey' p. 56

(١)

(٢) الجن لقب أطلقه عليه المصريون معناه (النشيط الذي يغلب ولا يغلب) وذلك لمناسبة تفوقه على جموع الاعراب . كما أن من معانيه (الذي ينازل الخصم فلا يدرى الخصم من أين يناله) وفي ذلك إشارة إلى مهارته الفائقة في لعب الجريد حتى كان يكنى بها بقولهم وبسج من لم يتفادى جريد على بك « وليس معناها طبعاً (المجنون) كما زعم فولتي Volney: Histoire

d, Ali Bey. Chap. xlii' p. 115

حتى إذا ما بلغ الثامنة عشرة أعتقه أستاذه (وسمح له بإرخاء لحيته)، وما أن استهل عامه الثاني والعشرين حتى وافق الديوان على ترقيته إلى درجة (كاشف) ١٧٤٩ م وبدأ ذكره في دفاتر الرزنامة بلقب «كاشف شرقية».

ولما توفي أستاذه إبراهيم كخيا ١٧٥٤ (١١٦٨ هـ) تقلد الصنجدية باسم «على بك ميراللو اقا زطاعلى»، وكان يتقاضى (علوفه) كل شهرين ٢٠ أردبا من الحنطة و ٤٠ أردبا من الشعير (١).

وقد ذكر الجبرقى في معرض كلامه عن حصول على بك على البكوية ما يشير إلى أفضته وثقته الكبيرة فى نفسه قال «واتفق أن بعض ولاية الأمور تشاوروا فى تقليده الأمانة فنقل إليه مجلسهم وذكر له مساعدة فلان وممانعة فلان فقال أنا لا أتقلد الأمانة إلا بسينى لا بمعونة أحد» (٢).

* * *

توليته شياخة البلد

وبحصول (على كاشف) على (الصنجدية) انتهى الدور الأول من حياته فى مصر وبدأ الدور الثانى وكان هدفه فيه الحصول على شياخة البلد أى زعامة المماليك جميعا ومن بيدهم أمور الحل والعقد فى مصر.

ولم تكن هذه مطعمع على بك فقط بل كان يتزعم المماليك رضوان كمتخدا الجلفى عزبان الذى انفرد بالنفوذ بعد وفاة شريكه إبراهيم كخيا، كما طمع فيها اتباع إبراهيم كخيا وخشداشة عبدالرحمن كخيا اليكيجرى وكبير طائفة القازدغليه، كما كان هناك أيضا آخرون من «الأكابر والاختيارية وأصحاب الوجاهة» على حد قول الجبرقى والكل متطلع إلى الرياسة كلف بها (٣).

(١) دفاته جرایة وعلیق جماعت أمراء محافظین ولایت محروسة مصر — لسفوات من ١١٦١ هـ حتى ١١٦٧ هـ بین ٥٥ مخزن ترکی — دار المحفوظات المصریة بالقاهرة.

(٢) الجبرقى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار — ١ ص ٣٨٠

(٣) الجبرقى : ١ ص ٣٠٢

ولم ير على بك من الحكمة أن يزج بنفسه في ذلك التنافس مع ما جره من مؤامرات واسعة النطاق بل آثر أن ينحاز إلى أقوى المتنافسين حتى ينال بنجاحه كسبا جديدا ويتخلص من منافس عنيد وهكذا . وكان عبد الرحمن كخيا كبير القازدغلية هو الباديء بالانزال ، فألبم مالك إبراهيم كخيا على رضوان (الجلفي) وأغراه به سرا ، ولسكنه رغم ذلك كان يظهر التودد اليه والنصح له ، ويتظاهر بأنه يسعى بين الطرفين بالصلح قائلا له « هؤلاء أولاد أخيك وقد مات وتركهم في كنفك مثل الأيتام وأنت أولى بهم من كل أحد وليس من المروءة والرأى أن تناظرهم أو تخاصمهم فانك صرت كبير القوم وهم في قبضتك أى وقت فلا تسمع كلام المنافقين . . . » وراج عليه ذلك حتى فاجأه المهاجمون على حين غرة في فجر يوم ١٦ مايو سنة ١٧٥٥ وهو بقصره بقوصون وأطلقوا عليه النار فاصابت ساقه ففر إلى الصعيد وتوفي بشرق أولاد يحيى بعد أيام (١) وانتهى بموته سلطان بيت الجلفية ولم يبق في الميدان سوى بيت القازدغلية والممالك الابراهيمية .

نفيه الى نوسا الغيط

وسرعان ما دبت الفرقة بين أتباع إبراهيم كخيا ، فقد كان كل منهم يسعى إلى الرياسة علنا إلا على بك أخفى أغراضه وترك المتنافسين يسقط بعضهم بعضا . ولم يستطع عبد الرحمن كخيا « صاحب الخيرات والعنائير في مصر والشام » أن يتقلد شياخة البلد ، فرغم شهرته وقربه إلى نفوس الشعب لم يكن له من الضاجق والاتباع ما يوازن الضاجق الابراهيمية ، فزكوا لشياخة البلد عثمان بك الجرجاوى (أول الضاجق الذين قلدهم إبراهيم كخيا) فلم يحسن معاملة خشداشيينه فزعوه من الرياسة وزكوا بعده حسين بك الحابونجى شيخا للبلد في أوائل سنة ١٧٥٧

(١) أولاد يحيى قرية من قسم جرجا في شرق النيل كانت عامرة ذات مساجد ونخيل ومضافات ولأهلها كرم وشهامة . (على باشا مبارك . ٩٠ ص ١٠٥)

(١) واتبع حسين بك سياسة خاصة أساسها تشييت شمل الصناجق
الابراهيمية حتى يصفوله الجو ، ووسيلته الاعتماد على ولاء الكشاف الناشئين (٢)
فما كاد يتولى الشياخه حتى استصدر فرمانا بنفى على بك (بلوت قبان) إلى نوسا
الفيط (مركز أجا بمديرية الدقهليه) وعثمان بك الجرجاوى إلى أسيوط . وأمر
على بك الغزاوى أن يقيم فى منزل صهره على كستخدا الخربطلى ببركة الرطلى
لايزار ولا يزوز ، واستدعى ضيق جرجا (حسين بك كشكش) ونفاه إلى
البحيرة ، وكان الغرض من ذلك تفريق كليتهم وتشيت جمعهم حتى لا يتمكنوا من
القيام بمعمل مشترك ضده . ولكن كشكش نجح فى استمالة كشاف الصابونجى
وحرصهم عليه فاغتالوه بمصر القديمة ، وكسب القنصل دى جونيڤيل الفرنسى
De Joniville بتاريخ ٢٤ نوفمبر سنة ١٧٥٧ (صفر ١١٧١) ماترجمته « لقد
غدر بحسين بك الصابونجى خاصة اتباعه الذين أحسن اليهم من قبل إذ اغتاله
هؤلاء منتهزين فى صة انفرادهم به فى أحد قصوره (بمصر القديمة) وافقدوه
الحياة طعنا بالسيوف والخناجر (٣)

وأسرع على بك الغزاوى فاستدعى البكوات المنفيين فاقاموه شيخا للبلد حتى

(١) أصله من مماليك ابراهيم الصابونجى من زعماء المماليك فر إلى حمى ابراهيم كخيا فأواه
ورباه وزوجه أرملة ابن الصابونجى فتسبب لهم . ويلقب أيضا بالفارطا على تولى أمارة الحج
مرتين فى عامى ١١٦٩ (١٧٥٥) والعام القالى ثم تولى شياخة البلد ١٧٥٧ (١١٧١ هـ)
ويسمى أيضا حسين بك المقتول اشارة إلى خاتمته (١١٧١ هـ) — ترجم له الجبرتى ١ -
ص ٢٠٦ — ٢٠٨

(٢) أهمهم حسن كاشف الشهير بجوجو (أو جوجه أو القصير) وقاسم كاشف و خليل
كاشف وإسماعيل كاشف (الذى سيشتهر فيما بعد بأبى مدفع) .

(٣) التقرير ذكره دهران Déhérain: L' Egypte Turpue. P. 123

وقد نقل الجبرتى شعرا على لسان حسين بك المقتول نصه :

وأخوان	تخذتهمو	دروعا	فكانوها	ولكن	الاعادى
وخلتهمو	سهاما	صائبات	فكانوها	ولكن	فى فؤادى
وقالوا	قد صفت	منا قلوب	لقد صدقوا	ولكن	من ودادى
وقالوا	قد سعيننا	كل يوم	لقد صدقوا	ولكن	فى فسادى

تقلد أمانة الحج ١١٧٣ هـ (١٧٥٩) وأتاب عنه في شياخة البلد خليل بك الدفتردار وأغراه بالقضاء على عبد الرحمن كتحدا ، فعلم هذا بالمؤامرة وطالب خليل بك بنفى اتباع القزاوى فرفض . وعمل عبد الرحمن كتحدا على أن يزيل خليل بك ويقضى على القزاوى « فانضوى إلى مالاة على بك (السكبير) ومال هو الآخر إلى صداقته ليقوى به على أرباب الرياسة من اختيارية الوجاقات . » وعزم على بذل كل جهد ممكن لإقامة على بك شياخا للبلد حتى يتمكن من نفى من أرادهم . وأصبح في ثنى يوم اجتمع عنده الاختيارية والصناجق على عاداتهم فلما تكامل حضور الجميع تكلم عبد الرحمن كتحدا فقال : أيها الأمراء من أنا ؟ فاجاب الجميع بقولهم : أنت أستاذنا وابن أستاذنا وصاحب ولائنا . فقال : إذا أمرت فيكم بأمر تنفذوه وتطيعوه ؟ قالوا : نعم . فقال أن على بك (القزاوى) سافر إلى الحجاز ولا بد من كبير تجتمع فيه الكلمة . فقالوا له : الرأى ماتراه . فقال : على بك هذا — مشيرا إلى على بك السكبير — يكون شيخ البلد وكبيرها وأنا أول من أطاعه وآخر من عصاه . فقالوا : سيعنا وأطعنا ونحن كذلك . وأصبح عبد الرحمن كتحدا غاديا إلى بيت على بك وكذلك باقى الأمراء والاختيارية وصار الجميع و لديو ان فى بيته من ذلك اليوم ولبس الخلمعة من الباشا على ذلك (١) وكان هذا فى أوائل سنة ١٧٦٠م . والقرمانات الموجودة الصادرة فى تلك الفترة تشير إليه باسم « حالا شيخ البلد مصر عز تلو ميرلوا على بك (٢) » واضطر على بك القزاوى أن يعود من الحجاز إلى غزة مباشرة دون أن يعرج على مصر ، وبقى هناك ثلاثة أشهر بقصد جمع أنصار ولكسنة أيقن بالفشل فعاد حزينا إلى مصر وتوفى بعد ثمانية أيام (٣) .

(١) الجبرتى ج ١ ص ٢٥٢ وأيضاً

Hammer: Histoire de L' Empire Ottaman. T. 16. Livrs Lxxii. PP. 148

ولكن التوفيق لم يصادفهم إذ يقول أن العثمانيين خلعوا خليل بك عن المشيخة وأعطوها لعلى باشا الابزى المولد والصحيح أنهم أعطوها لعلى بك الذى ندرس حركته .

(٢) ديمتر قيد القرمانات رقم ٢ مخزن تركى بدار المحفوظات .

(٣) الجبرتى ج ١ ص ٢٥٠ .

تقلده امرة الحاج

وبتولى على بك « حالا شيخ البلد عز تلو ميرلواى مكرم على بك قاز طاغلى ،
 شياخة البلد ينتهى الدور الثانى من حياته فى مصر ، ويبدأ الدور الثالث وهو ما يصح
 أن نسميه مرحلة الكفاح للاحتفاظ بذلك المنصب الذى تولاه مرتين ثم خلع
 عنه مرتين — وقد حاول فى هذا الدور أن يقضى على من عساه ينافسه ذلك
 المنصب ، كما بدأ يكون بيتا مملوكيا جديدا سيعرف رجاله فيما بعد بالمماليك العلوية .
 ولأول مرة بدأ على بك يعمل لحسابه الخاص فقد جلا عن الميدان كل
 المنافسين الأقوياء من بيت القاز دغليه ، صرعتهم مؤامراتهم ، ولم يبق أمامه سوى
 ثلاثة لا يستهان بهم : عبد الرحمن كستخدا قاز طاغلى ، حسين بك مير اللو امير الحاج
 قاز طاغلى (الشهير بكشكش) ، صالح بك مير اللو شاهين حاكم جرجا وهو من بقايا
 القاسمية .

والواقع أن على بك لم يكن فى مركز يحسد عليه عندما تولى المشيخة سنة
 ١٧٦٠ ، نعم وافق معظم البكوات على اختياره ولكن العبرة فى ذلك الحين كانت
 بعدد الصناجق والماليك المخلصين الذين فى خدمة البك . وقد ظهرت حكمة على
 بك فى اقتناء المماليك ، وتجنيد المغاربة المرتزقة مع ترقية اتباعه وتأليف قلوب
 أنصاره ، سياسته إلى ذلك الرغيب حينما والترهيب أحيانا (١) . واتبع تلك السياسة
 فى علاقته بالباشا والديوان والأوجاقات (٢) . وبدراسة « دفاتر الجراية
 والعليق » لبكوات المماليك فى تلك السنوات ، وهى تتضمن أسماءهم ومناصبهم ،
 يتبين لنا أن على بك وفق فى تحقيق غرضه إلى حد كبير فما وافت سنة ١١٧٩ هـ
 (١٧٦٧) حتى كان سواد الصناجق أما من مماليكه مثل (ذو الفقار بك مير اللوا
 قاز طاغلى) و (اسماعيل بك مير اللوا قاز طاغلى) و (محمد بك مير اللوا على
 قاز طاغلى) وأما من خشد اشينيه مثل (حسين بك مير اللوا سردار خزنه) و

(١) الجبرتى > ١ ص ١٥٢ .

(٢) جودت محاسن الآثار (تركى) > ٢ ص ٢١٤ ، الجبرتى > ١ ص ٢٥٢ .

(ابراهيم بك زاده دفتر دار) و (عثمان بك ميراللو صغير قاز طاغلى) أو من بعض مرديده من أغوات الأوجاقات السابقين مثل (حسين بك ميراللو اغاء جراكسه سابق) و (محمد بك ميراللو قاز طاغلى اغاء مستحفظان سابق) و (خليل بك ميراللو اغاء مستحفظان سابق) و (حسن بك ميراللو قاز طاغلى اغاء تفتكجيان سابق) و حمزة بك ميراللو خليل اغاء كوكلويان سابق) و (على بك ميراللو اغاء تفتكجيان سابق) (١)

* * *

وعندما حلت سنة سبع وسبعين ومائه وألف (طلع على بك أميرالوجه ورجع في أوائل سنة ثمان وسبعين ومائه وألف في ابه عظيمه وارضى مملوكه محمد الخازندار لحيته على زمزم) (٢) ومن ذلك الحين أصبح يشار اليه في دفاتر الجراية والعليق المنضمينه أسماء البسكوات باسم «ميراللو على بك ميرالحاج سابق» وبمجرد عودته من الحج استصدر فرمانا بمنى عبد الرحمن كتنخدا إلى الحجاز كما نفى السكشيرين من أنصاره (مارس ١٧٦٦ — ١١٧٨ هـ (٣))

وقد أشار الجبرقى إلى تلك الحادثة بقوله أن أخطر أعمال عبد الرحمن كانت « معاضدته لعلى بك ليقوى به على أبواب الرياسة » فلم يزل يلقى بينهم الفتن ويغرى بعضهم على بعض ويسلط عليهم على بك المذكور حتى أضعف شوكة الأقوياء وأكد العداوة بين الأصفياء واشتد ساعد على بك فعند ذلك التفت إليه وكتب بناه عليه وأخرجه من مصر وأبعده عن وطنه فلم يجد عند ذلك من

(١) دفتر جراية وعليق عن ماء (شهر) رمضان وشوال ١١٧٩ هـ رقم ٥٥/٩٥

مخزن تركى .

(٢) الجبرقى - ١ ص ٢٥٣

(٣) ذكر الجبرقى - ١ ص ٢٥٣ أن القاهرة أرتجت عند سماع نأى عبد الرحمن كتنخدا ولكن لم يحدث شغب — ونفس المعنى فى تقرير للقنصل داميرت الفرنسى بتاريخ ٢١ مارس ١٧٦٦ ذكره Déhéraïn .

يدافع عنه وأقام هذه المدة في مكة غريبا وحيدا . عند ذلك خلا لعل بك وخشداشيدنه الجو فباضوا وافرخوا . . . (١) »

نفيه إلى غزة

وبقى صالح بك القاسمي وحسين بك كشكش ، فعزم على بك أن يوقع بينهما . لذلك أصدر أمراً بنفى صالح بك إلى رشيد ثم إلى دمياط ، وعين حسين بك صنيقجا لجرجا . أما صالح بك ففر إلى المنيا وأصبح نواة اجتمعت حولها (المنافي) من القاسمية وجماعة الفلاح وغيرهم من شردهم على بك . وأمدّه همام شيخ عرب هوارة بكل ما يحتاج إليه من ذخيرة وعتاد .

واستصدر على بك أمراً من الباشا بالتجريد على صالح بك بحجة أنه « قاطع الطريق ومانع وصول الغلال والميرى » ثم عهد برياسة التجريدة إلى حسين بك كشكش ومساعدية محمد بك أبي الذهب وحسن بك الازبكوى . وكان غرضه من ذلك أن يبذر الشقاق بين حسين بك وصالح بك . وتصادمت القوتان في مناوشات تافهة ، ولكن يظهر أن صالح بك اتصل بحسين بك سرّاً فعاد كل منهما إلى مكانه ، وعادت التجريدة وعليها أبو الذهب إلى القاهرة .

حينئذ واجه على بك لأول مرة تلك الأزمة التي كان يسعى للحيلولة دون

(١) أورد الجبرتي ترجمة لعبد الرحمن كخيا في الجزء الثاني من المعجائب ص ٥ — ٨ ملخصها أنه الأمير عبد الرحمن كتخدا ابن حسن جاويز الفارذغلي أستاذ سليمان جاويز أستاذ إبراهيم كتخدا . وكان من اليكيجرى وتقلد السردارية وحج مع عثمان بك سنة ١١٥٥ هـ وبقى بالحجاز حتى سنة ١١٦١ هـ ، ثم عاد إلى مصر وتولى كتخدا الوقت سنتين وشرع في بناء المساجد وعمل الخمرات وأبطل المنكرات . وبلغ عدد المساجد التي أنشأها وجددها ١٨ مسجداً خلاف الزوايا والأسبله والسقايات والمسكاين والأحواض والقناطر والربط للنساء الفقيرات . ومن أهم المساجد التي بناها المشهد الحسيني والسيدة زينب وسكينة وعائشة وفاطمة ورقية ووقف عليها وقيات كبيرة واشتهر بالجوود حتى لقب « بصاحب الخيرات والعائز في مصر والشام والروم » . نفاه على بك إلى الحجاز سنة ١١٧٨ وبقى هناك حتى عاد إلى مصر سنة ١١٩٠ ومات بعد أيام ودفن بالأزهر .

حدوثها إذ أصبح يواجه منافسين قويين هما صالح بك وحسين بك .
فاستصدر على بك فرمانا بنفى حسين بك كشكش ، فلم يمثل وأسرع فدخل
القاهرة عنوة واستقر فى بيته (١) .

وازاء تلك الجرأة وذلك التحدى رأى على بك ألا يجاهره بالعداء فليجأ إلى
إلى الحيلة ، وأغرى طبيبه عبد الله أن يفس له السم فى الدواء ففعل واكتشفت
الخيانة (٢) واذكت العداء بين المنافسين وفزع كل منهما إلى أنصاره ، وتبين على
بك أن قضيته خاسرة فاستسلم حرصا على حياته ونزل على إرادة خصمه وخرج
منفىا إلى الشام ، واصطحب معه أتباعه وأخصمهم محمد بك أبو الذهب (مارس
١٧٧٧ — ١١٧٩ هـ (٣)) وقد أشارت الوثائق الرسمية إلى عزله فقد ذكر اسمه

(١) لم يكن كشكش أحد النسكرات بل كان ذائع الصيت واسم الحيلة . اشتهر بأنه
خرج أميرا للحج أربع مرات دون أن يؤدى عوائد العربان — ذكر الفصل دامرات أن
حمزة باشا وكان من ادكى لولاء « رأى فى كشكش بيكا من أكثر البكوات . ضاء عزرة
وطموح نفس واصلحهم للاعتماد عليه . رأى فيه الرجل الذى يمكن أن يعتمد عليه ليخلصه من
على بك » ويعتقد مهر أن حمزة باشا — الذى كانت سياسته تقوم على مبدأ التفريق بين
الزعماء هو الذى أغرى حسين بك بالحضور إلى القاهرة لمناجزة على بك دون أن يخشى شيئا
من فرمان الذى صدر بنفيه .

وقد ترجم له الجبرقى فى وفيات ١١٨٢ هـ ١ ص ٣١٨ ثم قال أنه « كان أسمر جهورى
الصوت عظيم اللحية بخاطها الشيب ، يميل بطبعه إلى الحظ والحلاعة وإذا لم يجد ما يمازحه حال
ركوبه وسيره مازح سواسه وخدمه وضاحكم .

(٢) كان حزاء الطبيب تناول السم الذى حضره لكشكش بك — بصفة الجبرقى بأنه
كان نصرانيا روميا . وجيها . جميل الصورة . فصيحا متكلميا . يعرف التركية والعربية
والرومية والطلبانية . من أهالى نابولى يدعى سلفاتورى فينجا . الجبرقى ١ ص ٣٥٤

(٣) نفي أول مرة إلى النوسات فى عهد الصابونجى وهذه هى المرة الثانية . الجبرقى
ج ١ ص ٢٥٤ ، شمعانى زاده . مرعى التواريخ حوادث سنة ١١٨٧ مخطوط تركى —
وقد أشار الفصل دامرات الفرنسى فى تقريره إلى وزارة الخارجية الفرنسية عن تلك الحادثة بقوله :
« يمكنكم يا صاحب العالى أن تحكموا من هذه الحركة على اتجاه الشعور وما أدى إليه من
تحول وعزل (بك) كان يطويهم بقوة شكيمته منذ أيام فلافل وهكذا يا سيدى يتقرر =

« على بك مير اللوا كاشف شرقية سابق » وأضيف فوقها تأشيرة (رفع شدة) أى عزل كما أضيف نفس التأشيرة إلى أسماء أتباعه (ذوالفقار بك مير اللوا قازطاغلى حاكم ولاية جرجا) ، (اسمعيل بك مير اللوا قازطاغلى اغاء كوكلو بيان سابق) محمد بك مير اللوا على قازطاغلى (١)

وعاد خليل بك إلى شياخة البلد وتولى حسين بك كشكش أماره الحج وأخذوا يعزلان أنصار على بك ويعينان أتباعهما ومماليكهما ويستعدان لنضال صالح بك .

* * *

نفيه الى أسيوط

فى تلك الأثناء عاد على بك وأتباعه لجأة من الشام والتجأ الأول إلى منزل حسين بك كشكش ، كما التجأ أبو الذهب إلى بيت عثمان بك الجرجاوى . وتشاور حكام القاهرة فى أمر أولئك اللاجئين ، وقال بعضهم عن على بك « اسمعوا نصحى واقتلوه وارتاحوا منه فانه ان دام حيا اتعبكم ولا يبقى منكم أحداً ، فقالوا لا يصح أنه أخونا ودخل إلى بيوتنا (٢) . وأخيراً تقرر اعطاؤه حكم النوسات لإبعاده عن القاهرة كما تقرر فى أتباعه إلى أسيوط .

ونجح على بك وهو فى منفاه فى تدبيره مؤامرة نفذت يوم عيد الفطر ١١٨٠ هـ (١٧٦٧) جرح فيها حسين بك ، وقتل الجرجاوى وداخلتهم الشكوك من جهة حمزه باشا فقرروا عزله واختاروا خليل بك قائمقام (٣) . كما قرروا نفي على بك إلى أسيوط ، وكان هذا التصرف أبعد ما يكون عن الحكمة ، واننى ما يكون للسلام ، وأوجب ما يكون لحدوث مشاغبات جديدة . ذلك أنهم نقلوه وسط

== المصير هنا فى هذه البلاد عن طريق الثورات فقد أسقطوا على بك من علية عظيمته التى كان قد وصل اليها واحفظ بها عدة سنوات .

(١) دفتر جراية وعليق رقم ٥٥/٩٥ مخزن تركى بدار المحفوظات .

(٢) الجبرتي ج ١ ص ٢٥٤

(٣) أى يحكم حين حضور الباشا الجديد — الجبرتي ج ١ ص ٢٥٦

عماليكه وأنصاره المنفيين ، وأتاحوا له فرصة الاتصال بصالح بك فقد « اجتمع عليه — على بك — بكفالة شيخ العرب همام وتحالفا وتعاقدا على (الكتاب والسيف) وكتبوا بذلك حجة واتفق مع على بك أنه إذا تم لهم الأمر أعطى لصالح بك جهة قبلي قيد الحياة واتفقوا على ذلك بالموائيق الأكيدة (١) .

وتقدم الحليفان — على بك قازطاعلى وصالح بك القاسمى — بجيش جرار قاصدين القاهرة ، وقطعوا طريق الغادين والرائحين ، ونتج عن ذلك ضيق كبير ، فالصعيد كان مركز تموين القطر ، وانقطع حبل الأمن واضطربت الأمور .

ولم يجد حسين بك كشكس بداً من تجهيز تجريدة للقضاء على أولئك الخارجين . وعارض فى ذلك الشيخ الحفناوى أحد علماء الأزهر لشدة مانال البلاد من البلاء والارتباك قائلاً لكشكس وزملائه فى الديوان « اخرجتم الأقاليم والبلاد ، فى أى شىء هذا الحال ، وكل ساعة خصام ونزاع وتجاريد ، على بك هذا رجل أخوكم وخشداشكم . أى شىء يحصل إذا أتى وقعد فى بيته واصطلحتم مع بعضكم وأرحتم أنفسكم والناس ؟ وحلف أن لا يسافر أحد بتجريدة مطلقاً . وإن فعلوا ذلك لا يحصل لهم خير أبداً . فقالوا أنه هو الذى يحرك الشر ويريد الانفراد بنفسه وعماليكه وإن لم نذهب إليه أتى هو إلينا وفعل مراده فقال لهم الشيخ : أنا أرسل إليه مكاتبة فلا تتحركوا بشىء حتى يأتى رد الجواب فلم يسهمهم إلا الامتثال — فكسب له الشيخ مكتوباً وبخه فيه ولم يلبث الشيخ بعد ذلك إلا أياماً ثم مات (٢) .

(١) الكتاب أى القرآن رمز الاسلام والسيف رمز الشرف الحربى وهما أقدس الأمور فى نفس المماليك — الجبرتي ج ١ ص ٢٥٥ — ٢٥٦

(٢) الجبرتي ج ١ ص ٢٥٧ — وقد أورد الجبرتي ترجمة الشيخ فى وفيات سنة ١١٨١ ص ٢٨٩ — ٣٠٤ ملخصاً أنه الشيخ محمد بن سالم الحفناوى الشافعى الحلوى ولد سنة ١١٠٠ هـ ببلده حفنا من قرى بلباس وتلقى العلم على أئقفة علماء عصره فأجازوه بالافتاء والتدريس وتخرج على يديه عشرات من العلماء ، كان كريماً أنيس المشر . « هادته الملوك وقصده الأمير والصملوك ، اختير قطباً ووقف فى جرأة يرجو حسين بك كشكس سنة ١١٨١ ويحرضه على مصالحة على بك لكنه مات سريعاً وقيل بالسم . ونقل عن بعض البسكوات =

عودة على بك الى شياخة البلد

وفي ١٢ اكتوبر ١٧٦٧ (١٥ جمادى الاولى ١١٨١) خرج حسين بك على رأس تجريدة قوية تضم خمسة صنايق ، ثم أنجده خليل بك بتجريدة ثانية عليها ثلاثة صنايق ، ولكن هزمه على بك شمالى بنى سويف (٢٠ اكتوبر) فارتد إلى القاهرة بجمع مالا ورجالا ، ولكن الباشا الجديد (محمد راقم باشا) ايقن بافول نجمه فرفض أن يصدر فر مانا بتجريدة ثالثة وحرّم على رجال الاوجاقات أن يساعدوا شيخ البلد الذى اسقط فى يده ففر مع اتباعه إلى الشام « وهم نحو عشرة صنايق وصحبته مماليسكهم واجنادهم عدة كثيرة (١) » .

وعمل على بك على كسب اتباع حسين بك كمشكش داعيته إلى ذلك حسن بك جو جو الذى لعب إزاء أستاذة كمشكش دور المنافق فأخذ يكسب إلى صف على بك أبرز رجال سيده القديم حتى تمكن من ضم كثير من الصنايق والأعيان والوجاقلية ، وكان يرسل على بك سرأ بأوراق يدسها داخل الأقصاب التى يشربون فيها الدخان (٢) « كما أرسل على بك يغرر براقم محمد باشا قائلاً « إني على استعداد أن أتم قدمى الباشا ، وأيس النزاع إلا مع زملائى . كما ليست بينى وبين رجال الجيش أية خصومة . لقد قطعت مسافات شاسعة مع جندى الجراو ومع ذلك لم أغتصب من الأهالى حبة ولم أدع عساكرى يقتصبون شيئاً . فليطمئن الباشا من جانبنا (٣) » .

وفي زهوة النصر تمكن على بك من دخول القاهرة (٢٢ اكتوبر — ٢٩

حين قيل له ان الشيخ الحفناوى من عجائب مصر قال بل قل من عجائب الدنيا . وكان راعب باشا (سنة ١١٦٠ هـ) يقول « إن الشيخ الحفناوى سقف على مصر من تزوله البلاء » لنفوذه وحسن مساعيه .

(١) الجبرتى ج ١ ص ٢٥٨ .

(٢) الجبرتى ج ١ ص ٢٥٨ .

(٣) شعدانى زاده . مرعى التواريخ حوادث سنة ١١٨١ مخطوط تركى (ترجمة حمزة)

جمادى الأولى) « وثبت قدم على بك في اماره مصر ورياستها في هذه المرة وظهر بعد ذلك الظهور التام (١) . »

واكسبته حوادث كفاحه الطويل دروسا استثمرها بنجاح إلى حد كبير . فانتهر عطف الباشا عليه وظهر له منتهى التودد والخضوع والولاء للسلطان مع عزمه على « تسهيل الخزنة وصره الحرمين وغلاهما » واستغل ذاك العطف فنزع إلى تنفيذ أركان سياسته التي أبدع الجبرتي في تلخيصها وهي « قتل الترددين وقطع المعاندين وتشيتيت شمل المنافقين » وبدأ فنخلص من حسن بك جو جو المنافق الأول قبله أتباعه ليلا خلف جامع قوصون (ديسمبر سنة ١٧٦٧) كما قتل كثيرين غيره . واستصدر من الباشا عدة فرمانات على فترات متباعدة بنفى من خشى تمردهم من صنایع القزاز دغلية من غير ممالیکه، وعشرات الأعيان وضباط الأوجاقات . ولم يكده على بك يتخلص من « المنافقين والمعاندين » حتى اصطدم بظهور أعظم (الترددين) حسين بك كشكش وخليل بك الكبير ، اللذين عادا من غزه بعد ثمانية أشهر في جيش من فرسان الممالیک والدوز ومشاة المغاربة ونزلوا دمياط في ضحى ٤ مايو ١٧٦٨ (المحرم ١١٨٢) وتقدموا إلى المنصورة حيث انضم إليهم مئات من عرب الحبابية . وعند الديرص والجراح (قرب سمود) هزموا أول تجريدة أرسلها على بك ، ثم تقدموا إلى طنطا . وأحس شيخ البلد بخطورة الموقف ففشط يجهز حملة ثابية ولجا صالح بك إلى صديقه همام يدأله المدد . وكان راقم باشا قد ربط مصيره بمصير على بك فساعد على جمع أكبر عدد ممكن من الجند وخرج إلى قبة باب النصر . « وجمع الوجاقلية والعلماء وأرباب السجاجد وأمر الباشا بأن كل من كان وجاقليا أو عليه عنامة يشعل نفسه ويطلع إلى التجريدة أو يخرج عنه بدلا ، فاجتمع مالا يقل عن ١٥٠٠ فارس . (٢)

(١) الجبرتي ج ١ ص ٢٥٨ .

(٢) الجبرتي ج ١ ص ٢٥٩ — وقد ذكر واصف وشعمداني زاده السبب الحقيقى الذى جعل راقم باشا يعيل إلى على بك أو على الأقل يحقد على كشكش بك وذلك لاستئمانه من تردد كشكش فى استقباله عند أول حضوره إلى مصر . فقد ذكر صاحب مرعى التواريخ أن أمراء =

وخرج على رأس التجريدة صالح بك ، وأبو الذهب ، وثمانية صناعق آخرون وحاصروا حسين بك كشكش وجيشه في طنطا . واستمر القتال ، واستمر الحصار حتى نفذ ما عند المحصورين من ميرة وذخيرة ، فأرسلوا يطلبون الأمان من أبي الذهب ، فأجابهم إلى ذلك ، ودبر مكيذة قضت على حسين بك كشكش وخمسة من ضاحقة ، فاضطر خليل بك إلى الاعتصام بضريح السيد أحمد البدوي واستجار بحماه وأرسل أبو الذهب يستشير أستاذة على بك في أمر خليل بك فاخرجوه بالأمان إلى الإسكندرية حتى لاقى حتفه بقلعتها في أواخر ١٧٦٨ (٩ ربيع أول ١١٨٢) (١) . وتعتبر موقعة طنطا من المواقع الحاسمة ، كانت نتيجتها المباشرة استقرار على بك في شياخة البلد

وقد ذكر الجبرتي — وعززته وثائق الاسكندرية — أمرين خطيرين : أولهما ماانتهت اليه تلك المعركة الحاسمة من انتصار محمد بك أي الذهب وصالح بك ، ودخولهما من باب النصر في موكب عظيم ، وأمامهم الرؤوس محمولة في صوان من فضة والخدم يقولون صلوا على (النبي) محمد وعدتها ستة رؤوس وهى رأس حسين بك كشكش و خليل بك السكران وحسن بك شبكة وحمزه بك واسماعيل بك أبى مدفع وسليمان أغا وذلك في يوم الجمعة سابع عشر المحرم ١١٨٣ (٢٧ مايو ١٧٦٨) ثم أضاف الجبرتي الأمر الثانى فى وصفه لدخول الظافرين القاهرة بقوله : وصالح بك ظاهر بوجهه الانقباض والتعيس (٢) .

== مصر عند ما علموا بزحف على بك نحو القاهرة امتنعوا عن استقبال الباشا الجديد وأخذوا يتشاورون بروح غير موالية للعثمانيين فأبهمهم على ذلك مدير دار الضرب ، أحمد أغا العثمانى وهددهم قائلا « لعل قصد الدولة اعداكم فإلزام هذا التبعج ، أى نوع من الحقاء أنتم ؟ أنكم لم تدرکوا بعد قوة السلطان القاهرة . ألا فاعلموا أنى رغم كونى أقل عبيد الدولة شأنًا فلو ورد إلى أمرها جعلت مصر القاهرة محرمة عليكم وحولت ترابها توتياء لعينه وجعلت من وقع منكم فى بدى طعنة للاجسام ، هيالا تضيعوا أوقاتكم فى الباطل واستقبلوا واليكم وطهروا قلوبكم من الكلاله والملل » أنظر أحمد واصف . محاسن الآثار ج ١ ص ٣٠١ ومرعى التواريخ الشمعدانى زاده حوادث سنة ١١٨٢ مخطوط تركى .

(١) الجبرتي ج ١ ص ٣٠٦ وهذه هى المناسبة التى نذر فيها على بك تجديد مسجد السيد البدوي بطنطا وأوقف عليه وفقته .

(٢) الجبرتي ج ١ ص ١٠٦ وخطاب من الأسكندرية ذكره هر .



على بك الكبير في شبابه

ولعل صالح بك كان يحس في نفسه بقرب دوره ، فما كان له وهو من بقايا القاسمية أن يأمن شر على بك ، الذى قضى على القازدغلية عموما والابراهيمية خصوصا وبدأ يؤسس له بيتا ، كما أن على بك لم تفته تلك الملاحظة ، فاعرى به بعض أتباعه فاغتالوه ليلا بينما كانوا معه فى الطريق قرب سوقة عصفور ببولاق ، بعد خروجهم من اجتماع عقدوه بمنزل على بك مساء الأحد ١١ سبتمبر ١٧٦٨ (١٨ ربيع الثانى ١١٨٣)^(١) وذلك تخلص على بك من آخر صنّجق كان يحتمل أن ينافسه شياخة البلد . واستقرت الأمور وسلمت اعنتها على بك الذى أصبح شيخ البلد وسيدھا الفعلي وبذلك الهاية الناجحة اختتم الدور الثالث من حياته فى مصر .

يقرر تلك الحقيقة الرحالة جيمس بروس الانجيزى James Bruce إذ كان قد بدأ رحلته فى أبان ذلك الوقت ووصل مصر فى أواخر يونيه ١٧٦٨ ، وكتب يصف فوضى الحكومات السابقة ثم قال « ولحسن حظى لم أصادف عند مرورى بالقاهرة ذلك النوع المشوش من الحكومات ، بل كان على بك الشهير يقبض على أزمة الأمور بنفسه أو بوساطة عماله » ثم أضاف قوله « أن على بك الذى ذاع صيته فى أوربا فى عصرنا الحاضر لكثرة ما يقصونه عن مخاطراته وجرأته قد حلب أشطر الدهر بما لاقى من إقبال وأدبار فعند ما نفاه منافسوه من العاصمة خرج طريداً ولكنه عاد بعد ذلك فنفاهم بدوره واضهى مطلق السلطان^(٢) .

وبذلك تمهد السبيل أمام على بك للقيام بحركته التى سنفصلها فى الأبواب التالية .

(١) الثابت أن على بك تحمل بسبب ذلك عداء احمد بك بشناق (الشهير بالجزار) وبيان ذلك أن على بك حرّض الجزار فيمن حرّضهم على قتل صالح بك . ولما كان الجزار من أخلص الناس لصالح بك لفضل الأخير عليه أيام كان منفيًا بالصعيد ، فقد اعتذر لعل بك فكظم هذا غيظه وتصنع أمامه اكباره اشهامته وأكده أنه إنما كان يختبر اخلاصه واستشف احمد نيات على بك الحقيقة فأسرع وأسرّها إلى صالح بك الذى أنكرها ظاهرا واستنكرها باطنا لما كان بينه وبين على بك من الموائيق . كما أن على بك أسرع يطفى للموقف فهنا صالح بك باخلاص الجزار وموه عليه قائلا : ينبغي لك يا أخى أن تختبر رجالك أيضا لئلا يكون بينهم خيانة . وأنا قد اختبرت الجزار فوجدته نصحوا . جودت تاريخ جودت ص ٣٤٣ ونفس المعنى فى الأمير حيدر . الثغر الحسان ج ٢ ص ٧٩٨ .

البَابُ الثَّانِي

تمهيدات الحركة

الفَصْلُ الأول

تعميد الطريق

سياسته نحو العثمانيين — شل نفوذ الحامية والديوان .
القضاء على نفوذ العربان : معركتا دجوه وأسيوط .

لم تكده تستقيم الأمور لهلى بك فى شياخة البلد حتى تطلعت نفسه إلى الانفراد
بشئون الحكم فى مصر ، وعادت الحوادث تتطلب منه ما احتواه عقله من حكمة
وخبرة ، وما انطوت عليه نفسه من حزم وعزم وإقدام .

* * *

وكان الطريق إلى تحقيق ذلك يعج بالعقبات . ولم تكن هذه مستحدثة يسهل
اقتلاعها أو ازالها بل كانت موروثة ترجع بأصولها إلى ما يزيد عن قرنين
ونصف من الزمان .

* * *

سياسته نحو العثمانيين :

لم يكن على بك يستطيع أن يمضى فى طريقه ما لم ينتجح فى التغلب على العقبة
الكبرى التى طالما أودت بحياة عشرات من مشايخ البلد وصناعيتها ، تلك هى
شكوك ديوان الاستانة .

وكان على بك بآمن من تلك الشكوك بفضل صداقته المتينة مع محمد راغب باشا الصدر الأعظم وصاحب النفوذ الأكبر في الديوان العثماني ، ولكن وفاة ملك الشخصية المحبوبة من الجميع (٨ ابريل ١٧٦٣) أفقدت على بك سنده الذي كان يحميه في حكومة الباب العالي .

عند ذلك اتبع على بك سياسة التودد إلى العثمانيين ، القائمة على إطاعة السلطان وملاطفة ممثلية في مصر : فهو دائماً المتغنى بافضال السلطان وطاعته ، وهو ابدا المملوك الذي كرس نفسه لخدمة عرش مولاه ، ذلك مع ملاطفة الباشا العثماني ومداراته والتظاهر بتنفيذ طلباته ، فعجل ارسال الخزنة كاملة حتى سنة ١١٨١ هـ (١٧٦٧ م) ^(١) وملاً الخازن السلطانية بالاستانة من خيرات مصر برهانا على ولائه وتفانيه في خدمة السلطان . ولما كان الاهتمام بارسال « صرة الحرمين » وغلاهما مع الأموال الموقوفة على فقراء الحجاز من عوامل ارضاء السلطان فقد بذل على بك غاية جهده في ذلك ، وقام على تجهيزها وارسالها . كما لم يغفل ارسال الهدايا الى السلطان ورجاله ، فقد ذكر الجبرتي في حوادث شوال ١١٨١ هـ (سنة ١٧٦٨ م) أن على بك « هيا هدية حافلة وخيولا مصرية جيادا وارسلها الى اسلامبول للسلطان وجمال دولته » وأنه « كتب مكاتبات الى الدولة ورجالها والتمس من الشيخ الوالد — الشيخ حسن الجبرتي — أن يكتب له أيضا مكاتبات لما يعتقده من قبول كلامه عندهم » ^(٢) .

ولم يكن يصدر في حركة من حركاته إلا عن فرمان من الباشا الذي أدهشه تواضع شيخ البلد رغم قوته ، فامتألت نفسه غروراً لذلك رغم ضعفه . وكان على بك إذا أمر بجمع الميرى فهو انما يجمعه لتدبير أمر الخزنة وتوفير غلال الحرمين ، وإذا حارب منافسيه من البكوات فانما يحاربهم باسم السلطان وفي سبيل تدعيم سلطته .

(١) شمعاني زادة : مرعى التواريخ حوادث سنة ١١٨٨ ، أحمد واصف : محاسن الآثار

ج ٢ ص ٢١٤ ترجمه حمزة .

(٢) الجبرتي . ج ١ ص ٣٠٩

هكذا اكتسب على بك عطف الاستانة مؤقتا ، كما اكتسب معاونة الياشا واحترامه له .

لاندesh اذن متى علمنا أن السلطان ارسل رسوله يحمل لعلى بك « مرسوما وقفطاناوسيفا اظهارا للرضاء السلطاني » كما ان راقم محمد باشا أصبح من انصاره الداعين له . فعندما حدثت مؤامرة ديوان القاهرة ، التي انتهت بقتل الجرجاوى سنة ١٧٦٦ وجرح كمشكش ، نسوها إلى تحريض على بك للباشا ، كما أن راقم محمد باشا خرج بنفسه يدعو الجند لنصرة على بك عندما تهدد مركزه بقدوم كمشكش بك و خليل بك من غزة سنة ١٧٦٧ ووصولها إلى المنصورة ، مما كان له الأثر الفعال في انتصار جيش على بك وكسب معركة طنطا ، وهي كما اسلفنا القول المعركة الحاسمة التي ثبتت على بك الكبير في شياخة البلد .

بل ان الجبرتي يذكر في حوادث يوم السبت ثاني عشر شهر ربيع الاول سنة ١١٨١ هـ (١٧٦٧ - ١٧٦٨ م) ان الياشا « نزل إلى بيت على بك باستدعائه فتغدى عنده و قدم له تقادم وهدايا (١) » .

ولم يغفل على بك أمر من قد يكون لهم تأثير على الباشا ، بحكم عصبيتهم او مناصبتهم ، فنراه ينتهز فرصة احتفال القاضي العثماني حفيد افندي بختان ولده فيرسل اليه هدية يصفها الجبرتي بانها كانت « حافلة » ثم يغري ببقية البسكوات واغوات الحامية والتجار والعلماء ليفعلوا نفس الامر حتى امتلأت حواصل المحكمة بالأرز والسمن والعسل والسكر وكذلك امتلأ المقعد بفروق البن ووسط الجوشن بالخطب الرومي (٢) .

وكان لا يجالس إلا ذوى الخيشية من الرجال ، ويخص من بينهم عبد الله كتنخدا الباشا وكبار ضباط البيكيجرى (٣) .

(١) الجبرتي . ج ١ ص ٣٠٦ — نزل الباشا أى غادر القلعة إلى منزل على بك بدرج عبد الحق وكان يطل على بحيرة الأزبكية .

(٢) الجبرتي ج ١ ص ٢٥٤

(٣) الجبرتي ج ١ ص ٣٨١

وبفضل تلك السياسة ضمن عدم معارضة الباشا او الديوان لأعماله ، وفي ظل تلك الثقة نشط على بك يكمل تنفيذ الخطة التي رسمها لازالة بقية العقبات .
شل نفوذ الحامية والديوان :

لم يكن شيخ البلد في مصر العثمانية ، مهما علا قدره ، يستطيع ان يعمل وحيداً وسط تلك العواصف السياسية ، والحوادث القاسمة على الانانية وحب التسلط ، وإنما كان يعز بقدر ما يملك من ممالك ، ويظهر بقدر من يناصره من بكوات . فلم يكذب على بك يحاصر القاهرة مع صالح بك في أكتوبر ١٧٦٧ حتى أرسل يستدعى كل البكوات الذين نفوا في مدة السنوات الثلاث السابقة . وما أن تقرر له النصر حتى شرع في ازالة انصار العهد السابق من المناصب الهامة ، أما بالقتل أو المنفى الى جهات متفرقة ، وكانت عادته بعد ذلك أن يشرع في « قتل المنافى الذين أخرجههم إلى البنادر مثل دمياط ورشيد والإسكندرية والمنصورة ، كان يرسل اليهم ويخففهم واحدا بعد واحد » (١) وذلك بعد أن يكون قد استصفى أموالهم وأخذ التزاماتهم فوزعها على ممالكه وأتباعه الذين يؤمرهم في مكانهم (٢)

بهذه الطريقة تمكن على بك في ظرف سنوات اربع ، من أن يقيم في أهم مناصب الحكومة بكوات من خاصة اتباعه ، فولى اسماعيل بك دفتر دارية مصر وحسن بك رضوان اماره الحج وأيوب بك ولاية جرجا وعين سليم اغا الليكيجرى وسليمان بك كخيا لنفس الأوجاق ، ولم يكن عبد الله كستخدا الباشا سوى عينه الساهرة لدى العثمانيين كما سيمتدح لنا فيما بعد .

وتيسر لعلى بك أن يملأ جميع مراكز الصناجق الشاعرة ، أو التي أخلاها هو ببكوات تعهدهم منذ كانوا صغاراً وارضعهم لبان الاخلاص له والتفانى في خدمته . ذكر لنا التاجر لوزنيان ثمانية عشرة بيكا وهم رضوان بك ، على بك الطنطاوى ، اسماعيل بك ، خليل بك ، عبد الرحمن بك ، حسن بك ، يوسف بك ، ذوالفقار بك ، عجيب بك ، احمد بك الجزائر ، سليم اغا ، سليمان كستخدا ، لطيف بك ، عثمان بك ،

(١) الجبرتي ج ١ ص ٣٣٦

(٢) الجبرتي ج ١ ص ٣٠٩ ، De Tott : Memoires T. IV. P.65.

محمد بك ابو الذهب ، ابراهيم بك ، مراد بك (١)

وفي الوقت الذى استكثر فيه على بك من المماليك حتى حازما يقرب من ٦٠٠٠ مملوك ، حرم على بكواته وكشافة أن يجوز الواحد منهم أكثر من مملوك أو اثنين حتى يستعصموا به دائماً ويأمن غدرهم .

وأراد على بك فيما أراد أن يأمن شر الحامية والديوان فعول على القضاء التام على نفوذهما والتقليل جهد الطاقة من عدد رجالهما ، فبدأ أولاً بأشرائهم في الحروب الداخلية حتى هلك من صدور الأوجاقات من هلك ، خصوصاً في أول

(١) p.79 lusignan والدافتر التى تتضمن أسماء البسكوات في عهد على بك غير موجودة بالمحفوظات . وتربط رضوان بك بعلى بك صلة الدم فهو ابن شقيقة على بك السكبرى . جاء مصر وسنه ١٦ عاماً فرباه خله على الطريقة المملوكية . وقده كاشفا سنة ١٨٦٨ ومنحه لقب بك بعد ذلك بقليل lusignan, p. 53 أما أحمد بك الجزار فكان مزيّناً من أهالى البوسنة ، عمله الموسيقى ، جاء إلى مصر في حاشية على باشا ١١٦٩ هـ ثم خدم صالح بك ١١٧١ هـ حيث وجد مجالا لإشباع غرامه بالجندي . وصحب سيده إلى الحج ، ولبس زى الجندي وأحبه سيده واشتهر ببوشناق أحمد . ثم انحاز إلى عبد الله بك سنجق البحيرة . وقدر لسيده هذا أن يروح ضحية غدر عرب الهنادى . وتولى بعده ذوالفقار كاشف فعين ببوشناق أحمد حاكماً على إحدى قرى البحيرة وهنا أراد أحمد أن يتشفى لسيده عبد الله خول صناعة من « الموسى إلى أعمال السيف » وأخذ يفتك بعرب الهنادى ، وقتل أربعة من كبارهم . وكان كلما قتل منهم رجلاً يقول « هذا نأر سيدى عبد الله » وكان يرسل رؤوسهم إلى القاهرة فأسموه الجزار . وهاتيه الهنادى ، فكبر في عين على بك فعينه رئيساً للشرطة بالعاصمة ومنحه لقب بك واتخذ وبالذهب آلة للقضاء على المتمردين والمناقبين والمعادين ، حتى إذا جاء دور صالح بك ، أتى أحمد أن يخونه لئله عليه من سابق فضل . وحذر صالح بك من غدر صنائع على بك . ورغمما عن وجوده وقت اغتيال صالح بك فإنه لم يرفع إليه يده يقصده بسوء فعاتبه أبو الذهب وقال له وهو يمسح سيفه من الدم « يا أخى أرنى سيفك أنظر هل هو كسيفي جدير بشهرته !! » وكان قصده أن يأخذ السيف ثم يقتله . فقال الجزار « ان سبقي لا يخرج من غمده الا ليدي ونهض قائماً » وقد أوجس منهم الجزار خيفة وور سنة ١١٨٣ (١٧٦٩ م) سرا إلى الاستانة . ثم حط رحاله بالشام حيث قدر له فيما بعد أن يخلد اسمه مدافعا عن عكا ضد نابليون (الأمير حمدر ١ ص ٨٩٨ ، جودت ١ ص ٣٤٤ — ٣٤٥ ، الجبرتي ١ ص ٣٠٧) وعنه أيضا كتاب Tockroy : Ahmed le Bouchr.

اصطدام لجيش على بك مع كشكش عند الديرص والجراح ، ثم ابعد معظم من
بقي من كبرائهم كما ابعد اتباعهم . وكان غرضه من ذلك كما ذكر الجبرقي « ازالة
أصحاب المظاهر كائنا ما كان ، وقد ذكر الجبرقي من هؤلاء المنفيين ما يزيد على
الثلاثين من ضباط الحامية . وكان إذا عزل أو نفى أو اغتال واحداً من ضباط
الأوجاقات استبدل به آخر من اتباعه . وقد ذكر المؤرخون^(١) ان على بك لجأ أخيراً
إلى حيلة ماكرة لتشتيت شمل من بقي من رجال الفرق الذين كانوا قد التحقوا بها طمعا
في دسامة الموجبات ، إذ اخر دفع رواتبهم مدة ستة اشهر متعللاً بقله المال . ولما
اشتد بهم الحال وذقت انفسهم مرارة الحرمان ، مع عجزهم عن السلب أو النهب
لعتاية على بك بالأمن والعدل قبلوا تسلم نصف رواتبهم ، ولم تعد الجندية مطعمها
لأولئك الذين لم يعرفوا لها معنى سوى التجبر والنهب فأخذوا يبحثون عن
عمل أجدي .

غير أننا لم نعثر في الوثائق الرسمية ودفاتر الرواتب عن سند لهذه المسألة ،
ولم يتسن لنا العثور على دفاتر الأوجاقات لتلك السنوات ، ولكن كل ما ذكر في
سجلات « دفاتر مرتبات مردان القلاع التابعة لحروسة مصر » لا يتماشى مع هذا
الرأى ، بل على العكس وجدنا عدة مرفقات بالدفاتر تركها الأفندية ، وهى عبارة
عن اخطارات من كاتب اوجاق متفرقة إلى افندى المصرف (قلم الصرف)
بمختلف القلاع ، بشأن صرف تذاكر رواتب عساكر تلك القلاع وعبارتها
لا تشمل حدوث أو تعمد أى تأخير أو تقصير ، مثلها نص الاخطار التالى وهو
محرر بالعربية :

بعد مزيد السلام عليكم نعرفكم اننا قابلنا حضرة اسماعيل افندى ووزناجى
وأخبرناه بتذاكر القلاع فلم قصروا وعدنا انه يأذن لكم فى اخراج التذاكر
والحال يأخى انكم تعطوهم تذاكرهم والعهدة علينا .

سليمان افندى كاتب كبير متفرقة

وقد آثرنا ان ننقل نصا آخر بالتركية ونقارن فيه بين تاريخ التحرير وتاريخ الاستحقاق وتاريخ الدفع وهو من كبير افندية اوجاق متفرقة إلى افندی قلعة ابریم وهذا نصه (١)

بنم عزتلو او غلوم افندی حضر تلرینک
حالا قلعة ابریم بیک یوزسکسان بش رشن مواجبک تذکرة سی اخراج
وخلیل حمد حواله سند تسلیم ومعتاد اوزره عوایدکزی اخذ ایله سز
امضاء سلیمان کاتب متفرقة حالا
تحریر آ فی ٢٥ شعبان ١١٨٥

وترجمته بالعربية

حضرة صاحب العزة ولدنا الأفندی

الرجا اخراج تذکرة مواجب قلعة ابریم عن قسط رشن ١١٨٥
(رجب شعبان رمضان) وتسليمه لخلیل حمد الحواله بعد أخذ عوائدكم المعتادة
امضاء سلیمان کاتب متفرقة حالا
تحریر آ فی ٢٥ شعبان ١١٨٥

ومعنى هذا أن تاريخ استحقاق دفع هذا القسط أوائل شوال ١١٨٥ ، حرر
عنه الاخطار السابق بتاريخ ٢٥ شعبان أى قبل الاستحقاق بشهر وقد رجعنا
إلى قلعة ابریم فوجدنا بالدفتري اشارة إلى أن قسط رشن المذكور دفع بتاريخ ٨
شوال ١١٨٥ ، وهذا لايعنى أى تأخير .

* * *

ولكننا فى مثل ثان لقلعة أخرى وجدنا تأخيراً فى دفع رواتب بعض
الاقساط وتقديماً فى دفع البعض الآخر ، فحامية قلعة دمياط مثلاً تسلمت رواتبها
كالآتى :

عن مصر (محرم ، صفر ، ربيع أول)

(١) دفتر أرقام قلاع در نواب محروسة مصر واجب ١١٨٥ هـ رقم ١٣٢ / ٥٥ مخزن ترى

إلى لند (شوال ، ذو القعدة ، ذو الحجة) بتاريخ ٨ رمضان ١١٨٥ ، ومعنى هذا أنها في سنة ١١٨٥ تسلمت مرتبات السنة دفعة واحدة منها القسطن الأولان متأخران ، والقسط الثالث قبل مواعده بشهر ، والقسط الرابع قبل مواعده بأربعة شهور .

* * *

وهناك مثل ثالث لقلعة العريش ، دفعت مرتبات رجالها متأخرة في جميع الاقساط ولكننا نلاحظ انتظام التأخير ، بحيث يتلاشى أثره على مدار السنة (١)

فقسط مصر (محرم ، صفر ، ربيع أول) دفع بتاريخ ٢٥ رجب ١١٨٥

» رجب (ربيع ثان ، جمادى الأولى ، جمادى الآخرة) »

» رشن (رجب ، شعبان ، رمضان) دفع بتاريخ ٨ ذى القعدة ١١٨٥

» لند (شوال ، ذو القعدة ، ذو الحجة) دفع بتاريخ ٢ ربيع الثاني ١١٨٦

يتضح مما تقدم أن أقساط مرتبات رجال القلاع ، وعددهم ينيف على الفين وخمسمائة ، موزعين في اثنين وعشرين قلعة ، كانت تدفع بانتظام كل ثلاثة أشهر قمرية ، وإن كان ثمة تأخير فهو ناشئ من تأخير تسليم ديوان الروزنامه للأموال المقررة لسبب من الأسباب ، وهذا ثابت فيما يختص بموقف على بك من حاميات القلاع وهي من المتفرقة ، أما فيما يختص بالأوجاقات الأخرى فغير قاطع ، والوثائق لم تمدنا بمعلومات ذات قيمة لعدم وجود دفاتر لرواتبهم في تلك الفترة ، والتحفظ اجمل من الانسياق وراء آراء المؤرخين حتى نعثر على السجلات الرسمية . وقد اورد لنا الجبرتي مثالا للطريقة التي كان يتبعها على بك للتخلص من منافسيه قال « وفي يوم الخميس (٥ شعبان سنة ١١٨٣) ارسل على بك ، عبد الرحمن اغا مستحفظان إلى رجل من الأجناد يسمى اسماعيل اغا من القاسمية وامره بقتله . وكان اسماعيل هذا منفيا جهة بحرى وحضر إلى مصر قبل ذلك وأقام ببיתה جهة الصليبية ، وكان مشهوراً بالشجاعة والفروسية والاقدام . فلما وصل الأغا حذاء

(١) دفتر أرقام قلاع توابع محروسة مصر واجب ١١٨٥ هـ رقم ١٣٢ / ٥٥ مخزن تركي

ميته وطلبه، ونظر إلى الأغا واقفا باتباعه ينتظره علم انه يطلبه لقتله كغيره، لانه تقدم قتله لأنفس كثيرة على هذا النسق بأمر على بك (١) »

* * *

غير أن على بك كان يخشى نفوذ اوجاق اليكبرية ، أقوى اوجاقات الحامية وامر سها، والتي ينسب فضل ظهوره إلى كتحداها السابق ابراهيم كخيا ، كما ينسب توليه شياخة البلد لأول مرة إلى قائدها اللاحق عبد الرحمن كتحدا . لذلك عين لها قائدا من أتباعه هو عبد الرحمن اغا ثم سليم أغا، كما عين لها كتحدا من أتباعه أيضاً هو سليمان بك . ثم صادق كبير كتابها محمد افندى ، وبذا أصبحت تلك الفرقة طوع بمانه .

وقد لاحظ نقص عدد جنود تلك الفرقة وقلة نفوذها الفرنسي بوايه Boyer وعلق على ذلك بقوله في تقرير له بتاريخ ٢٧ سبتمبر ١٧٦٨ « لم يهزل اوجاق اليكيجرى من قبل إلى مثل الدرجة التي هو عليها اليوم (٢) »

* * *

هكذا أضعف على بك سلطة الديوان العثماني بالقضاء على نفوذ كبار ضباط الاوجاقات ، وأنقص عدد رجالها إلى الحد الذي يمكن اعتبارها بسببه كما مهملا وبعد أن أمن على بك مكر الباشا والديوان ، وكسب رضا السلطان وقضى على المعاندين والمنافقين ، وشل الحامية حتى كادت تكون اسما بلا جسم ، وبعد أن ركز السلطتين الادارية والحربية في يده، أصبح في مركز يسمح له بالقضاء على آخر القوى الخطيرة التي يمكن أن تهدد سلطته ، بل وجوده ، تلك هي قوة العربان المنتشرين في الوجه البحرى والمنبئين في الصعيد .

القضاء على نفوذ العربان : معركة دجوه وأسيوط
جمهرة المؤرخين الذين تعرضوا لمسألة العربان هذه عالجوها على أنها محاولة

(١) الجبرتي ج ١ ص ٣٠٨

(٢) أورده Déberain p. 126

من على بك لأقرار الأمن الداخلى والسلام ، بينما هى فى نظرنا مسألة مزدوجة :
ظاهاً اقرار الأمن ، وباطناً دعم مركزه بالقضاء على منبت الفتن السياسية
والملمجأ الأخير لها . وجهاد على بك ضدهم فى الوجه البحرى ، أى ضد عرب
الهادى والحبابية ، يغلب عليه القصد الأول ، بينما يغلب الوجه الثانى على كفاحه
ضد همam فى الصعيد .

وللعرب فى مصر قصة قديمة تبدأ مع الفتح العربى . ومنذ دخلوا فى ركاب
عبرو وهم أصحاب السلطة ، حتى إذا ما انتقلت أمور الحكم إلى أيدى دول شبه
مستقلة استمر تدخلهم بشكل ما . ولما استقلت بمصر دول الفاطميين والايوبيين
والمماليك ، وتعذر على العرب التدخل الفعلى فى شئون الحكم ، التحق بعضهم بالجيش
كجنود مرتزقه . وأخيراً عند ما حارب المماليك دفاعاً عن دولتهم ضد العثمانيين
ساعدهم العرب أولاً ، ثم تخلوا عنهم عندما تبين أن قضيتهم خاسرة .

وجاء الحكم العثمانى حائلاً دون تدخلهم فى الحكومة والجيش ، فراحوا
يعيشون فى مصر فساداً ، يقطعون طريق الحج ، ويسلبون التجارة فى طريقها من
الصعيد إلى أنحاء الوجه البحرى ، وأخذوا يهاجمون الأرض المزروعة من حين
إلى آخر ، لا يراعون فى ذلك حرمة . واشتهر أمرهم هذا وعرف فى التاريخ باسم
« أفساد العربان » (١)

عالج تلك المسألة المؤرخ پولياك Poliak فى كتابه « ثورات مصر الشعبية
وأسبابها الاقتصادية فى عهد المماليك » واعتبر (افساد العربان) من أهم عواملها ،
إذ كثيراً ما نصادفهم فى ذلك العهد أما فى ثوب اللصوص وقطاع الطرق ، وأما
فى ثوب الثائرين على الحكومة يرفضون دفع الميرى ، وأما مغيرين على القرى
المزروعة يسلبون وينهبون ؛ وبالاختصار كانوا عنصرفوضى واضطراب . ولهذا
العنوب كان من أهم اختصاصات الكاشف حماية الزراع من عبث الاعراب ،

Sonnini ; Voyage . . . T.I. Chap. XXXI. p. 253 & Poliak : (١)
les Revoltes Populaires p. 257-8.

وأغرى على تأديبهم بمنحه ما يغنمه منهم ، كما جعلوا العزل عقابه إذا ثبت تهاونه
في تأديبهم (١) .

* * *

وكان أخطر العرب قدرا بالوجه البحرى الحبابية بشرق الدلتا ووسطها ،
والهنادى بالبحيرة . وهؤلاء جاء معظمهم من الحجاز ، بينما استقر عرب هواره
بالصعيد . ومعظمهم جاء من بلاد المغرب (٢) وغير هؤلاء كثيرون انبثوا فى أنحاء
القطر على حدود الوادى المتزرع ، فمنهم من استقر وترك حالة البسداوه
ومنهم من ظل متديبا .

* * *

وورث سويلم بن حبيب عن أبيه حبيب وشقيقه سالم شهرة تردد صداها فى
أنحاء الوجه البحرى ، وانتهت اليه زعامة جميع القبائل هناك ، وهابه الجميع
لجراته وشدة بأسه « وأحاطوا أعماله بها له من الخيال حتى قوموه وفرسه
بألف خيال »

وقد انتهت اليه خفارة الملاحة النيلية بين بولاق وكل من دمياط ورشيد ،
غير أنه رغم ثروته الطائلة ، وما كان يسمينه من الضياع الواسعة ، تجبر وبغى وطغى
وأصبح لا يفتقر فى شىء عن قطاع الطرق . بعد أن زاول القرصنة النيلية « وأنشا
عدة مراكز تسمى الخرجات ، ولها شرافات وقلوع عظيمة ، وعليها رجال غلاظ
فاذا مرت بهم سفينة صاعدة إلى (الوجه القبلى) أو حادرة (إلى البحرى) ،

Combe. L'Eg. ottomane p. 77. (١)

(٢) ينسب الحبابية الى حبيب بن سعد أعظم المشايخ قدرا بالقليوبية خاصة والوجه البحرى
عامة ، وهو كبير نصف سعد وليس لهم أصل مذكور فى قبائل العرب ، وكان ظهوره فى
أوائل القرن الثامن عشر — الجبرقى ج ١ ص ٣٤٥ — أما الهواره فقد اختلف المؤرخون
فى أصلهم : أشار الى ذلك المقرئى فى كتابه « البيان والأعراب عما بارض مصر من الأعراب
ص ٣٣ — ٥٨ — ٦٠ رالذى يهمن أن الظاهر برقوف أقطع كبيرهم أرضا ناحيه جرجا
حوالى سنة ٧٨٢ هـ وكانت خرابا فعمروها واستقروا بها .

صرخ عليها أو لك الرجال قائلين « البر » ، فان امتثلوا وحضروا ، أخذوا منها ما أحبوه من حمل السفينة وبضائع التجار ، وأن تملكثوا في الحضور قاطعوا عليهم بالخرجات في أسرع وقت ، واحضروهم صاغرين ، وأخذوا منهم اضعاف ما كان يؤخذ منهم لو حضروا طائعين من أول الأمر ، وكان له قواعد وأغراض وركائز وأناس من الأمراء وأعوانهم بمصر يرأسهم ويهاديهم فيذبون عنه ولا يسمعون فيه شكوى (١) .

وما كان على بك ليسمح لملك الفوضى بالبقاء في عهده ، وما كان ليغمض عينيه على من كانت « غالب بلاد القليوبية والشرقية تحت حمايته وحماية أقاربه وأولاده ولا يقدر ملتزم ، ولا قائم مقام على تنفيذ أمر مع فلاحيه إلا بإشارته . » ثم هو يتحكم في الطريق بين القاهرة وموانئ القطر الشمالية ، فوجه على بك تجريدة بقيادة أبي الذهب وأيوب بك للقضاء على سويلم بن حبيب ، وتأديب أتباعه ، وحجته في ذلك ان سويلما كان قد أكرم حسين بك كشكش وخليل بك عند عودتهما من الشام .

ولم يكن سويلم موجوداً في مركزه دجوه (٢) ؛ بل كان في سند نهور ، فأسرع إلى البحيرة . والتجأ إلى عرب الهنادى فاكتفى محمد بك أبو الذهب بتجريد دوائره بما فيها ؛ وعاد إلى القاهرة سنة ١٧٦٩ (ربيع آخر ١١٨٢ هـ) .

ولم يكتف على بك بذلك ، بل سلط عليهم سنجق البحيرة عبد الله فاشتبك معهم ولسكنه خر صريع المعركة ، فتولى بعده ذو الفقار كاشف الذي استعان بأحمد الجزار على الانتقام لمقتل عبد الله ولما تم اغتيال صالح بك . ووقعت القطيعة بسبب تلك الحادثة بين أحمد بك الجزار وعلى بك ، وفر الجزار إلى سورية .

(١) الجبرتي ج ١ ص ٢٤٩

(٢) دجوة قرية صغيرة من مديرية القليوبية واقعة على الضفة الشرقية لفرع دمياط وكانت مركز عرب أولاد حبيب عامرة بالخيرات . على باشا مبارك الخطط التوفيقية ج ١ ص ١٠١ .
الجبرتي ج ١ ص ٣٠٨

عاد مرة ثانية ليناصر سويلها عدوه القديم ضد سيده وصاحب الفضل عليه على بك .

عند ذلك أسرع على بك فجهز تجريدة بقيادة اسماعيل بك شددت النكير على الحبابية والهندى ، فانسكروا شر كسرة ، وقضوا على سويلم ونكلوا بأتباعه ، وزال خطر أولئك الاعراب (١) .

* * *

وبعد أن أصبحت القاهرة فى يد على بك وخلص له الوجه البحرى أيضا تطلع إلى استخلاص الصعيد وهو مركز تموين القطر من يد أعظم مشايخ العرب قدرا وأكثرهم نفوذا وأتباعا همام بن يوسف الهوارى .

وكان حكم الصعيد منذ عصر المماليك فى يد شيوخ العرب من هواره . حتى كان عهد الوالى العثمانى سليمان باشا الذى فكر فى أن يعهد بحكم الصعيد إلى أحد بكوات المماليك بدلا من مشايخ العرب الذين كان قد أدى بهم الغرور والاستهانة بالعثمانيين إلى « قلة الاهتمام بالأموال السلطانية والغلال الديوانية وكثرة البوائق التى لا تعد ولا تنحصر ، والتقصير فى ضبط المال والغلال والجبايات الظاهرة وحصول الخسارة الزائدة والظلم المترادف لعامة الرعايا وكافة البرايا » هذا مع اهمال مصالح البلاد وكافة أنواع الإصلاح مما أدى إلى الخراب . ففى أواخر سنة ٩٨٣ هـ . أرسل سليمان باشا منشورا إلى أعيان الصعيد يتضمن الأسباب التى ادت إلى أن يعهد بحكم الصعيد إلى سليمان بك أحمد زعماء المماليك ، وهو فى آخره بوصيه خيرا بمراعاة العدل والإصلاح ارضاء للسلطان وشفقة بالرعية الذين ذاقوا

(٢) كان سويلم متخفيا فى خيمة امرأة بدوية فدل عليه بعض الأعراب فقتله المماليك وقطعوا رأسه ورفعوها على رمح ثم علقوها على باب زويلة فارتفعت الحرب — أما أحمد بك الخزار ففر ثانية الى السلم ، وأما أولاد سويلم دهقا عنها ٣٣ على بك بعد توسط اسماعيل بك وأبى الذهب وعاشو كآحاد الناس . الجبرقى ج ١ ص ٣٣٥ ، ٣٤٩

الأميرين من ظلم العرب ، وبعرب هوارة حتى يألفوا الحكم في ثوبه الجديد (١) .

* * *

ولما ضعف سلطان العثمانيين بمصر وتمهد السبيل لسيادة المماليك وأخذ سنجق جرجا يتجه ببصره إلى القاهرة ويهتم بحوادثها السياسية أكثر من الاهتمام بأمور الصعيد ، وأصبح الوجه القبلى منى المتمردين والمغضوب عليهم وكان هؤلاء في حاجة إلى سواعد العرب ومالهم ليستعينوا بهم على منافسيهم بالقاهرة ، بدأ النفوذ يعود تدريجاً إلى عرب هوارة .

وبدأ هؤلاء يناصرون حزبا على آخر ويهتمون بالاحداث السياسية التى لم تعد تقتصر على القاهرة بل شملت القطر من شماله إلى جنوبه واضمورا بذلك قوة هائلة خطيرة ترجع السكفة التى يضمون اليها (٢) .

* * *

وما كاد القرن الثامن عشر الميلادى ينتصف حتى انتهت زعامة عربان الصعيد إلى شيخ العرب همام بن يوسف الهوارى . وبقدر ما كانت هيبة سويلم بن حبيب فى الوجه البحرى تقوم على الرهبة من طغيانه وفجوره ، كانت هيبة همام بن يوسف فى الوجه القبلى تقوم على الإعجاب بشهامته وتقدير مجموعة الصفات النادرة التى كونت شخصيته الفذة .

وأضحت سلطته مطلقة فيما بين جرجا وأسوان ، وفى مقابل ذلك كان يرسل الميرى بانتظام خلاف ما كان يهديه الى الباشا وشيخ البلد بالقاهرة ، وكشف الاقاليم التى يحكمها (٣) وبينما كانت بقية القطر ترزح تحت أعباء الظلم والاستبداد

(١) نقل هذا على باشا مبارك عن فرمان ذكره عثر عليه فى كتاب لم يقف على اسمه ولا

اسم مؤلفه ، الخطط التوفيقية ج ٩ ص ٩٤

(٢) Norden: Vayage D'Egypte . . . , T.1, p. 197.

(٣) الجبرتى ج ١ ص ٣٤٣

وتثن من جراح النزاعات ، وتعانى الأرض ضروب الالهال والبوار كانت مضر
العليا الشمالية تعج بالخيرات ، وتنعم باوفر قسط من الاهتمام والاستثمار ،
ويتمتع أهلها بهدوء شامل وأمن مقيم ، وكل ذلك بفضل عبقرية همام .
وأن الإنسان ليدهش وهو يستمع إلى تغنى الجبرقى بخصال همام الحميدة ،
وما جبل عليه من كرم غمر كل من قصدة . ويكنى أن تعرف ان الخدم كانوا
يهيئون أمر الفطور من طلوع الفجر فلا يفرغون من ذلك الا ضحوة النهار ، ثم
يشرعون فى أمر الغذاء من الضحوة الكبرى إلى قريب العصر ، ثم يتدبرون فى
أمر العشاء فلا يفرغون من ذلك الا بعد العشاء وهكذا . . . « ولا يكاد المرء
يصدق ما أورده الجبرقى عن امواله واملاكه وما ملكت يده مما يقصر دونه
الحصر ، ويخطئه العد ، ولا يمكن أن يتناهى اليه الخيال لولا ما عرف به الجبرقى
من الميل إلى الدقة وعدم المبالغة ، ولولا أن الحوادث التى وقعت وروايات
بعض الكتاب المعاصرين تؤيد تلك الحقيقة التى فاقت الخيال .

تكلم عنه المهندس جيرار Girard الذى جاء مصر بعد وفاته ، وهو أحد
من ساهموا فى كتاب « وصف مصر » فقال « ان كان يصح الحكم على ادارة
الشيخ همام على أساس الشهرة التى خلفها ، فأنتا نجزم بأن مصر العليا كانت
سعيدة فى عهد حكومته ، فلا يزال الأعيان والقضاة والسكان جميعاً ، سواء منهم
المسلمون والمسيحيون يبجلون ذكره ، ويتأسفون لانتهاء عهد الشرطة التى اقامها
والرعاية التى كان يوليها الأعمال العامة والزراعة حتى اصبحت زاهرة .

وكان بكوات القاهرة يستغلون ذلك النبيل العربى فى نفس همام إلى اقصى
حدود الاستغلال ، فكأثرا يستجبرون بحماه إذا نفوا إلى الصعيد ، ويستعينون
بماله ورجاله إذا عزموا على العودة إلى القاهرة حيث المجد والسلطان . وكان نبيله
فى كل مره يأبى عليه الا أن يؤويهم ويحيرهم ويمدحهم بحاجتهم من المال والرجال
والعتاد ، وهذا هو السر فى أننا نقابل ذكر عرب هوارة فى جميع المحاولات

الجديدة التي كان يقوم بها بعض البكوات المنغين بالصعيد لاستعادة نفوذهم بالقاهرة . وعلى هذا الاساس قبل همام سنة ١٧٦٦ (١١٨٠ هـ) أن يوفق بين صالح بك صديقه الحميم حاكم جرجا وبين علي بك الذي كانت جميع الدلائل تشير إلى عظمته المستقبلية . فلما نجح في مسعاه أمدهما بكل مايلزمهما من مال ورجال ، وبعد ان نجح الحليفان سنة ١٧٦٧ م في دخول القاهرة والقبض على السلطة بعد فرار كمشكش بك و خليل ، وما تبع ذلك من محاولة على بك التخلص من صالح بك ، مما أدى إلى قتله بسويقة عصفور بيولاقي ، استنكر همام عمله هذا . وفطن إلى أنه لا يقيم للعهود أو المواثيق وزناً ، وبدأ يوجس منه خيفة . أما على بك فانه بعد أن تخلص من صالح بك ، وبعد أن استخلص الوجه البحرى من أيدي عرب اولاد حبيب والهنادى ، عزم على أن يزيل من الوجود شخصية همام الساحرة التي كانت تجتذب ولاه كل من صادفها من الأهالي أو العرب أو المماليك .

* * *

لم يكن همام يطمع في زيادة مال ، ولم يكن يعمل اتويد نفوذه أو توسيع أملاكه ، ولم يكن على بك يخشى منه هذا ، وانما كان يرجو بالقضاء عليه أن يستولى على الوكر الذي تنبت فيه الفتن . أراد أن يخرب الحصن الذي يستجير به المنفيون ، وأن يقضى على المورد الذي يمول منافس شيخ البلد . ولم يكن همام بالضعيف الذي يجار عليه ، وهو الذي أجار على بك من قبل . ولم يكن بالأعزل الذي ينقصه السلاح أو الاتباع ، بل كان رجاله لا يخصيهم العد وسلاحه يزيد على حاجته . ورغم كل هذه الاعتبارات لم يتوان على بك في ارسال تجريدة بقيادة أبى الذهب لقتال همام بحجة أنه أنكر الاتفاق الذي كان قد عقده مع ابراهيم كتحيا سنة ١١٤٩ هـ مؤداه التنازل له عن التزام برديس وفرشوط (١)

وما كاد أبو الذهب يقابل طلائع همام حتى اتفق الطرفان على أن يقتصر حكم همام على البلاد الواقعة قبلي برديس وبذا أخرجت منها جرجا عاصمة الصعيد (١) وكان ذلك في منتصف رجب سنة ١١٨٢ هـ (١٧٦٨)

عند ذلك أسرع على بك بتعيين أيوب بك حاكما على جرجا، وفي نفس الوقت عول على أن يستمر هذا الصلح في تطهير الصعيد من جميع الأمراء والمماليك المنفيين، فأرسل يشترط على همام أن يطردهم من البلاد التي في حكمه مقابل اقراره لنصوص الاتفاق — واستشف همام نيات على بك وأيقن في نفسه أن هذا العمل ان يكون الا خطوة تمهد (لشيخ البلد) بالقاهرة القضاء على (شيخ الصعيد) فجمع المماليك المنفيين، والفارين، واللاجئين واخبرهم بما اراد على بك، وطلب منهم ان يخرجوا إلى اسيوط. ويتحصنوا بها فهي مفتاح الصعيد. ووعد ان يمدهم بالمال والرجال.

ولما زحف هؤلاء على اسيوط وجدوها محصنة، حولها بوابات مصلحة بناها عبد الرحمن كاشف وذو الفقار كاشف من اتباع على بك. فلما امتنعت عليهم استعانوا بأحطاب جعلوا الكبريت والزيت في رؤسها واشعلوها واحرقوا الباب وملكوا مفتاح الصعيد قبل وصول أيوب بك بقليل.

ولم ير أيوب بك من الحكمة أن يصطدم بمن سبقه إلى اسيوط فأرسل إلى على بك يطلب مددا.

ورأى على بك أهمية المعركة القادمة وخطورتها، فالسيادة ستنتهي إلى من يكتب له النصر فيها. لذلك جهز بجدة سريعة من المماليك والمغاربة وفرق الحامية على رأسهم خليل بك القاسمي وابراهيم بك بلغيا ومحمد بك أبوشنب وعلى بك الطنطاوي، وزودهم بالمؤونة والذخيرة، وأرسل في أثرهم تجريدة شاملة من

(١) تصادف أن ولد لأبني الذهب ولد في ذلك الوقت فأعلن هام تنازله عن برديس انعاما

المماليك ، والمرزقة من الدلاة والدروز والمتاولة والشوام ، وعلى رأسهم محمد بك أبو الذهب ورضوان بك ، ولما التأم جمعهم تقدموا واصطدم الفريقان خارج أسيوط (١) .

واشتد القتال حتى تقرر النصر لجيش على بك ، وقتل من أعدائه الكثيرون ، وفرت قلوب المهزومين الى فرشوط حيث كان همام . ولكن أبا الذهب لجأ إلى الحيلة فراسل ابن عم همام ، وهو أبو عبد الله ، واستماله ومناه ووعده برياسة بلاد الصعيد حتى ركن الى تلك الأمانيه ، وصدق تمويه أبي الذهب وتقاعس وثبط عن القتال وخذل طوائفه . ولما أحس همام بحالة جيشه النفسية وخيانة أقرب الناس اليه مات كذا قرب اسنا (٨ من شعبان سنة ١١٨٣ هـ — ١٧٦٩ م) وبذلك تقرر النصر النهائي لأبي الذهب .

وتعتبر معركة أسيوط في نظرنا من احسن المواقع في تاريخ على بك ، وهى ثانى المعارك الثلاثة الهامة التى اشترنا اليها . وهى التى اكدت له النصر ، فأصبح سيد الوجهين وصاحب النفوذ المطلق فى جميع انحاء القطر المصرى .

الفصل الثاني

انفراد على بك بحكم مصر

فرصة الحرب الروسية العثمانية — بدء الثورة وتخلصه
من الباشا العثماني — انفراد على بك بالسلطة .

فرصة الحرب الروسية العثمانية ١٧٦٨ — ١٧٧٤

لم يكد على بك يفرغ من توطيد نفوذه في مصر حتى اشتبكت الدولة العثمانية في حرب ضروس مع روسيا التي عادت الى تحقيق سياستها التقليدية بالتوسع نحو بحر البلطيق غربا والبحر الأبيض جنوبا . وتدخلت في أزمة العرش البولندي بعد خلوه بوفاة الملك فردريك أغسطس الثالث في ٥ أكتوبر ١٧٦٣ . وقد أدى هذا التدخل الى أن تعلن الدولة العثمانية الحرب ضدها في أواخر أكتوبر ١٧٦٨ .

ولكي تشغل روسيا عدوها عن تكريس قوته لتلك الحرب ، وتعجزه عن التدخل الحاسم في تلك المسألة ، قامت بدعاية واسعة ضد الدولة العثمانية في ولاياتها الأوربية والآسيوية ، ونجح الدعاة الروس في استغلال مساوىء الادارة العثمانية والنصرة الوطنية والدينية والمذهبية ، فبدأ لهيب الفتنة ، وانتظمت روح الثورة ولايات البلقان ، وماجت رومانيا بالثورة ، وتبعها سواحل الأدرياتيك وتساليا والبلوبونين والصرب والأفلاق والبغدان والجبل الأسود . ولم تكن الدولة العثمانية في حاجة الى ما يزيد انشغالها إذ كان لديها ما عجزت عن معالجته في بلاد العرب ومصر وفلسطين وسوريا وبغداد وأرمينية وطرابزون . فإذا أضفنا

الى ذلك ثورات أملاكها الأوربية ، وفساد نظمها الداخلية ، ووهن قوتها الحربية
دأركنا مدى عجزها عن الكشفاح المنتج . حتى لقد اعتبر مؤرخو الترك تلك
الحرب بمثابة « فتح جرح في جسم الدولة في وقت انتشر فيه القحط في الممالك
الشاهانية وكانت ادارة العسكر اسما بلا جسم (١)

وبينما كانت الدولة العثمانية تنتظر وصول الامدادات الحربية التي طلبتها من
ولاياتها ، اسرعت روسيا فهاجمت الحدود العثمانية من جميع النواحي دفعة واحدة
من الشمال والجنوب ، ومن الشرق والغرب . نخاضت جيوشها غمار المعارك على
الدانوب ، وفي القرم ، وفي جورجيا ، وبلاد المورة ، بينما انتشرت اساطيلها
في البحرين الأسود والابيض فهاجمت بلاد الاناضول وسورية وهددت مصر .
وضيقت الخناق على البحرية العثمانية التي ارتدت إلى خليج جشمه وقضت على
معظم وحداته (٧ يولييه ١٧٦٩) (٢) . وفي ذلك يقول المؤرخ العثماني رسمي
أحمد الكريدي « أرسل الروس سفنهم بطريقة لم يسبق لها نظير من بطرسبرج
الواقعة في نهاية بحر البلطيق الى مضيق سبته ، ومنه الى مياه المورة وبحر الارخبيل
وكان هؤلاء في نظر ارباب التجارب (من العثمانيين) جماعة من الكفار
الموسومين بالجهل بمياه البحر الابيض فتفاموا بأنهم سيمصابون بمنه تعالى بزوبعة
شديدة ويتفرقون . إلا أن الريح هبت بحكم الاستدراج مساعدة لهم فضيقوا
الخناق على اسطولنا في اول هجوم في موضع يدعى جشمه أمام جزيرة
ساقز وشتموا شمله » (٣)

وفي الميادين البرية ذاق العثمانيون من مرارة الهزيمة ما جعل فلولهم ترتد عبر
الدانوب ، وتخرج من القرم ، وتجلو عن الافلاق والبغدان وصربيا .

(١) جودت ج ٢ ص ٨٨

(٢) De Perceval : Precis de l'histoire de la Guerre. p. 86 & Nazarevski :
Histoire de Romanov 1613-1918 : p. 227.

(٣) رسمي الكريدي . خلاصة الاعتبار . الفصل السادس سنة ١١٨٨ . مخطوط تركي .

ومن خلال تلك الكوارث الحربية استشف على بك الكبير في مصر انشغال الدولة العثمانية في أوروبا ، وارتباكها السياسى ، وضعفها الحربى ، وعجزها عن حفظ هيبتها ، فعول على استغلال تلك الفرصة لمصلحته الخاصة (١)

* * *

بدء الثورة وتخلصه من الباشا العثمانى :

والتخلص من الباشا العثمانى قبل ذلك لم يمكن من مصلحة على بك ، فقد رأينا كيف اتخذ سنداً في كفاحه ضد العناصر المعادية ، ولكن حان الوقت للتخلص من ظل سلطته ، فاستصدر من الديوان أمراً بعزل الباشا . وإلى ذلك أشار الجبرتي بقوله انه « حصلت قلقلة من جهة وإلى مصر محمد باشا فانزلوه الى بيت احمد بك كشك وجرشوه في سابع عشر رجب ١١٨٢ — اكتوبر ١٧٦٨ » وفى يوم الأحد غرة شعبان ، تولى على بك قائممقامية عوضا عن الباشا (٢) . وقد ظل محمد باشا محجورا عليه حتى توفى في أوائل سنة ١١٨٣ (١٧٦٩) (٣) . وظل على بك قائممقام حتى آخر عهده ولم يعد يسمح للباشوات العثمانيين بدخول مصر . وهناك خبر متواتر أول ما ذكره لوزنيان ١٧٨٣ ملخصه أن بعض منافسى

(١) يتبين لنا من وصف الرحالة بروس (Bruce v. 1; p. 39) لأول مقابلة له مع على بك في يولييه سنة ١٧٦٩ ، مقدار الأهمية التى كان يعلقها البك على انشغال الباب العالى في حربه مع روسيا قال « وحدثنى البك مباشرة عن حرب الأتراك مع الروس وسألنى عما إذا كنت قد بحثت من قبل — وكان يعتقد أنه عالم بالملك — ما ستكون عليه نهاية تلك الحرب ، فأجبت أنه ضعف الترك بدا واضحا في جميع المعارك التى خاضوها برا وبحرا . فسألنى أيضا هل ستحرق القسطنطينية أم تسقط ؟ فأجبت لا هذا ولا ذلك ولكن سيعقد صلح بعد أن تسيل دماء كثيرة ولن يكسب أحد الطرفين كثيرا من هذه الحرب . فضرب لبك كفا على كف وقال بالتركية « لا حول ولا قوة إلا بالله » ثم التفت إلى رزق الذى كان واقفا وقال له « لاشك في أن ذلك سيكون من قلة حظنا ، ولكن ما قدر يكون أن الله بنا لرؤوف رحيم » .

(٢) الجبرتي ج ١ ص ٣٠٨

(٣) الجبرتي ج ١ ص ٣٣٤

على بك حرضوا الباشا على كتابة رسالة إلى السلطان ضد على بك ، وانتهزوا فرصة الحرب الروسية العثمانية ، وكتبوا إلى السلطان أن على بك انما جهز الجيوش التي طلبها الديوان ، لا لنصره السلطان ، وانما لمعاونة روسيا ، فلما وصلت الرسالة إلى الديوان بالاستانة صادفت ذلك التوتر الذي صحب اعلان الحرب ، فأرسل الديوان أمرا إلى الباشا باعدام على بك (أكتوبر ١٧٦٨) ثم نقص علينا هذه الرواية كيف علم على بك بتلك المؤامرة ، وأنه أرسل مملوكه على بك الطنطاوى على رأس جماعة من أخلص مماليكه في ملايس الأعراب ، فكمنوا في طريق الرسل واستخلصوا منهم الفرمان ، ثم قتلوه ودفنوه في رمال الصحراء . . . وأمر على بك بجميع الديوان ، وتلى الفرمان واستصدر الأمر بنفى الباشا وتغيرت سياسته نحو الدولة العثمانية منذ ذلك الحين (١) .

هذا ونشير إلى أن هذه الرسالة المزعومة ليس لها وجود في السجلات الرسمية بدار المحفوظات العمومية بالقلعة ، ولم يرد خبرها في مذكرات الرحالة الانجليزى جيمس بروس الذى كان بالقاهرة حينئذ ، وعلى اتصال بعلى بك . وبرغم الاحتمالات العديدة فإنه سواء صح أمر ذلك الفرمان أم ظهر فساد ، فالواضح أن على بك وجد الفرصة الملائمة لتحقيق أغراضه ومحورها انفراد به بمصر .

وقد علق المؤرخ شارل « Charles-Roux » على الحالة الجديدة بقوله « وقد أدت هذه الحركة في مصر إلى حالة تكافؤ الاستقلال » فتم بذلك تطور بدأ تدريجيا منذ عشرات السنين كان من مظاهره اغتصاب بكوات المماليك المتوالى لأمور الحكم حتى صار حقيقة واقعة . » (٢)

وبعد طرد الباشا لم يبق في مصر من مظاهر السيادة العثمانية سوى الخطبة والعملة والخزنة السنوية . أما الأولى فقد بقيت كما هي ، وأما الثانية فقد أحدث

(١) lusignan : Sect. I . pp. 95—96

(٢) Charles-Roux : Autour d'Uue Route. p. 20

فيها تغييرا طفيفا منذ ١٧٦٩، وأما الخزنة فقد أوقف ارسالها ابتداء من سنة ١٧٦٨. أشار إلى ذلك الجبرتي في ترجمته الأمير قاسم بك أبي سيف في وفيات ١٢١٧ هـ. فذكر أنه كان مملوك عثمان بك أبي سيف الذي سافر بالخرزنة ومات بالروم وذلك في سنة ١١٨٠ هـ. وهي آخر خزانة رأيناها مافرت إلى اسلامبول على الوضع القديم. (١)

أغراض على بك من الحركة

ويذكر جمهرة المؤرخين الأوربيين أن غرض على بك من حركته كان الملك والاستقلال منتهزا فرصة انشغال الدولة العثمانية في حربها ضد روسيا، (٢) بل أن قنصل فرنسا السيودي جوفنيل M. De Jonville استشف نيات على بك، فكتب يقول أن غرضه جعل مصر دولة مستقلة قوامها قوة الممالك المطلقة. ويذكر الجبرتي أن على بك « كان يقول لبعض خاصته أن ملوك مصر كانوا مثلنا ممالك الاكراد، مثل السلطان بيبرس والسلطان قلاوون وأولادهم، وكذلك ملوك الجراكسة وهم ممالك بني قلاوون إلى آخرهم كانوا كذلك وهؤلاء العثمانية أخذوها بالتغلب ونفاق أهلها وينوه ويشير بمثل هذا القول بما في ضميره وسريته » (٣)

وقد رد مؤرخو الترك على دعوة على بك بمثل ما أورد جودت قائلا « وكان عندما يسمع أخبار الجراكسة يقول، هم كانوا مثلنا ممالك فصاروا ملوكا وكان يطلق على نفسه أنه الملك برقوق. وعلى تقدير أنه بالدسيسة التي اكتسبها كان معادلا لبرقوق فلا يصح أن تقاس الدولة القلاوونية بالسلطنة السنية في شرفها وعظم

(١) الجبرتي ج ٣ ص ٢١٨

(٢) Hammer : Trad. Hellert. p. 160

(٣) الجبرتي ج ١ ص ٣٨١

شوكتها وشأنها . ولم يدرك هذا المجازف ان كثيراً من امثاله غلبت عليهم الشقاوة فعضوا الدولة العلية ، ثم وقعوا في شرك العقاب والجزاء الذى يستحقونه « (١)

* * *

بقى لنا ان نتساءل : هل حصل على بك حقيقة على الاستقلال ؟ كل الأدلة والشواهد والوثائق الرسمية تدل على انه لم يعلن استقلاله او انفصاله عن الدولة العثمانية ، فقد كانت هناك بعض الروابط بين مصر والدولة العثمانية ، وبقيت هذه الروابط رغم ما كان بينهما من حروب .

ولا يصح لنا أن نرجع بقاء هذه الروابط الى ما ذكره بعض المؤرخين من أن الحرب الروسية التركية فأجأت على بك قبل أن يتم استعداداته ، فإنه نجح فعلاً في جميع مشروعاته . وانما بقاء هذه الروابط يرجع الى أن الحركة لم تكن سوى ثورة أوسع نطاقاً وأعمق غوراً من سابقتها . وكان غرضه منها الانفراد بالحكم في مصر ولا بأس من بقاء مصر تابعة للدولة العثمانية .

تولى على بك قائممقام عقب عزل محمد باشا يوم الأحد غرة شعبان ١٢٨١ (أكتوبر ١٨٦٨) كما هي العادة ، ولكنه لم يسمح لأى وآل عثمانى بدخول مصر بعد ذلك ، فقد أشار الجبرتي الى أنه « منع ورود الولاة العثمانية (٢) » وعزز ذلك المؤرخ العثماني جودت بقوله أن على بك « عزل محمد باشا الى مصر وأنزله عن منصبه . . . ولم ترسل الدولة بعده والياً على مصر مدة أربع سنوات (٣) »

غير أن صاحب كتاب « تاريخ الدول الاسلامية بالجدول المرضية » السيد أحمد بن زيني دحلان وغيره كالشرقاوى يقولون بحضور الوالى العثماني أحمد باشا

(١) جودت ج ١ ص ٣٤٥

(٢) الجبرتي ج ١ ص ٣٨١

(٣) جودت ج ١ ص ٣٤٥

وأنه توفي قبل تولى عمله رسمياً (١). هذا ولم يشتر لوزنيان ولا بروس، وهما من معاصري علي بك، إلى حضور باشا عثماني في عهده منذ ذلك الحين.

* * *

وقد رجعنا في تحقيق تلك المسألة إلى الوثائق الرسمية بدار المحفوظات العمومية بالقاهرة فتبين لنا أن جميع الأوامر والفرمانات وتقاسيط الالتزام التي كانت تصدر بتوقيع باشا مصر أصبحت تصدر باسم «حضرة علي بك ميرلوا قائم مقام حروس مصر»، كما كانت تقاسيط الالتزام تختم بخاتمه الخاص دون أي إشارة إلى الباشا وذلك في المدة الواقعة بين عامي ١١٨١ - ١١٨٦ (١٧٦٨ - ١٧٧٢) (٢).

وثمة دراسة لدفاتر «أصول مال أسكلها ومقاطعات...»، «إيرادات مال الكمارك...» عن السنوات من ١١٧٤ - ١١٩٠ (١٧٦٠ - ١٧٧٦). أي منذ تولى علي بك شيخاخة البلد للمرة الأولى حتى بعد وفاته بثلاث سنوات لاحظنا فيها ما يلي:

(أ) أن التزام «مقاطعة عشور اصناف بهار وتوابعها وسمسارية بهار وتوابعها مع مقاطعة قصير الشامي، كان لباشا مصر يغل لإيراده لنفسه. والسجلات من سنة ١١٧٥ إلى ١١٧٩ تنص على أنه كان «در عهده دستور مكرم مشير مفتخم حضرت وزير مصطفى باشا».

ثم كان لحمة باشا حتى سنة ١١٨١، في سنة ١١٨٣ أصبح «در عهده حضرت وزير انخيم محمد باشا محافظ مصر حالا».

(ب) ولكن ابتداء من سنة ١١٨٣ (١٧٦٩) أي منذ بدء ثورة علي بك لم يعد يذكر اسم الباشا وأشار إليه رمزا فقط «در عهده دستور مكرم مشير مفتخم حضرت وزير». ونشير إلى أن هذا الأمر لم يحدث مطلقا من قبل.

(١) أحمد بن زيني دخلان ص ١١١، عبد الله الشرفاوي: تحفة الناظرين ص ٥.

(٢) تقاسيط الالتزام لسنوات من ١١٨١ هـ إلى ١١٨٦ هـ بحفظه رقم ١ ملفات من

٢٠ - ٣٠ مخزن تركي. دفاتر قيد الفرمانات أرقام ١، ج مخزن تركي.

(ح) وابتداء من سنة ١١٨٤ حتى ١١٧٨ اى عند اكتمال الثورة لم يعد يذكر اسم الباشا حتى ولم يشار اليه قطعيا . وهذا يعزز الراى القائل بأن على بك منع قدوم الباشوات العثمانيين .

(د) لم يعاد ذكر الباشا فى الوثائق إلا سنة ١١٩٠ ، وأشير اليه بـ « بلقب » حضرت وزير ذو روشن ضمير « (١) .

ونحن لو علمنا تلك الظاهرة باحتمال تدوين دفاتر الالتزام قبل رسو المزار على ملتزم معين ، فانه لا يعقل أن يتكرر ذلك فى عدة سنوات متتالية ، وفى تلك الفترة بالذات . ونحن لو سلمنا بهذا فان مقاطعة جمر ك البهار لم تكن تطرح للمزار إلا اسما لأنها كانت من حق باشا مصر ، فكل باشا موجود يكون ملتزما لذلك الجمر ك وله دخله .

كما يذكر بعض المؤرخين أن على بك كان يلقب نفسه « سلطان مصر وخاقان البحرين » ويذكر بعضهم أن شريف مكة هو الذى منح على بك هذا اللقب فى رمضان ١١٨٣ (١٧٦٩) ، ونحن لا نستبعد الشطر الثانى ، فربما منحه الشريف عبد الله هذا اللقب اعترافا منه بفضله على بك فى إعادته على شرافة مكة ، ولكننا لا نذهب مذهبههم فى اعتبار على بك سلطانا شرعيا أو حتى أنه كان مستقلا استقلالا تاما .

أدلتنا على ذلك عدة أمور ثابتة . أولها أن على بك لم يلقب نفسه فى يوم من الأيام بهذا اللقب . ولم تصادف فيما كتبه المؤرخون المعاصرون أو المحدثون ، سواء منهم المصريون أو العثمانيون أو غيرهم أية إشارة إلى استعمال هذا اللقب (٢) . بل أن الجبرقى يذكر حادثة لها دلالتها قال « وما اتفق أن على بك صلى الجمعة فى أوائل شهر رمضان (١١٨٣ هـ — ١١٦٩ م) بجامع الداودية فخطب الشيخ

(١) دفاتر التزامات الكمارك ، مال اسكانها ومقاطعات ... الخ من سنة ١١٧٥ رقم ٣٠/٢٥ إلى سنة ١١٩٠ رقم ٣٠/٥٣ مخزن تركى بدار المحفوظات بالقلعة .

(٢) تحدثوا عنه دائما باسم على بك أو الجن على أو على بك الكبير أو الأمير على المصرى أو بولوت قبان .

عبد ربه ، ودعا للسلطان ، ثم دعا اهلى بيك فلما انقضت الصلاة وقام على بك يريد الانصراف أحضر الخطيب وكان رجلا من أهل العلم يغلب عليه البلبه والصلاح وقال له : من أمرك بالدعاء باسمى على المنبر أقيل لك أنى سلطان ؟ فقال نعم ، أنت سلطان وأنا أدعو لك . فظهر الغيظ وأمر بضربه ، فبطحوه وضربوه بالعصى . فقام بعد ذلك متألما من الضرب وركب حمرا وأذهب إلى داره وهو يقول فى طريقه : بدأ الإسلام غربيا وسيعود كما بدأ (١) .

تدلنا هذه القصة على تالم على بك واعتباره اتخاذ هذا اللقب بالنسبة له كبيرة من الكبائر رغم ما كانت بينه وبين السلطان العثمانى من نفرة وقطيعة ، وقد ذكر الجبرقى أن على بك كان « لا يرضى لنفسه بدون السلطنة العظمى والرياسة الكبرى (٢) » وهو يعنى بذلك ما ذكره فى موضع آخر من أنه كان « منفرداً فى سلطنة مصر لا يشاركه مشارك فى رأيه (٣) » . والشاهد الثالث الوثائق الرسمية والنقوش المنشورة إلى أهل دمشق ١١٧١ ، اتخذ لنفسه فيه اللقب الذى كان يتخذه منذ ١٧٦٨ وهو « قائمقام مصر » . وقد اطلعنا على عدة وثائق رسمية لهد على بك منها فرمانات ، وتقاسيط التزام ، وأختام ، فلاحظنا أن على بك لم يلقب نفسه بسلطان أبداً . فى أحد تقاسيط الالتزام الممنوحة بتاريخ ١٧ ربيع ثانى سنة ١١٨٥ نص على أنه بامر « حضرت على بك ميرلوا قائمقام محروسة مصر حالا » .

وجميع هذه التقاسيط من سنة ١١٨٣ الى ١١٨٦ مهورية بخاتم على بك وهو على شكل زهرة دائرية قطرها حوالى خمس سنتيمترات حفت بكأسها ستة أقسام على شكل ورق الزهر تتضمن نظما مشرقا كله كناية عن النصر والرفعة والعلال يقرأ هكذا :

(١) ثم أن على بك أرسل إليه فى ثانى يوم بدارهم وگسوه واستسمحه : الجبرقى ج ١

ص ٣٣٦ — ٣٣٧

(٢) الجبرقى ج ١ ص ٣٨٥

(٣) الجبرقى ج ١ ص ٣٨١

- ١ — بشاير عز مقبل وسعادة
٢ — ونصر على الاعدا ومجد مؤثـل
٣ — لمنصور الحاظ السعادة والعلا
٤ — فلا يخش من كيد فكوكبه على
٥ — فلا زال يرقى في الكنفانة صاعدا
٦ — (غير واضح في جميع النسخ)

ويتوسط ذلك كله دائرة نقش عليها اسمه «هو علي» «نقشا مزدوجا» (١)

ولم نعثر على أى لقب لعلى بك غير ما تقدم ، إلا فى النقش الذى أمر به فى قبة الامام الشافعى فى افتتاح سنة ست وثمانين ومائة والـف (١١٨٦ — ١٧٧٢) وجاء فيها عن على بك أنه «المتوكل على الله مولانا القاسم فى الرعية بما يحبه ويرضاه على الاسم والقدر والجاه الحاكم بأمر الله» (٢) ولا زال هذا النقش موجودا الى يومنا هذا .

أما المسألة الرابعة فهى قاطعة فى نفي مسألة الاستقلال ، تلك هى مسألة النقود وبحمل القول فيها انه فى سنة ١١٨٣ هـ الموافقة ١٧٦٩ م ، بعد أن انفرد على بك بحكم مصر أمر بسك عملة فضية من ذات العشرين ميديا (عشرينية) ، جعل على أحد وجهها طغراء باسم السلطان مصطفى الثالث سلطان الدولة العثمانية حينئذ (٣) . وعلى وجهها الآخر نقشت عبارة «ضرب فى مصر سنة ١١٨٣» مع ملاحظة ان حرف الباء فى (ضرب) استخدم كحرف (ى) لكلمة «على»

التي زيدت فى ذلك النوع من العملة على النحو الآتى : «ضرب على»

(١) تقاسيط اقزام لسنة ١١٨٥ محفظة رقم ١ ملف ٢٨ ورقة رقم ٥

(٢) اطعننا على نص النقوس حول رقبة قبة مسجد الإمام الشافعى .

(٣) كانت الطغراء تقرأ هكذا «سلطان محمد مصطفى بن احمد خان عز نصره» .

يستحق الاعتبار هنا ثلاثة أمور أولها أن أحد وجهي العملة خصص لطغراء اسم السلطان العثماني ولهذا دلالة ، وثانيهما أن علي بك أمر بنقش اسمه في الوجه الآخر إشارة إلى توليه منصب القائم مقام ، وبعد أن كانت تلك العبارة تقرأ « ضرب في مصر » أصبحت في رسمها الجديد تدل على أنها ضربت بأمر علي بك . وثالثها أن علي بك أمر بنقش سنة ١١٨٣ هـ إشارة إلى السنة التي ضربت فيها وتخليداً للسنة التي نجح في أثناءها في الانفراد بالسلطة . (١)

هذا وليس أدل من ذكر اسم السلطان علي أن علي بك ، رغم منعه إرسال الخزنة ، وسكة عملة تحمل طابعاً يميزاً جديداً ، ورغم طرده الباشا ، ومنع غيره من مباشرة سلطتهم الشرعية لم يعلن انفصاله عن الدولة العثمانية .

ولا عبرة لما جاء في بعض المصادر من أن ذكر ١١٨٣ هـ على العشرينية دون ذكر السنة التي تولى فيها السلطان مصطفى الثالث وهي ١١٧١ (١٧٥٧) يعتبر دليلاً على اعلانه الاستقلال ، فإنه بعد عامين اثنين أي سنة ١١٨٥ هـ الموافقة لسنة ١٧٧١ م أصدر عملة ذهبية أخرى من فئة أربعين ميدياً نقش على وجهها طغراء السلطان مصطفى الثالث كالعملة السالفة الذكر ، وعلى الوجه الثاني نقش عبارة « ضرب في مصر ١١٧٤ » وهي سنة تولى السلطان . واستخدمت الباء في (ضرب) باء لـ كلمة (علي) كالعملة السالفة أيضاً . ولكنه في الوقت نفسه زاد فوق كلمة « ضرب » رقم (٨٥) وهو اختصار سنة ١١٨٥ وهي عام

سكها على النحو الآتي

ضرب علي

وهكذا نرى أن علي بك بعد مرور ما ينوف على سنين من انفراده بالسلطة

كان لا يزال يعترف بالسلطان العثماني ، بل وأثبت سنة توليته وهي ١١٧١ هـ بدل
١١٨٣ هـ وهي بدأ ثورته . (١)

وفي الوقت الذي قرر فيه على بك عزل الباشا العثماني وعزم على الانفراد
بحكم مصر ، أرسل يخبر صديقه ظاهر حاكم عكا ، وجعل ذلك مقدمه لتحالف
حربي منتج . ولما لم يكن السلطان في حالة تسمح له بتكريس أى مجهود خاص للقضاء
على مثل تلك الحركات الثورية ، فانه عهد إلى باشا الشام في دمشق ببذل كل ما
يمكنه للحيولة دون اتصال جيوش على بك بقوات حليفة ظاهر (٢) .

(١) تولى السلطان مصطفى الثالث ١٨٥٧ م (١١٧١ هـ) وتوفي ١١٧٤ م (١١٨٧ هـ)
وصور النقود توجد في Samuel Bernard, P. 469 (أرقام ١٦ — ١٨ — ٢٠) ،
Marcel : Egypte. V. P. 255.
(٢) شمعوني زاده : مرعى التواريخ حوادث ١١٨٧ ترجمة حمزة .

الباب الثالث

حركة التعديل والاصلاح

الفصل الأول

سياسة علي بك الداخلية

الإدارة الحكومية والأمن — الترام الأراضى

النقود — السياسة المالية وإدارة الجمارك

المنشآت — الجيش

عندما قبض علي بك أزمة على الحكم في مصر ، كان قد مضى على البلاد قرنان ونصف وهى تعاني شتى ضروب الإهمال : مزقتها المنازعات ، وأقحطها جشع الحكام ، واناب المجتمع ، وخاصة في القاهرة نوع من الانحلال ، ونشط اللصوص وقطاع الطرق يساهمون في اكمال الفوضى ويهددون الأمن تهديداً خطيراً . وأيقن علي بك أن الضامن الأول لنجاح حركته اعتمادها على أساس متين ثابت في الداخل ، وانه كلما كان داخل البلاد ينعم في مجوّه الأمن كلما اطمأن إلى نجاح مشروعات الخارجية ، فنشط في هذا السبيل وكان له في كل ميدان غزوة . أما التعديلات التي قام بها علي بك فكان قصده منها تركيز السلطة في يده أو تمهيد السبيل لذلك ، وسنذكر أهم تلك التعديلات فيما يلي :

الإدارة الحكومية والأمن :

ولم تكن بين نواحي الإصلاح المتعددة التي كانت البلاد متعطشة لها ناحية

أولى باهتمامه أكثر من تنظيم الادارة واقرار الأمن . وكان على بك قد قبض على أمور الحكم بنفسه قائمقام الباشا نظريا (١) . وأبقى عبد الله كتبخدا محمد باشا المعزول ١٧٦٨ معينا له . وكان كاتبه ومشيره في تصريف الشؤون العربية الشيخ محمد الهلباوى الدهنورى (٢) . وفي الشؤون الرومية (التركية) مصطفى افندى

(١) مجموعة قيد الفرمانات رقم ١ مخزن تركى . دار المحفوظات ، وثيقة رقم ٥ . ملف ٢٨ صفحة رقم ١ من نفس المخزن .

(٢) أورد الجبرقى (ج ٢ ص ٥٤ — ٥٦) مثالا لقصائد الشيخ محمد الهلباوى فى مدح على بك آثرنا أن ننقل إحداها وفيها إشارة لبعض ما جريات الأمور فى عصر على بك .

أقسم صدقا بالكتاب المجيد	بأن حاشى مصر فرد سعيد
للحكم والعدل غدا راجعا	ولا تقل ذلك رجم بعيد
ذكره فى الأقطار قد أنبت	جنات واسعات وحب الحصيد
ملك احسان لمن يرتضى	صاف لورد أحرارهم والعبيد
أغات ملهونا أعانت الذى	عانده الدهر بعزم شديد
بصغى إلى المظلوم حتى إذا	تم مقالا مده ما يريد
كم أوقعت أحكامه ظالما	فى لجة النل وحق الوعيد
أمن أهل الفقر من خيفة	فأصبحوا فى طيب عيش رغيد
أراحهم من كل شركا	أبعد عنهم كل باغ مرید

أسمى معاديه شقيا ومن	والاه بالاخلاص فهو السعيد
لو كان للسيف مضا عزمه	ما كانت النار تذيب الحديد
أو كان يحكى السهم آراءه	لم يخطىء الأغراض رأى البعيد
حاز كمالا فلم يحصها	نطق وقد فاز بوصف حميد
لطفا واسعا فاندى سطوة	وهمة عليا وقصدا سديد

أضنى به دين الهدى عاليا	مؤيدا شرعا مجدا مفيدا
بعزمه مستنصرا قاطعا	بسيفه آمال باغ عنيد
يا حافظ الوادى الحجازى قد	دان لك الاقصى فسل ما تريد
أنت ملك العصر لا شك فى	قولى وقولى ما عليه شهيد
وباسمك الأقطار قد شرفت	فأنت بين الناس بدر وحيد

الأشقر ، ومنجمه نهمان افندى . أما الادارة المالية فكان يقرم عليها المعلم رزق القبطى « الذى بلغ فى أيامه من العظمة ما لم يبلغه قبطى » .

أما الديوانان (العمومى والخصوصى) فقد بقيا كهيئة استشارية الأول ، وتنفيذية للثانى بعد استبعاد بعض أعضائها ، ولكن رأى على بك كان رأى الأول والآخر . ثم أقام مملوكه محمد بك أبا الذهب رئيسا للشرطة فى القاهرة فدخلت المدينة فى نطاق من الادارة الخازمة ^(١) . وبعد أن اسندت قيادة الحملات الخارجية الى أبى الذهب ابتداء من سنة ١٧٦٩ ، اسند على بك رئاسة الشرطة إلى سليم أغا قائد أوجاق اليكيجرية وجعل سليمان كتيا مساعدا له ^(٢)

ويرى بعض المؤرخين أن الأوجاقات العثمانية قد انتهت أمرها إلى الانحلال عدا أوجاق « المستحفظان » أو اليكيجرية ، عهد اليهم أبو الذهب أعمال الشرطة والحفظ ^(٣) . غير أن دراسة دفاتر التزامات الأراضى فى عهد على بك تدلنا على وجود ملتزمين لبعض القرى من ضباط الأوجاقات العثمانية ومن اتباع هؤلاء الضباط من فرق المستحفظان والعزبان والجاوشان والتفتكجيان والسكوكلويابان والمنفرقة والجرأكة ^(٤) .

ولا شك فى أن وجود هؤلاء قاطع بوجود هذه الأوجاقات ودليل على خطأ رأى المؤرخين السابق الذكر . ولـكـنـنا فى نفس الوقت نلاحظ من دراسة « دفتر

== سيرتك الحسنى بها سارت الركب — ان فى الدنيا قدم فى مزيد
وافتك أعياد تسر الورى شرقا وغربا قرمها والبعيد
والسن الأئس لقد أرخت ذكر على الجاه عيد جديد

(١) Combe : l'Eg. Ottomane. P. 45

(٢) Savary : lettres.. T. 2. P. 228

(٣) مثلهم Cattau : Histoire des Rapports. p. 24 وغيره .

(٤) دفاتر التزامات الولايات . وجه بحرى سنة ١١٨١ رقم ٧/٢١ وسنة ١١٨٥

رقم ٧/٥٥ وسنة ١١٨٦ رقم ٧/٦١ . وجه قبلى سنة ١١٨٤ رقم ٧/٤٤ وسنة ١١٨٧

رقم ٧/٦٦ مخزن تركى .

أصول مال اسكلها ومقاطعات مع مضاف جديد واجب سنة ١١٧٥ هـ قابع قلم شهر رقم ٣٠/٢٥ مخزن تركي « أن أوجاق مستحفظان كان يتولى التزام اسكلها اسكندرية ورشيد وتوابعها ، مقاطعة اسكله بولاق ومصر القديمة وتوابعها ، ومقاطعة اسكله دمياط وتوابعها ، ومقاطعة اسكله برلس .

وان أوجاق عزبان كان يتولى التزام « مقاطعة سمسارية بحرين وتوابعها مع مقاطعة بحرين وتعريف مراكب وسمسارية بذر قرطم وغيره » وان أوجاق جاوشان كان يتولى التزام « مقاطعة محصول مال احتساب نفس محروسة مصر . » ولكن هذه الدفاتر عن السنوات من ١١٨١ الى ١١٨٦ ، وهي الشاملة عصر على بك لم تشر الى اسم ملتزم او هيئه للالتزامات السابقة ، ومعنى هذا احد احتمالين : فاما ان هذه الالتزامات اديرت مباشرة لحساب على بك ، وفي ذلك اشارة الى جلاء الحامية عن ميدان الالتزام تبعا لمسياسة اضعافهم . واما ان هذه الدفاتر حررت قبل انتهاء عملية المزارد ، وعلى كل حال فالثابت وجود الأوجاقات بعد ان قام على بك بحركة تطهير واسعة للتخلص من العناصر المعادية بين صفوفها . وتبع الحفظ نظام « الخفر » أى الحراسة الليلية بمدخل القاهرة . أقام على بك أربعا من البسكوات ، كلا بدوره ، فى العادية ، مصر القديمة ، بولاق ، القبة ، عليهم حفظ الأمن فى تلك الجهات ليلا ، وحماية المدينة من نهب الأعراب « فيركبوا كل يوم فى فجر النهار ، ويدوروا حول القاهرة ، ويتبصروا على العرب القشاطه ، وأولاد الزنا ، ومأذونون بقتل من يقع فى أيديهم من أولاد الحرام (١) » .

وهذا انتظمت أفراد الشعب جميعا — لافرق بين صنيق ، أو كاشف ، أو فرد من الشعب ، مصريا كان أو عثمانيا — قواعد حازمة أساسها حفظ الحقوق ، وحرمة التعدى ، وعدم الاخلال بالأمن ؛ حتى حق لعلى بك أن يقول

(١) اجابة حسين أفندى عن السؤال السابع — أنظر « مصر عند مفرق الطرق » للأستاذ شفيق غربال بك . مجلة كلية الآداب ص ١٧ (مايو ١٩٣٦) .

« ان غايقي الوحيدة أن يأمن الناس على أموالهم حتى ولو بسطوا بها أيديهم ، وأن يأمنوا حرمة منازلهم ، ولو تركوها مفتحة الأبواب في أثناء الليل (١) » .
وكان المتبع طوال العهد العثماني أن يبقى البكوات الصناجق في صنجقياتهم من ثلاثة أشهر إلى أربعة كل سنة ، والكشاف في كاشفياتهم لادارتها في خلال ثمانية أشهر من السنة ، أي من يناير إلى أغسطس ، ويمضون بقية العام في القاهرة كما ذكر الرحالة فانسليب Vansleb ، الذي جاء إلى مصر في مارس ١٦٧٢ ، وغادرها في أكتوبر من العام التالي (٢) .

ولكن رغم أن عدد البكوات كان لا يقل عن اثنين وعشرين صنجقا في سنة ١١٧٩ هـ (١٧٦٥ م) كما نستدل من دفاتر الجراية (٣) . فأن الرحالة المستكشف بروس Bruce الذي وصل القاهرة في أول يولية ١٧٦٨ ، وأقام بها عدة أشهر قبل أن يستمر في رحلته إلى الحبشة وأعلى النيل ، اخبرنا أنه لم يجد بالقاهرة سوى ستة بكوات خلاف على بك (٤) . اتخذهم شيخ البلد معاونين له بالقاهرة ، ولم يعد يسمح لبقية البكوات أو الكشاف بمغادرة صنجقياتهم دون أمر القائمقام .

نصل مما سبق إلى أن الإدارة المحلية أصبحت تشعر بوطأة الحكومة المركزية التي اتسمت بشيء كثير من الحزم والقسوة في الحق ، ولم تعد كما كانت من قبل مطمعا للبكوات المتنافسين .

الأقسام الإدارية :

ليس في المصادر المعاصرة التي بأيدينا شيئا ذا غناء يوضح تقسيم مصر الإداري في ذلك العهد . انما لدينا مصدران تسكما في ذلك الموضوع أحدهما

(١) Sonuui : T. 2 P. 133

(٢) Vansleb : P. 27

(٣) دفاتر الجراية والعليق ٥٥ مخزن تركي .

(٤) Bruce (1768) T. 1 Chap. 11. P. 26

الرحالة الانجليزى ريتشارد بوكوك Richard Pococke الذى زار مصر فى سبتمبر ١٧٣٧ ، أى قبل ثورة على بك بنحو ثلاثين سنة ، والثانى الفرنسى استيف Estève مدير الادارة المالية فى أثناء الحملة الفرنسية ١٧٩٨ ، أى بعد قيام على بك بحركته بنحو ثلاثين سنة .

ورغم أن التعديل قد تناول أكثر من مرة أقسام مصر الادارية من حيث العدد والمساحة ، أو اعتبارها صنجقيات أو كشوفيات ، أو من حيث شغل الصنجقيات بكشاف حسب الظروف السياسية السائدة فى القاهرة فى تلك الأحيان ، فإن اتفاق المصدرين السابقين إلى حد كبير ، وسكوت المصادر المعاصرة لعلى بك عن ذكر حدوث أى تغيير يشجعنا على اعتبار التقسيم الذى ذكره صالحا لذلك العهد .

أما مدينة القاهرة فكانت مقر حكومة على بك يشرف عليها من الداخل محمد بك أبو الذهب ، ومن يتبعه من رجال الادارة كالوالى د أو زعيم مصر وهو الذى يتبصر فى القاهرة ، وخدمته إزالة الخواطى وهم النساء الفاحشات ، ووقوع أولاد الزنا ، وعليه جرف الخليج للناصرى فى كل سنة « ومنصبه أشبه بمنصب حكمدار البوليس الآن .

كما كان يشرف عليها رجال المستحفظان من ضباط وجنود . ويشرف على مدخل المدينة ليلا « البكوات الخفراء » .

اما المواوى : الاسكندرية ، ابو قير ، دمياط ، رشيد ، السويس فقد بقيت حكوماتها كما هى ، واجرى بها على بك بعض تحسينات ليس لها وجود الآن . كان اخصها بالاسكندرية ودمياط ، ولعله كان يتوقع غزوة بحرية عثمانية كذلك التى جاءت بعد وفاته بعدة سنوات فى عهد مراد بك وإبراهيم بك ١٢٠٠ هـ بقيادة القبطان حسن باشا .

أما باقى القطر فكان مقسما إلى ولايات أو صنجقيات بحكمها بكوات أو صناجق ، وكاشفيات يحكمها ماليك بدرجة كشاف .

أما الولايات فكان عددها خمسة : أربعة في مصر السفلى وهى الغربية (وعاصمتها المحلة الكبرى) ، المنوفية (وعاصمتها منوف) ، وهما بين فرعى النيل ثم الشرقية (أو المنصورة) شرقا ، البحيرة (عاصمتها دمنهور) . أما الصنجدية الخامسة فكانت جرجا بمصر العليا^(١)

وأما الكاشفيات فكان بعضها تابعا لصنجدية ، كما كانت هناك كاشفيات قائمة بذاتها خارجة عن نفوذ الصناجق . وهذا بيان الكاشفيات :

عددها جميعا أربعة وعشرون كاشفية : ثلاثة بمصر السفلى وهى بلبس ، وقلوب شرق الدلتا ، ثم الطرانة (التابعة لصنجدية البحيرة) غرب الدلتا . ومبعدة بمصر الوسطى وهى اطفيج (شرق النيل) ثم الجزيرة والقيوم وبنى سويف والمنيا والاشمونيين ومنفلوط (غرب النيل) وكلها تتبع صنجدية جرجا . وأربع عشر كاشفية بمصر العليا وهى منفلوط وأسيوط وأبو تيج وطما وأخميم (وهذه شرق النيل) ، فرشوط وبرديس وبهجورة وهو وقتنا (وهذه شرق النيل) وقوص (شرقا) واسنا (غربا) وابريم (شرقا وغربا) والواح أى الواحات^(٢) .

الآمن :

ولم يكن فى استطاعة المصريين أن يتذوقوا نعمة الأمن وهم مهددون بسطو الأعراب ، الذين تفننوا فى طرقهم التلصصية وتهربهم من ايدى الشرطة . لمس خطرهم جميع الرحالة الذين حلوا بمصر ووصفهم بأهم د اعظم لصوص العالم واساتذة الاسيان فى فن السلب والنهب . وكانوا يحتالون فى الفرار بأن يهجموا على المدن ليلا هجوما خاطفا وهم عرايا وقد دهنوا أجسامهم بالشمع حتى يصعب القبض عليهم ويسهل فرارهم سباحة فى النهر .

(١) دفاتر الجراية والمليق عين ٥٥ مخزن تركى بدار المحفوظات .

(٢) Estève : Memoires PP. 301 & Pocoke : Livre. 1. P. 161

واشتهرت بعض القرى بأنها أوكار لأوثك « العرب القشاطه » مثل دجوة وسندنهور وغيرهما .

أراد على بك أن يعالج مشكلتهم التي بقيت شوكه في جنب الإدارة المصرية ، وهددت الأمن منذ بداية العصر العثماني ، فكافحهم في الوجه البحري منذ سنة ١٧٦٠ بتجريد حملة على رأسها أبو الذهب وأيوب بك ، ثم بفضل جهود عبد الله بك صنيق البحيرة وأحمد بك الجزار ثم اسماعيل بك ، حتى قضى على سويلم وغيره من زعماء وشيوخ الحبايبة والهندادى ١٧٦٩ على نحو ما أسلفنا في موضع سابق (١) .

كما تمكن في العام التالي ١٧٦٩ من القضاء على سلطة أعراب الصعيد وزعيمهم همام ، وجردهم مما كان بيدهم من نفوذ سياسى وإدارى .

هكذا ذاق المفسدون وقطاع الطرق من العرب وأهل الخوف (شرق الدلتا) « والنشالين والحرامية والعيارين . . » بأس الحاكم الجديد « فأمنت السبل وانكسفت أولاد الحرام وانكشوا عن قبائحهم وإيذائهم بحيث أن الشخص كان يسافر ليلا راكبا أو ماشيا ومعه حمل الدراهم والدنانير إلى أى جهة ويبيت في الغيط أو البرية آمنا مطمئنا لا يرى مكروها أبداً (٢) » .

وأكسب ذلك على بك اللقب التركى الذى اشتهر به وهو « بولوت قيان » أى « القابض على الغيم » أو « اللاحق بأبناء السوء » (٣) .
العدالة :

وتمكن على بك من تطهير الاداة الحكومية من بعض الشوائب التي تأصلت فيها مثل قبول الرشا (٤) . وعمل على استئصال القضاء « فتتبع المفسدين والذين

(١) حوادثهما بالجبرتي ج ١ ص ٣٣٦ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٤٩ .

(٢) الجبرتي ج ١ ص ٣٨١ .

(٣) P. 105 lusignan وجودت ج ١ ص ٣٤٢ .

(٤) ذكر الجبرتي بعضا منها كظالم أولاد سعد خادم ضريح السيد البدوى ، وضمان البناية والخواطى . . الخ ج ١ ص ٣٠٦ .

يتدخلون في القضايا والدعاوى ويتحايلون على أبطال الحقوق بأخذ الرشوات والجمعالات فعاقبهم بالضرب الشديد والإهانة والقتل والنفي إلى البلاد البعيدة ولم يرع في ذلك أحداً سواء كان متعماً أو فقيهاً أو قاضياً أو كاتباً . »

ولم يقصر هذا الاهتمام على القاهرة وحدها ، بل شمل « غيرها من البنادر والقرى » ، يذكر الجبرتي في حوادث شوال سنة ١١٨١ أن علي بك قبض على الشيخ يوسف بن وحيش (وضر به علة قوية ونفاه إلى بلدة جناح فلم يزل بها إلى أن مات وكان من دهاء العالم وكان كاتباً عند عبد الرحمن كـتـخذ القازدغلي وله شهرة واسعة في السعي وقضاء الدعاوى والشكاوى والنحيلات والمراهنات والتليبيسات وغير ذلك . » وفي حوادث رجب سنة ١١٨٢ ذكر أن علي بك قبض على « الشيخ أحمد السكتي المعروف بالسقط وضر به علة قوية ونفاه إلى قبرص وكان المذكور من دهاء العالم يسعى في القضايا والدعاوى يحمي الباطل ويبطل الحق بحسن سبكه وتداخله (١) »

وقد حدث في سنة ١١٧١ هـ (١٧٥٧م) ، أي قبل تولي علي بك مشيخة البلد لأول مرة بثلاث سنوات أن نزل بمصر مطر سالت منه الأودية « وأعقبه الطاعون المسمى بقارب شيخه الذي أخذ المليح والمليحة (٢) » أي سبيل أهلك الحرث وطاعون أهلك النسل . ثم حدثت مجاعات في أثناء عهده بين سنتي ١٧٧٠ و ١٧٧٢ بسبب نقص فيضان النيل في هذين العامين واضطرار الحكومة في الوقت نفسه إلى تموين الجيوش الغازية في بلاد الحجاز والشام .

جابهت حكومة علي بك بسبب ذلك أزمة من أزمات التموين الحادة انتزها بعض التجار فرصة للكسب غير الشريف . عند ذلك نشطت الحكومة ، وألقي العبء على عاتق الوالي موسى أغا ، المحتسب (مفتش الأسواق) وإبراهيم كـتـخذ

(١) الجبرتي ج ١ ص ٣٨١ ، ٢٥٩ ، ٣٠٨

(٢) الجبرتي ج ١ ص ٢٥٠

جذك ومن بعده موسى أغا (١) . فكان المحتسب « يخرج على الخيل وأمامه تابع يحمل ميزان ومشاquil عيارية ويتبعه عدد من الشرطة يحملون العصي . » ووقفت الحكومة من هؤلاء التجار موقفا حازما أساسه توفير المواد الغذائية الضرورية لأفراد الشعب بأسعار معقولة ولم تتوان عن أخذ الجشعين أو المطففين بالعقاب الشديد . كما أمرت حكام الأقاليم بتشجيع الفلاحين على استثمار أرضهم لتعويض النقص (٢) .

(١) موسى أغا من أتباع علي بك عينه في ذلك المنصب بدلا من والي السابق سليم أغا الذي ولاه فرقة المستعطفان — أما قائد المستعطفان السابق عبد الرحمن أغا فقد ولاه على بك قيادة التجريدة الأولى لتأمين طريق الشام ، منتصف رجب ١١٨٤ (١٧٧٠) أنظر الجرنى ج ٤ ص ٣٥١ ، ٣٥٩

(٢) ذكر التاجر لوزنيان ، من حاشية على بك وصفا للعقوبات التي تذرعت بها الحكومة لمحاربة غش التجار وجشعهم في ذلك الحين ماخصها : أنه إذا اتهم خباز ببيع خبز ينقص عن الوزن المحدد وضبطه والي — الذي يطوف يوميا بالأسواق للتفتيش على المواد الغذائية والموازين والمكيال — فإن كل خبز القرن يصادر ، ويوزع مجانا على الفقراء ، ثم يسمر الخباز على باب محله من أذنه أو من كلتا أذنيه لمدة اثني عشر ساعة . وإذا تكرّر منه ذلك للمرة الثانية يوزع خبزه ، ثم يجلد بضربه من مائة إلى ثلاثمائة جلدة على قدميه أو ظهره ، ثم يلبسونه فوق صدره لوحا مثقلا بالرصاص ، ويطوفونه بشوارع المدينة الرئيسية حتى تخور قواه . وإذا تكرّر منه ذلك للمرة الثالثة قطعوا رأسه .

ثم قال أن الحزاز الذي يبيع الحما فاسد أو يفسد في وزنه يوزع ما عنده من لحوم صالحة على الفقراء مجانا ثم يربط إلى عمود معرض للشمس المحرقة طول النهار بعد أن تعلق في أنفه قطعة فاسدة من اللحوم ، ويبقى هكذا حتى يخرج منها دود تسقط على رأسه ، وعليه بعد ذلك أن يدفع غرامة مالية . وإذا تكرّر منه ذلك يعاقب بعقوبة بدنية ويدفع غرامة مالية باهظة . أما إذا عاد للمرة الثالثة حكم عليه بالإعدام .

أما النشالون واللصوص فكان جزاؤهم الإعدام دون عاكمة إذا قبض عليهم متلبسين بجرمهم بينما كانوا يشهرون بلصوص النسايل ، فيوضع الواحد منهم عاريا على جمل ، وتوثق رجلاه بطن الجمل حيث يطاف به في أهم شوارع المدينة وخلفه الحراس بأيديهم المشموع المحرقة يسלטونها على جلد المجرم فتلهب ظهره وصدره ، حتى إذا ما ذابت الشموع ووصل إلى قمة ميدان (الميدان الأسود) أعدموه بين سخط المتفرجين .. الخ

ونحن نرى — على خلاف ما ذهب إليه الرحالة فولني Volney من أن على بك ركن إلى الدعة فذهب النعيم بريجه وعهد بتصريف أمور الحكم إلى مماليكه المقرين (١) — أنه كان شديد الحرص على أن يتعرف على كل شيء بنفسه ، ويطلع على كل صغيرة وكبيرة حتى يشعر بالحكام بعين رقبته ، وأنه كان سمح الصدر ، فتح بابه للجميع حتى يتأكد بنفسه من أن الشعب ينعم بالأمن والعدل اللذين أرادهما له .

وفي ذلك يقول الجبرتي أن على بك كان صحيح الفراسة شديد الخدق يفهم ملخص الدعوى الطويلة بين المتخاصمين ولا يحتاج في الفهم إلى ترجمان أو أمين يقرأ له الصكوك والوثائق ، بل يقرأها بنفسه كلما الجارى ولو كان خطها سقيما ولا يختم ورقة حتى يقرأها ويفهم مضمونها ثم يمضيها ، (٢) .

وقد لاحظ الرحالة الانجليزى بروس Bruce ١٧٦٨م أن على بك كان كثير الاهتمام بأمور حكومته الجديدة ، يصرف أمورها بنفسه إلى ساعة متأخرة من الليل ، وأنه انهمك في ذلك حتى تأثرت قوة بصره إلى حد ما . وأصبح مريضا عمودا (٣) .

التزام الأراضي والأموال المقررة :

رغم أن حماس على بك وشدة اهتمامه بالعدل والإصلاح دفعا للكشاف إلى الاهتمام بأمور الزراعة ، من حيث الري والصرف وإقامة الجسور وحفر الترع والقنوات ثم حمايتها وحماية غلاتها ، وأملاك الفلاحين من عبث البدو فإن

(١) Volney : T.1, p. 134 .

(٢) الجبرتي ج ١ س ٣٨١ .

(٣) يقول بروس أنه زار على بك في القلعة لإجابة لطلبه في حوالى الساعة الحادية عشر مساء فوجده يقرأ ورقة قربها كثيرا من عينه وكان منهمكا في القراءة لدرجة أنه لم يشعر بوجود الرحالة بل ونسى أنه طاب منه الحضور Bruce V.1. qp, 40—42 .

سياسته في منح الالتزام وفرض الضرائب لم تكن خالصة لصالح الشعب ، إنما اضطرته إليها الظروف ودفعته إليها دفعا .

فان السياسة التي اتبعها لاضعاف الأوجات العثمانية انتهت بهزائها وضعف نفوذها ولما كان معظم ملتزمى الأراضي قبيل عهده من ضباط تلك الفرق ، فقد نزعا منهم وجعل الالتزام وفقا على ممالكهم وأنصاره سواء كانوا من الشعب أو رجال الأوجاقت وهكذا أبقي نظام الالتزام .

أما أهم فروع الالتزامات فكانت التزامات الأراضي والتزامات الجمارك ومتعلقاتها . وقد فضلت أن أذكر أمثلة واقعية مستخرجة من السجلات الرسمية لأغراض سنشير إليها . كما أنى فضلت أن تكون الأمثلة شاملة وذلك بإيراد مثل تاريخه متقدم على عصر على بك ، والثاني في أواخر عصره حتى تكون المقاربة وافية بالغرض .

أولا — التزامات الأراضي :

(١) دفتر التزامات ولايات الوجه البحري عن سنة ١١٧٠ رقم ٢٤ / مخزن تركي « مقاطعة قرية بيشة رزينة وغيره »
 در عهدة (أى فى عهدة) مراد عبد الله بايع على كوكلويان ٣ ط
 (٣ قيراط) وبشير عبد الله يك ط
 ومناو عبد الله ٣ ط وبلال أغا عبد الله
 ٦ ط وبشير أغا عبد الله ٦ ط وأحمد
 عبد الله تابع السيد أحمد تقى كجيان
 ٣ ط بر وجه التزام (أى على وجه
 التزام) قرية بيشة رزينة .

٦٩٦ فى سنة التون
 بحساب باره
 ١٧٤٠٠

٢٠٨٨

١٩٤٨٨

يكون أقلام ٢ (أى مقاطعتان ماليتان) فى سنة ٧٠٨ التون بحساب باره .

١٧٧٠٠

٢٠٨٨

٦٤٩٦

١٠٣٩

٢٧٣٢٣

١٠٩٣

صيفي باره ٢٨٤١٦ شتوي باره ٢٧٣٢٣

ويلاحظ أن هذا الدفتر يبين نصيب كل ملتزم من القراريط في قرية بيشة
وزينة التابعة لولاية الشرقية . وقد أشير في آخر الحساب الختامي إلى مقدار
ما يدفع في كل من الموسمين الصيفي والشتوي . مع ملاحظة أن الألتون يساوي ٢٥ باره .
(ب) دفتر التزامات الولايات القبلية عن سنة ١١٧٠ رقم ٦/٢٣ مخزن تركي ،
مقاطعة قرية اتمليدم (مركز ملوى) وكفرها درعهده اسماعيل عبد الله تابع
رضوان جوربجي بحق ٣ ط ، وصالح عبد الله ٦ ط ، وحسن عبد الله تابع
يوسف جاوش ٢ ط ، وصالح عبد الله تابع مصطفى بك ٢ ط ، وحسن عبد الله
تابع كاشف يك ط ونصف ط ، وعلى عبد الله تابع كاشف يك ط ونصف ط ،
وأحمد أغا تابع سليمان بحق ٢ ط وأحمد سليمان ٣ ط ومحمد يوسف ولدش يك ،
ط ، وعنبر أغا عبد الله ٢ ط .

في سنة التون ١١٤ باره ٨

بحساب باره ٤٦٠٨

مضاف ٥٥٢

٥١٦٠

فرط ١٧٢١

٦٨٨١

مضاف ٧٢٥

٧١٥٦

مضاف ٢٨٦

٧٤٤٢

عنها التسليمات (أى سبق دفعها من المال الميرى)

١١٧١	بارة	فى ٣ ص (صفر)	٢٤٨٨
١١٧١	»	فى ٣ جا (جمادى الأولى)	٩٣٢
١١٧١	»	فى ٢٢ ج (جمادى الآخرة)	١٨٦٨
١١٧١	»	فى ٢ ل (شوال)	٦٢٢
	»	فى ٢ ل	٣١١
١١٧١	»	فى ٣ ذا (ذو القعدة)	٦٢٢
	»		٦٨٤٤
١١٧١	»	فى ٧ ذا	٥٣٦
			<u>٧٣٠٨</u>

(ج) دفتر التزامات الوجه البحرى سنة ١١٨٥ رقم ٧/٥٥ مخزن تركى

« مقاطعة قرية الغابة (ولاية الشرقية) درعده أحمد رضوان شراقوه ٦ ط ، وأيوب عبد الله تابع رضوان شراقوه مستحفظان ٦ ط ، وحسن عبد الله تابع مصطفى ٦ ط وحسن عبد الله تابع على تعلم نصف ط وربيع ط ، وإبراهيم عبد الله تابع رضوان جاوش مستحفظان يك ط ونصف ط ، وعثمان نام وبشير أغا عبد الله بوجه اشتراك ٣ ط وربيع ط وثمان ط ، وسرور أغا تابع رضوان جاوش مراد ربيع ط وثمان ط بوجه التزام قيد نفده .

فى سنة التون ٢١٨ باره ٢٤

بحساب باره ٥٤٧٤

٦٥٧

١٥٣٢

٣٠٧

٣١٩

٨٢٩٠

٣٣٢ مضاف سنة ١١٧٤

٨٦٢٢ صيفى

من مقارنة السجلات الثلاثة السابقة يتضح لنا اشتراك أكثر من ملتزم واحد في القرية الواحدة ، وثانياً أنه في أواخر عهد على بك كان هناك بعض ملتزمين للقرى من ضباط الأوجاقات ، وثالثاً أن مبلغ الالتزام الأصلي كان ينمو بزيادة عدة مضافات كانت رسمية قبل عهد على بك . ففي المثل الأول كان مبلغ الالتزام الأصلي ١٧,٤٠٠ بارة ، زيد عليه مضاف حتى أصبح ١٩,٤٨٨ بارة ، وفي المثل الثاني كان المبلغ الأصلي ٤,٦٠٨ بارة فظل يزيد حتى كان يصل إلى قدر الأصل مرتين فأصبح ٧,٤٤٢ ، وهكذا الحال في المبلغ الثالث وهو في عهد على بك كان أصله ٥,٤٧٤ فأصبح ٨,٦٢٢ بارة سنوياً .

ولكن الملاحظة التي تهمننا بصفة خاصة أنه بعد المضاف الذي فرض سنة ١١٧٢ لم يقرر مضاف آخر حتى سنة ١١٨٦ وهي آخر عهد على بك وذلك بعد نخر آله .

ثانياً : تقاسيط الالتزام

وبهذه المناسبة رأينا أن ننقل صورة تقسيطي الالتزام أحدهما في سنة ١١٧٥ (١٧٦١) على عهد مصطفى باشا والثاني سنة ١١٨٥ (١٧٧١) في عهد على بك وهو مهور نخاتمه الخاص .

١ — وثيقة رقم ٢ ملف رقم ١٩ محفظه ١ مخزن تركي

مقاطعة قرية منية بدر سلسيل بحق ٢ ط ونصف ط تابع ولاية منصورة در عهده يوسف عبد الله تابع سليمان جاوش قازطاغلي كه حالا بوجه التزام قيد شده عن أول توت الواقع في ٩ ص (صفر) ١١٧٥ أدات شده كه عن مصالحة سليمان شراقوه مستحفظان ملتزم قرية مزبورة بحق ٥ ط عن التزامن ٢ ط ونصف ط بمزبور بوجه مصالحه داده وقيد شده مزبورة باييورلدي شريف حضرت وزير روشن ضمير صدر أعظم سابق مصطفى باشا محافظ محروسة مصر حالا . المؤرخ دربالاي قائمة مزاد الواقع في ٢٣ ذى ١١٨٥ بأمر حضرت وزير دام إجلاله »

قربة مزبوره بحق ٢ ونصف ط	
قطعة ١ في سنة التون . . .	
بحساب باره	١٠٥٣ قديم
	مضاف ١٢٧
	فرط ٤٨
	مضاف ٤٩
	١٢٧٧

مضاف در سنة ١١٧٤ ٥١

شتوى ١٣٢٨

سنكه ملتزم مزبورة سن أشبويه يكه دير بلان تقسيط ديوانى موجبنجة قرية مزبورة بحق ايكي قيراط مذكورك مصالحة سندن التزامكه دير يلوب كركوركه متصرف أولوب اوزركه اداسى لازم كان مال ميرى وقت وزما نيله ديوانه ادا وتسلم ايليوب ظلم وتعديدن بغايت احتراز اوزره اولاشن ،

« خاتم الباشا ، تحريراً فى التاريخ المزيور ٢٣ ذى الحجة ١١٧٥

والشطار الأخير من التقسيط هو النصيحة التقليدية التى يوجهها الباشا

الملتزمين وتعريبها

« أنت أيها الملتزم المذكور ، أنه بموجب هذا التقسيط الديوانى المعطى لك ، قد أصبحت القرية المذكورة فى التزامك بحق قيراطين ونصف قيراط من مصالحة المذكور ، فبناء عليه تصرف فيها ، وعليك أن تؤدى وتسلم المال الميرى المفروض عليك فى وقته مع التحرز من الظلم والتعدى . »

ب — محفظة رقم ١ ملف رقم ٢٨ وثيقة رقم ٥٠ .

« مقاطعة قرية منشاة دهشور بحق ٢ ط تابع ولايت جيزة در عهده أحمد جلبى ولدش كه حالا بوجه التزام قيد شدة عن أول توت الواقع فى ١٩ جا (جمادى الأولى) سنة ١١٨٤ ادات شدة كى عن فراغ يوسف عبد الله تابع على

ولدش ملتزم قرية مزبورة بحق ١٩ ط به حصة اسن بمزبور ٢ ط فراغت كرده
 ر قيد شده برمودة بایورلدی شریف حضرت علی بك میرلوا قائمقام محروسية
 مصر حالا المؤرخ دربالای عرضحال فارغ المزبور الواقع فی ١٧ ذی (ربيع
 ثانی) سنة ١١٨٥ .

بأمر حضرت قائمقام بك دام عزه .

قرية مزبورة بحق ٢ ط قطعة ١ فی سنة التون .

بحساب باره	٢٤٨١٥	قديم
	٢٩٧	مضاف
	٩٢٦	فرط
	١٤٨	مضاف
	١٥٤	مضاف سابق
	١٦٠	» سنة ١١٧٤
٤١٦٦		موقوف الى زمان صيفی

ويتلو ذلك النصيحة التقليدية السابقة مع زيادة نص « رعايا وبراياتك حفظ
 وحماية سيله مشغول ومقيد أولوب » أى « وأن تكون منشغلا ومقيدا بحفظ
 وحماية الرعايا والبرايا » .

يتضح لنا من دراسة التقسيطين السابقين وهما مثلان من آلاف التقاسيط
 ما يأتى :

- ١ — أن على بك أبقي نظام الالتزام السابق لعصره دون أى تغيير .
- ٢ — وأنه أجلي عناصر الحماية عن ميدان التزام الأراضى الى درجة ما ،
 ولم يعد يسمح بذلك إلا لمن والاه منهم وتأكد من اخلاصه .
- ٣ — أن آخر « مضاف » على أراضى الالتزام كان فى سنة ١١٧٤ أى فى
 أول عصر على بك ، ولم تزد عليه أية رسوم أخرى شرعية حتى نهاية عصره

خلافًا لما ذهب اليه المؤرخون من أن حاجته الشديدة الى المال جعلته يشغل كاهل
الفلاح بعدة ضرائب ، وأن « المضافات » أصبحت شرعية في عهده . (١)

والكى يضمن على بك أن يتمتع الفلاح بشيء من العدل وتمكن الحكومة
من تحرى الدقة في تحديد رسوم الالتزام ، قام بعدة اصلاحات في مقياس النيل
جنوبى جزيرة الروضة (٢)

غير أن سياسة على بك في جمع المال لم تكن قائمة على أساس اقتصادى عادل ،
فعند ما كان يشعر بحاجته الى المال كما حدث ١٧٧٠ (١١٨٤ هـ) وقت تجهيز
حملات الشام كان يتغلب على العقبة المالية باحدى الطرق الآتية :

أولها : مصادرة أموال من يشك في ثرائهم من غير مريديه ، كما فعل في تلك
المناسبة فطلب حسن أغا تابع الوكيل والروناجى وباش قلفة واسماعيل أغا
الزعيم وآخرين وصادرهم في نحو أربعائة كيس (٣) .

ومنها فرض قدر من المال على أهل الذمة من اليهود والأقباط (٤) ، وزيادة
مقدار الضرائب على أفراد الشعب فيخبرنا الجبرقى مثلاً أنه ، عمل دراهم على
القرى وعمل على كل بلد مائة ريال وثلاثة ريال حق طريق ، ولم يبال بما لحق
الناس من شدة جعلتهم يضجون بالشكوى ، طالما كانت زيادة ضرائب مال
السكشوفيه تتبعها زيادة ميرى مال السكشوفية الذى يدفعه السكشاف للخرانة

(١) lancret : PP. 255—250 & Cirard PP. 585—588 & Combe : PP. 96—17

(٢) على باشا مبارك . الخطط التوفيقية . ج ١٨ ص ١٩

(٣) الجبرقى ج ١ ص ٣٥١ — وثلاثة تحريف العربية خليفة وهو الوكيل أو معلم الصنعة
أو الكاتب ذو مرتبة رئيسية . وباش قلعة معناها هنا ضابط حسابات أفندية الرونامة ، يقيد
جميع إيراد مصر ومصروفاتها ، ويحتفظ بسجل مال السكشوفية ، ويعطى سنداً الى الملتزمين
عند ما يدفعون الميرى — والزعيم أى والى القاهرة وهو رئيس شرطتها ، ولكنه تحت
رياسة أفا البيكيجرية .

(٤) فرض على الأقباط ١٠٠,٠٠٠ ريال ، وعلى اليهود ٤٠,٠٠٠ قبضت بسرعة .

العامه (١) . ومنها أيضا أنه كان يأمر رزق بسك عمله جديدة يوزعها على مماليكه (٢) .

هذا وينبغي أن نشير الى عدم وجود تعارض بين فرض دراهم على القرى وبين عدم فرض مضافات جديدة ، فالمضاف كان يفرض على الملتزم ، وهذا يجيبه من الفلاحين في كل موسم (الصيفي والشتوي) فهو عبء ثابت ليس له مبرر ، وقد وضحنا أن على بك عدل عن هذا السبيل .

أما الدراهم التي كانت تفرض على القرى فكانت حسب الحاجة ، فهي ليست دائمة ، كما أنها كانت تفرد على جميع أهل القرية : فلاحين وتجارا ومن لا يهم فيقل نصيب الفرد ويخف العبء . وقد فضل على بك هذا الأمر على ذاك .

النقود المصرية والعملة الأجنبية المتداولة في مصر :

استمر سك العملة في دار ضرب النقود بالقلعة في أثناء العصر العثماني ، وكانت تسك اما من الذهب أو الفضة أو النحاس ، في سبائك غير خالصة وبفئات مختلفة .

أما النقود الذهبية فكانت المحبوب (أو السكوان) وقيمته ١٨٠ نصف فضة واجزائه الزر محبوب أو النصفيه ، ثم ربع المحبوب أو الربعية والزنجيرلى وقيمته ٢٠٠ نصف فضة تقريبا ، الفندقل (أو المجر المصرى) وقيمته ٢٥٠ نصف فضة تقريبا .

وكانت أقل النقود الفضية قيمة : البارة (٣) . (بالتركية ويسميتها المصريون مصرية) مقدارها نصف فضة وهي الميدي (تحريف مؤيدى) . ومضاعفاتها ذات الخمس بارات (يسميها الترك بشلك والمصريون خمساويه) وذات العشرة بارات

(١) ينبغي أن نفرق بين مال المكشوفية وهي نفقات الادارة المحلية ، وميري مال المكشوفية وهو ما يدفعه الكشاف للحكومة .

(٢) الجبرقى ج ٤ ص ٣١٣

(٣) شاع في عهد على بك تسمية الميدي بالبارة .

(أو نلك) وذات الخمس عشرة بارة (أو نذلك ، بالتركية ويسميتها المصريون نصف صلدى) والقطعة ذات العشرين بارة (يارم قرش بالتركية أو نصف قرش بالعربية أو عشرينية) وذات الثلاثين بارة (وهى الصلدى) . ثم القطعة ذات الأربعين بارة وهى القرش أو الأصلافى^(١)

أما النقود النحاسية فهى أجزاء البارة مثل الجديد ويساوى ربع بارة والمقصود يساوى ٨ جدد والمرادى ويساوى ١٢ جديدا ، والاختشاو يساوى ١٦ جديدا^(٢) . ومنذ سنة ١٩٢٣ هـ الموافقة ١٥١٧ م ، وهذه النقود يحدد سكها كلها تولى عرش السلطنة سلطان جديد ، فتسك باسمه . ولما كانت دار الضرب تحت إشراف الباشا العثمانى ، وهو الذى يصدر الاذن بسك العملة الجديدة سنحت الفرصة للجشعين من الباشوات بتزييفها ، أما عن طريق غش السليكة ، أو عن طريق إقصاء سمك القطعة ذاتها . وتكرر ذلك كثيرا لدرجة أفقدت العملة ثقة الشعب المصرى ، فكان يطمئن فى الصفقات الكبرى إلى التعامل بالعملة الأجنبية المتداولة فى مصر أكثر من اطمئنانه إلى العملة المحلية .

وكان أكثر هذه النقود تداولا مسكوانى البندقية أو البندقى ، ودوقات المجر وهولندة (واشتهرت باسم بوكب إشارة إلى الأسد المنقوش عليها) وهى من الذهب ، ثم العملة الأسبانية الفضية من جميع الفئات وخاصة التالير ، وهى الريالات الأسبانية وواحدها أبو طاقة (باتاك) .

وكانت القيمة السائرة لهذه النقود فى مصر تتغير من وقت إلى آخر ، ولسكنها على كل حال كانت أزيد من قيمتها السائرة فى الخارج ، وليس لدينا بيان عن قيمتها فى عهد على بك^(٣) .

(١) كانت المبالغ الكبيرة تقدر بالأكياس ، والسكيس المصرى قدره ٢٥,٠٠٠ مئدى أو نصف فضة أو بارة ولم تكن النقود الذهبية شائعة الاستعمال إلا لقتصادى .

(٢) الجبرتى ج ١ ص ١٤٧

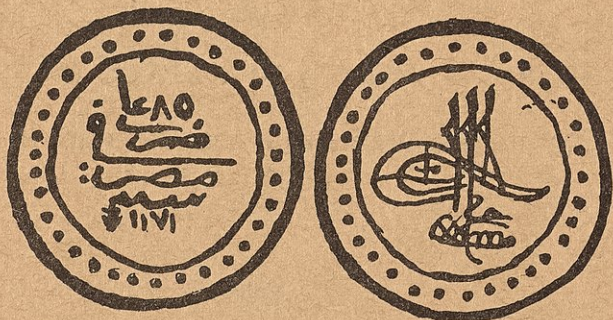
(٣) كانت القيمة الاسمية لسككوانى البندقية ودوقات المجر وهولندة فى مصر أزيد بخمسة

والتعديل الذى أحدثه على بك فى العملة المحلية تناول عيار سبيكتها ونقشها،
فأنه أراد أن يعيد الثقة إلى تلك العملة ، فأعاد سك معظم القطع النحاسية
(الجديد ومضاعفاته) ، والفضية (البارة ومضاعفاتها) — وزاد عيار السبيكة
بزيادة مقدار المعدن الأساسى فيها بمقدار الثلث تقريبا .

وعلى أحد وجهيها أبقى نقش اسم السلطان « سلطان محمد مصطفى بن أحمد
خان عز نصره » بالطغراء أما الوجه الثانى فقد سجل عليه اسمه بطريقة بارعة
مستخدما لذلك حرف الباء فى كلمة « ضرب » بدل حرف الياء وهو الحرف

الآخر من اسمه فأصبحت تكتب هكذا **ضرب على** — غير أننا نلاحظ أن

السنة التى ضربت على قطع الفئات المختلفة كانت تختلف من فئة إلى أخرى : فمثلا
على قطعة العشرينية (٢٠ بارة) نقش سنة ١١٨٣ هـ (١٧٦٨ م) سنة ضربها
وهى السنة التى تولى فيها قائمقام — وبعد عامين أى فى سنة ١١٨٥ هـ (١٧٧١ م)
أصدر قطعا من ذات الأربعين ميديا (القرش) ونقش عليها عام ١١٧١ هـ على



أنه عام ضربها مع أنه فى الواقع سنة تولى مصطفى الثالث عرش السلطنة ، وفى

ضرب على ٨٥

الوقت نفسه نقش رقم — ٨٥ — اختصار سنة ١١٨٥ فوق كلمة

وهي السنة التي ضرب فيها تلك العملة . (١)

والاضطراب الذي نلاحظه في التاريخ المنقوش على العملة مرجعه إلى الاضطراب الذي صادف على بك في تحديد مركزه . بأزاء السلطان العثماني . وقد ناقشنا تلك المسألة في الباب السابق .

ذكر الجبرتي أن النقود التي ضربها على بك كانت « قروش مفرد ومجوز وقطع صغار تصرف بعشرة أنصاف وخمسة أنصاف ونصف قرش ، وكان أكثرها نحاسا وعليها علامة على بك . (٢)

وقد ذكر أيضا في حوادث سنة ١٢٣٥ هـ أن أول من أحدث ذلك النوع من القروش « على بك القازدغلي بعد الثمانين ومائة وألف ، عندما استفحل أمره وأكثر من العساكر والغلمان وأظهر العصيان على الدولة . (٣)

وعندما أمر أبو الذهب في سنة ١٧٧٢ هـ (١١٨٦) ، بعد فرار على بك بإبطال العملة المضروبة باسمه فقدت تلك العملة حوالى ٢٠٪ من قيمتها ، انتهر التجار الأجانب تلك الفرصة فصار يجمعها بعضهم ويرسلها إلى مرسيليا حيث كانوا يحولونها إلى سبائك ، وجنوا من وراء ذلك أرباحا طائلة . (٤)

أما دار ضرب النقود في القلعة فقد جعلها على بك تحت إشراف المعلم رزق (٥) . وكان يرى من وراء ذلك إلى ثلاثة أغراض . أولها الحصول على

(١) Samuel Bernard : Des monnaies Arabes. PP. 363—367 & Marcel :

P. 255 وصورها ص ٤٦٩ برقم ١٨٩ و ٢٠١

(٢) الجبرتي ج ١ ص ٣٧١

(٣) الجبرتي ج ٤ ص ٣١٣

(٤) Volney. T. 2 PP, 116—117

(٥) كان يدير دار الضرب أنا يعينه ديوان الاستانة فيسك العملة بأمر الباشا كلما نولى سلطان جديد أو احتاجت مصر إلى عملة جديدة — وكان يدفع عن ذلك مبرى للدولة وعوائد للباشا والكتبخدا ومراتب لعمال الدار — ولكن بتقوى المالك ، وعدم تسديدهم مال الميرى كاملا والعوائد المقررة للباشا تنازلت الدولة للباشا عن الإشراف على دار الضرب ليستعين بالربح الناتج من ذلك على تغطية مصروفاته — ثم باع الباشوات الربح مقدما لمشايخ البلد ، حتى قام على بك بحركته فاستأثر بأرباحها .

الأرباح الناتجة من سك العملة ، إذ كان صهر العملة الأجنبية وإعادة سكها أنصاف فضة (بارات) يعطى ربها صافيا قدره ٣٠٪^(١) — والغرض الثاني ضمان عيارها . أما الغرض الأخير فكان إبرازها في نقش جديد يدل على معنى انفرادها بالسلطة ، وجعل دار الضرب تحت إشرافه ممكنه من سك أى مبلغ يحتاجه منها .

السياسة المالية وإدارة الجمارك .

العامل الأساسى الذى وجه على بك فى سياسته المالية كان حاجته الملحة إلى المال للصرف على الحرب والأعمال الداخلية من تجريدات وجوامك عمال الحكومة . أما أهم القواعد التى أقام عليها تلك السياسة فكانت ثلاثة : أولها الاستيلاء على عوائد الباشا وأوقاف الدولة والخزنة ، ثم تشجيع الأجانب على الهجرة إلى مصر مع الاستعانة بالعناصر الملائمة منهم وخاصة السوريين ، ثم تريج التجارة .

وكان أول ما بدأ على بك أن منع إرسال « الخزنة » السنوية إلى الاستانة ابتداء من سنة ١٧٦٩ وفى خلال أعوام ١٧٧٠ ، ١٧٧٢ ، فصل بذلك على مبالغ لا يستهان بها^(٢) . يعنى ذلك أنه حصل على نحو ١٧٦٦ كيسا مصريا يساوى ٤٤٠٠٠ ر. ٤٤ ر. ٤٤١ كيسا فى السنة^(٣) .

(١) كان يحصلون على معادن السبيكة من ثلاثة مصادر: إما بإعادة سك عملة قديمة أو بإعادة سك عملة أجنبية أو بشراء نهر الذهب والفضة .

(٢) فى سنة ١٧٦٨ (١١٨١) أرسل على بك آخر خزنة إلى الاستانة عن سنة ١١٨٠ وكان أمير الخزنة عثمان بك أبو سيف وقد توفى بالأناضول قبل عودته (٢٨ شعبان ١١٨١) الجبرنى ج ٣ ص ٢١٨

(٣) الخزنة أو الخزينة فى الاصطلاح العثمانى مقدار مابقى مما يحجب بمصر بعد اتفاق كل ما قرر السلطان اتفاهه وبعد النفقات المستجدة — وكانت تتشكون من مال الأراضى الزراعية وميرى الوظائف ورسوم الجمارك والجوالى . ولم يكن مقدارها ثابتا بل تعرض كثيرا للزيادة والنقص فثلا كانت فى سنة ١٠٤٩ (١٦٨٣) أى ضعف العدد الذى ذكرناه أى حوالى ٩٤١ كيسا ، فى سنة ١٠٩١ (١٦٨٠) كانت حوالى ١٤٧,٥٨٨ جنيتها مصريا تقريبا الخ

أنظر الأمير محمد طوسون . مالية مصر ١٠٨ — ١١٥

ثم وضع يده على موارد الباشا المالية من إيرادات وعوائد أخصها مال جمرك
البهار وعوائد على دخل دواوين (جمارك) الاسكندرية ورشيد ودمياط
وبولاق ومصر العتيقة ، وعوائد أمين البحرين وأمين الخردة وحلوان التزام
البلاد التي يتوفى عنها أصحابها . كما أنه أدار دار الضرب لحسابه مباشرة (١) وتنظر
على أوقاف دار السعادة .

ذكر الجبرني في حوادث ١٢٠٠ أن محمد باشا والى مصر عمل ديوانا في شهر
ذي القعدة « وخلع على مصطفى أغا ... وقلده وكيل دار السعادة كاستاذ استاذ
وكانت شاغرة من أيام على بك ،

» (وفيه) أيضا سمحوا في جمرك البهار والسلخانة لباب البكيجرية كما كان
قديمًا وكان ذلك مرفوعا عنهم من أيام على بك . » (٢)

ولجأ على بك الى التشديد في جمع الضرائب المقررة من ميرى وعوائد مختلفة
ثم فرض بعض الرسوم الجديدة .

ومن بين الرسوم التي استحدثها على بك رسوم « دفن الأموات » تدفع عند
أبواب المدافن (٣) .

ثم أنه كان يضغط على الأغنياء عن طريق المصادرات أو فرض المغارم ،
كما فعل مع يوسف ليني معلم دواوين الاسكندرية (جمارك الاسكندرية ورشيد
وأبو قير) واسحق اليهودي معلم الديوان ببولاق . فقد قبض على الأخير
وصادره في ٤ ألف محبوب وضربه حتى مات . وكان يفرض على القبط
واليهود عموما آلاف الريالات (٤) .

(١) جمرك البهار للبضائع الواردة الى السويس وهو في الطريق بين القاهرة والسويس ،
وأمين البحرين هو المشرف على ساحل بولاق ومصر القديمة ، وأمين الخردة هو المشرف على
جميع الرسوم المفروضة على الملاحة .. الخ .

(٢) الجبرني ج ٢ ص ١١٧ ، ١٢٠ .

(٣) الجبرني ج ١ ص ٣٥١ .

(٤) الريال = ٩٠ فضة أو بارة تقريبا وقد بلغ ١٦٠ فضة قبل الاحتلال الفرنسي .

ذكر الجبرتي أنه صادر كثيراً من التجار وغيرهم وأنه « هو الذى ابتدع المصادرات وسلب الأموال من مبادئ — بدء — ظهوره واقتدى به من بعده » أما مع الأجانب فقد اتبع سياسة القروض الاجبارية ، يردّها احياناً ويحتفظ بها غالباً . ولكن المغارم التى كان يفرضها من سبقه من أصحاب النفوذ بالقاهرة ويضج منها التجار الفرنسيون خصوصاً والأجانب عموماً لم تعد تشغل بال هؤلاء . قرر ذلك القنصل الفرنسى داميرات D'Amirat إذ كتب فى ٣ ديسمبر ١٧٧٠ يقول عن فرض طلبه على بك قدره مائة كيس « ويخيل لى أن غرض البك من ذلك لم يكن بحال من الأحوال توكيد الجالية أى خسارة لأنه يحميها ويرعاها^(١) ، ثم أنا نلاحظ أن الدفتر دار وهو رئيس الديوان الدفترى ، والرزنابجى رئيس ديوان الروزنامة ، وهما رأس الادارة المالية ، لم يكن لهما من الشهرة او النفوذ فى عهد على بك قدر ما كان للمعلم رزق القبطى الذى شغل الى جانب على بك مركز المستشار المالى بفضل معلوماته المالية والفلسكية . وأصبح رزق موضع تكريم واحترام ومهاداة الجميع .

اشار الى ذلك قنصل فرنسا بقوله « ولدينا البراهين الأكيدة على انه من بين بطانة البك يستحوذ المعلم رزق — كاتبه الاول — على القسط الاوفى من ثقته وله التأثير الأكبر فى تسمير دقة الامور^(٢) .

أما إدارة الدواوين (الجمارك) فقد صادفت تغييراً هاماً . كان بمصر أربعة منها ، وهى جمر ك الاسكندرية ويتبعه جمر كارشيد وأبو قير للتجارة القادمة من أوروبا وجمر ك دمياط للتجارة الآتية من الشام ، وجمر ك بولاق للبضائع ، الآتية من الوجه البحرى ويتبعه جمر ك مصر العتيقة للبضائع الواردة من الصعيد ، والرابع جمر ك

(١) الجبرتي ج ١ ص ٣٠٩

(٢) Masson : His. du Commerce ... V. 111 P. 307

(٣) ذكرها V. 5 P. 81 Deherain

البهار (شرقي القاهرة في طريق السويس) للتجارة الواردة عن طريق البحر الأحمر .
 وكان إيراد الجمارك الثلاثة الأولى يعطى « موجبات » لفرقة اليكيجرية أما
 إيراد جمر ك البهار فكان من حق الباشا ، كما كانت رسوم الدواوين تباع عن
 طريق ديوان الروزنامة إلى الملتزمين ، وهؤلاء يعهدون بإدارة كل منها إلى مدير
 باسم « جمر كى أو أمين الجمر ك أو معلم الديوان . »

والتغيير الذى أحدثه على بك كان فى الفئة التى تتولى إدارة الجمارك إذ كان
 هؤلاء من اليهود ثبتت أقدامهم فى تلك المراكز بما اكتسبوه من خبرة بمضى
 الزمن ، ولكنهم تغالوا فى فرص رسوم غير محتمة على التجار الأجانب انفردوا
 بها لحسابهم الخاص .

ولما كانت سياسة على بك المالية تقوم من ناحية على ترويج التجارة ، فقد قبض
 على معلم دواوين الاسكندرية يوسف لىفى ، ومعلم دواوين بولاق اسحق اليهودى
 وصادر أموالهما وأعد مهما وعزل بقية معلمى الدواوين من اليهود ، وعهد
 بالإنشرف على إدارتها إلى رجال من السوريين المسيحيين الكاثوليك . وكان
 السوريون قد تسرب بعضهم بالهجرة إلى مصر يزاولون التجارة بعد أن شجعهم
 حزم على بك وعده له وتساحه الدينى .

وكان أول هؤلاء السوريين من معلمى الجمارك «المعلم ميخائيل فرحات ثم المعلم
 ميخائيل الجبل ثم المعلم يوسف بيطار .

يذكر لنا الخورى بولس قرالى أن معلم دواوين مصر السورى كان يعين
 بنى جلده لجباية المكوس الجمركية ، كما كان يشتري لحسابه التجارة الواردة إلى
 مصر ثم يوزعها بالجملة على التجار بواسطة عملاء من السوريين ، وأن الحكومة
 كانت تضع سلطاتها تحت تصرفهم ، ومن هنا نشأت أهمية هذا المركز من الناحيتين
 الاقتصادية والإدارية « وقد سمح هذا المركز للسوريين ، الذين جاءوا إلى مصر
 قليلين ضعفاء أن يتمكنوا منها فى وقت قصير ويتخذوا لهم فيها مركزا محترما
 عاليا . وتكاثروا حتى بلغ عددهم فى أواخر حكم على بك فى القاهرة وحدها نحو
 ثلاثة آلاف شخص . »

ثم توسعوا في التجارة الداخلية وبعض فروع التجارة الخارجية « واستقلوا بها ولم تستطع الجالية الأفريقية مع ما كان لها من النفوذ ، ولا اليهودية مع ما كان لها من الدهاء أن تستردها منهم ^(١) . » وهكذا نجد بواكير الهجرات السورية إلى مصر في عهد علي بك الكبير وبتشجيعه .

ويغلب على الظن أن علي بك لم يتبع سياسة الالتزام فيما يختص بالجمارك بل ادارها لحسابه هو فحصل بذلك على ما لا يقل عن ثلاثة وعشرين مليوناً من البارات كل سنة (وقد رأينا أن نذكر فيما يلي ثلاثة أمثلة لالتزام الجمارك مستخرجة من السجلات الرسمية لذلك العهد .

(أ) الأول في سنة ١١٧٥ أي في أول عهد علي بك بشيخة البلد

(ب) والثاني سنة ١١٨١ (١٧٦٧) قبيل انفراذه بالحكم

(ج) والثالث سنة ١١٨٥ (١٧٧١) في أواخر عهده

وقد استخرجناها من الدفاتر الثلاث الآتية على التوالي :

(أ) دفتر أصول مال اسكطها ومقاطعات مع مضاف جديد واجب سنة

١١٧٥ تابع قلم شهر رقم ٣٠/٢٥

(ب) دفتر يتضمن مال إيرادات الجمارك يخص المحاسبة سنة ١١٨١ رقم ٣٠/٣٤

(ج) دفتر عن إيرادات مال الجمارك سنة ١١٨٥ رقم ٣٠/٤٥

* * *

١ — مقاطعة اسكطها اسكندرية ورشيد وتوابعها مع تعريف مراكب

ورسم جلود بقرى وجاموس بندر رشيد

(أ) أي عن سنة ١١٧٥ درعهده (أي في عهده) مصطفى كتحدا مستحفظان

ملتزم بود (بنفسه) ٧٠٥٠٥٥٠٥٠٥ باره سنويا

(ب) ای عن سنة ۱۱۸۱ - در عهده (لم یذکر) ۵۴۰۴۶۶۸ ر۵ باره سنویا

(ج) « « « ۱۱۸۵ - « (لم یذکر) ۵۴۰۴۶۶۸ ر۵ « «

۲ - مقاطعة اسکله بولاق و مصر قدیم و توابعها

(۱) در عهده مصطفی کتخدا مستحفظان باش اختیار ملتزم بود

باره سنویا ۳۵۱۶۳۱۶ ر۳

(ب) در عهده مصطفی کتخدا (لم یذکر) ۳۵۱۹۴۳۶ ر۳ « «

(ج) « « « « (لم یذکر) ۱۵۶۴۵۳۰ ر۱ « «

۴ - مقاطعة اسکله دمیاط و توابعها

(۱) در عهده مصطفی کتخدا باش اختیار مستحفظان ملتزم بود

« « ۱۵۰۴۳۵۶ ر۱ «

(ب) در عهده مصطفی کتخدا باش (لم یذکر) ۱۵۶۴۵۳۰ ر۱ « «

(ج) « « « « (لم یذکر) ۱۵۶۴۵۳۰ ر۱ « «

۴ - مقاطعة اسکله برالس

۱ - در عهده محمد و سلیمان عبد الله تابعاً اسماعیل ۱۲ ط و عبد الله تابع

عبد الله جورجی مستحفظان ۶ ط و محمد سعید تابع عبد الله ۳ ط و محمد بدوی

تابع عبد الله ۳ ملتزمین بود ۱۳۸۳۸۳ ر۱ باره سنویا

(ب) در عهده مصطفی عبد الله تابع محمد ۸ ط و محرم عبد الله تابع محمد ۴ ط

و عثمان عبد الله تابع محمد ۸ ط و نعمان محمد تابع محمد ۴ ط ۱۲۱۴۱ ر۱ باره سنویا

(ج) در عهده (لم یذکر) ۴۱۴۱ ر۱ باره سنویا .

۵ - مقاطعة عشور اصناف بهار و توابعها و سمساریه بهار و توابعها مع

مقاطعة قصیر الشامی .

(۱) در عهده دستور مکرم مشیر مفتخم حضرة وزیر مصطفی باشا

۴۲۹۲۴۱ ر۴ باره سنویا

(ب) در عهده دستور مکرم مشیر مفخم حضرة وزير أنخم محمد باشا
محافظ مصر حالا

(ج) » » (لم يذکر)

۶ — مقاطعة سمسارية بحرين وتوابعها مع مقاطعة بحرين وتعريف مراکب
وسمسارية بندر قرطم وغيره .

(۱) در عهده حسن کتخدا عزيان باش اختيار مشهدى ۳۲ ر ۴۳۴ باره سنويا

(ب) » (لم يذکر) ۸۳۷ ر ۳۰۰

(ج) » (لم يذکر) ۸۳۷ ر ۳۰۰

۷ — مقاطعة خرده وتوابعها مع بيت المال عام وتاج بازاراسب (أى
سوق بيع الخيل) .

(۱) در عهده حسن کتخدا باش اختيار عزبان مشهدى ۳۷ ر ۶۸۱ باره سنويا

(ب) » (لم يذکر) ۶۸۱ ر ۶۳۷

(ج) » ۶۸۱ ر ۶۳۷

۸ — مقاطعة كيالة أورز بياض در بندر دمياط

(وردت فقط بدفتر سنة ۱۱۸۵ رقم ۴۴/۳۰) در عهده مصطفى نام عزبان

۲ ط وعلى نام ۲ ط واسماعيل عبد الله تابع كاتب يك ط ويلال أغا عبد الله يك

ط وعبد الله جلبي ولدش ۲ ط وعلى عبد الله تابع حاج على سقا يك ط وأحمد

حسن ۴ ط وبشير عبد الله تابع محمد شراقوه أحمد ۲ ط وكورجى تابع أحمد

۲ ط والياس أغا تابع ابراهيم عبد الله أباطه ۲ ط وسليمن عبد الله شراقوه

عزبان تابع على بك مير الحاج سابقا ۳ ط وبلال أغا تابع عثمان ۲ ط ،

۱۵۴ ر ۴۹۰ باره سنويا

۹ — مقاطعة حمام خاصة در اندرون (مسکر) قلعة مصر .

(۱) در عهده عبد الحليم أحمد ط ۷ وسيد أحمد محمد ط ۳ وعلى بن عبد الله

تابع سليمان جلبي ط ۷ وحسن جلبي وحسين جلبي يروجه اشتراك ۴ ط

وثلثای ط و محمد محمد جاوشان قافطنجی ۲ ط وثلث ط ملتزمین بود ۶۸۵، ۱۲ باره سنویا .

(ب) در عهده عبد الحلیم أحمد ۷ ط و سید أحمد محمد ۳ ط و حسن جلی ۲ ط وثلث ط و محمد محمد جاوشان قافطنجی ۲ ط وثلث ط و عمر ولدش و أحمد ولدش علی بروجہ اشتراک ۷ ط و محمد ولدش و حسین جلی ۲ ط وثلث ط ۱۲، ۶۸۵ باره سنویا

(ج) در عهده محمد محمد محمد جاوشان قافطنجی و جوهر آغا تابع محمد جورچی ۱۲، ۶۴۵ باره سنویا تفسکجیان نبده لی

۱۰ — مقاطعة بحيرة سمک در بندر دمیاط .

(ا) در عهده محمد آغا اغاء قلعة دمیاط ۴۴، ۷۸۳ باره سنویا

(ب) عثمان اغا اغاء » ۴۴، ۷۸۳ »

(ج) (لم یذکر) ۴۴، ۷۸۳ »

۱۱ — مقاطعة محصول مال احتساب نفس محروسة مصر .

(ا) در عهده محمد آغا امین احتساب ۱۹۷، ۹۷۳ باره سنویا

(ب) اسماعیل اغا اغاء جاوشان امین احتساب » » »

(ج) (لم یذکر) » » »

۱۲ — مقاطعة مال حایة اورزمیری عن جانب امین دمیاط و ملتزمین فارسکور

(ا) در عهده خلیل بك میرالوا قاز طاغلی دفتر دار مصر حالا

۵۴۰۸۰ باره سنویا

(ب) شیخ عبد الله » ۱۰۴۰ »

(ج) (لم یذکر) » » »

۱۴ — مقاطعة مال حایة کتابت کمرک اسکله بولاق .

(ا) در عهده اسحق و یوسف باشکاتب ملتزمین ۱۰۴۰ باره سنویا

(ب) » » » » » » »

(ج) در عهده . . . (لم يذكر) ١٠٤٠ باره سنويا

١٥ - مقاطعة مباشرت كتابت عشور اصناف بهار

(١) در عهده قاضي موسى محمد يوسف التزام ٤٠٥,٦٠٢ باره سنويا

(ب) » على نام ولدش ٦ ط وحسن موسى ولدش ٦ ط وعبيده

مصطفى ومصطفى دياب نكدلى ويوسف باقر وحسن محرم بوجه اشتراك

٤٠٥,٦٠٣ باره سنويا

(ج) در عهده . . . (لم يذكر) ٣٠٥,٦٠٣ باره سنويا

* * *

وما يمكن استخلاصه من هذه السجلات يتناول موضوعات كثيرة . أما ما يخص الجمارك منها فهو ما يلاحظ من عدم وجود ملتزمين لسنة ١١٨٥ ، ومعنى ذلك أن على بك أدار الجمارك لحسابه الخاص واستولى على أموالها فحصل على ما يزيد على ثلاثة وعشرين مليوناً من البارات سنويا ابتداء من سنة ١١٨٢ (١٧٦٨) . ويدخل في ذلك أيضا حرمان اوجاقات الخامية من أهم موارد ثروتهم ونفوذهم بمنعهم من التزام الجمارك كما حرم على العناصر غير المرغوب فيها منهم التزام الأراضي من قبل .

هذا ولا تفوتنا ملاحظة هامة وهي أن (مقاطعة مال حماية كتابت كمرک اسكلها بولاق) كانت لليهود حتى نكل بهم على بك واستبدل بهم المسيحيين من السوريين ، وبذا جاء حساب سنة ١١٨٥ خلوا منهم كما هو مبين بالثبت السابق . كما نلاحظ أن مقاطعة اسكله برللس نزعت من المستحفظان وأعطيت للاهالى ، وأن على بك كان يدفع باتباعه الى نواحي النشاط الحكومى المختلفة كما فعل عند ما اشرك تابعه سليمان عبد الله شراقيه عزبان في التزام مقاطعة كباله ارز بياض بندر دمياط وباشرا كه في اوجاق عزبان أيضا ، وكما فعل في اول عهده بداود اليهودى وهو من خدامه اذ استصدر فرمانا من الباشا بتعيينه كساتبا بالضربخانه ، وذلك قبل طرده اليهود من الجمارك (١)

(١) فرمان باشوى بتاريخ ١٤ رمضان ١١٧٥ — دفتر قيد فرمانات الصادرة من

الباب العالى لمخروسة مصر . رقم ١ ص ١٤٢ مخزن تركى .

المنشآت :

لم يشترع عهد على بك بالإنشاءات المعمارية ، إذ كان رغم قصره مليئا بالأعمال الحربية التي لم تعط البك فرصة للاهتمام بتلك الناحية . ومع ذلك فقد أثرت عنه أربع منشآت .

ارتبط أولها بوعدو وعده ونذر نذره . فإن على بك عندما أبعد الى النوسات أقام ببلدة نوسا الغيط (مركز أجا أعمال مديرية الدقهلية) ^(١) ، وكان يتردد عليه في عزلة أحد مشايخ البلدة وهو (سيدى مجاهد) وكان عبدا صالحا يتبرك به على بك ويشكو اليه أمره فكان مجاهد يدعو له ويصبره . فلما استقر على بك في شياخة البلد حضر خصيصا لمقابلة الشيخ مجاهد وقال له « لك منى ما تريد فقد قضى الله حاجتى ورجعت الى الحكم » . فأجابه هذا بأن لا مطلب له عنده سوى اتمام بناء مسجد السيد البدوى ، وأن يكون للشيخ مقاما خاصا وحجرة خاصة بالمسجد — أما النذر فقد نذره عندما كان بالقاهرة ١٧٦٨ وكان ابو الذهب مقيما على حصار خليل بك بمسجد السيد احمد البدوى بطنطا ، نذر عند ذلك أن يقوم بهارة المسجد لو كتب الله له النصر على منافسيه ، فلما نال بغيته عهد الى المعلم حسن عهد المعطى « باجراء عمارة المسجد ، فجدد قبة الضريح والمنارتين العظيمتين والميضاة الكبيرة وكراسى الراحة » . كما أنه وفى بعده للشيخ مجاهد فأفرد له ضريحا ولا يزال يطلق على إحدى حجر المسجد اسم « سيدى مجاهد » ثم أنه فرش المسجد بالحصر المنوفى ، وأضاءه بقعاذيل الزيت الطيب والشموع وأنشأ الى جواره صهاريج الماء ، ورتب عمالا مخصوصين للنظافة فى داخله وخارجه كما رتب النقباء لخدمة المجاورين .

وفى عهده بدأ مسجد السيد احمد البدوى يتحول الى مدرسة إسلامية على نمط الأزهر وذلك عند ما رتب عدة من الفقهاء والمدرسين ، وأمه الطلاب والمجاورون

(١) نرى على بك ١١٧١ هـ الى النوسات فى عهد الصابونجى ، أبعد إليها ومنح حكمها فى عهد حسين بك كشكش ١١٨٠ هـ — ١٧٦٦ م .

وجعل لهم (خبزاً وجرايات وحساء يصرف لهم يومياً) وعهد بالقيام على أموره إلى شيخ لقبه «شيخ الجامع الأحمدى» .

ثم أنشأ في مواجهة الجامع سيلا فوقه مكتب للصحية ، كما أنشأ قيسارية عظيمة أصبحت مركزاً تجارياً محلياً وأطلق عليها اسم الغورية لنزول تجار غورية القاهرة بها للتجارة .

ثم أوقف على كل ذلك وقفيتين : الأولى بتاريخ (١٠ شعبان) وتشمل أراضى زراعية من قرى القوصية بولاية الأشمونين تغسل ٧١٨٩٧٥ أردبا من القمح سنوياً . وأما الوقفية الثانية فتاريخها (١٨ ذو القعدة ١١٨٥) وتشمل حوالى ١٧٠٠٠ فداناً بنواجى ، طنطا وبلتاج ، هذا عدا العقارات المبينة من وكايل وقيسارية وصهايج وغيرها « كان يبلغ صافى ريعها السنوى حوالى ٨٤٨٥٢٥ نصف فضه .

وجعل كل ذلك وقفاً على « الخلفاء » بمقام السيد أحمد البدوى ، وخدمة المقام ، والعلماء . والقاطنين به ، والمجاورين بالمسجد المشار إليه ، والعواجز ، والأيام بالمسكتب ، والمجاورين بالمسكتب ، والفقراء ، وأرباب الأشاير المنسوبين للطريقة الأحمدية « وغير ذلك « خيرات وقربات ومبرات . » (١)

هذا ونصوص الوقفتين واخته ، ودراسة تلك النصوص تبين لنا النظم التى وضعها على بك حياة الطلاب وسير الدراسة فى الجامع الأحمدى وفى المسكتب : أما المجاورون بالجامع الأحمدى فكان عددهم سبعائة يقطنون بمسجد السيد أحمد البدوى ، ويتعاطون جارية يومية مقدارها (ست أرغفة خبز قرصة) للمجاور الواحد ، و(فول نابت) بعد صلاة الصبح (وشوربة بر) تزيد فى رمضان فيدخل فى تجهيزها (الأرز واللحم والمسلى والبصل والحمص والمصلح) (٢) .

(١) حجتنا وقف على أبك الكبير بتاريخ ١٠ شعبان ١١٨٣ ، القعدة ١١٨٥ بوزارة الأوقاف « قسم الأوقاف الأهلية » .

(٢) وقفية سنة ١١٨٣ ، سنة ١١٨٥ بوزارة الأوقاف بالقاهرة .

كما خصص مبلغ (٨٥٠٠٠ نصف فضة) أى ما يعادل (٣٥٠ جنهما مصريا)
تقريبا « يصرف سنويا فى ثمن كساوى تشتري لكافة العلماء والمجاورين والعميان
والأيتام بالمسجد المرقوم من بفته وزعابيط وقماش أبيض كل شخص بما يليق (١)
أما الدراسة فكانت — كما كان الحال فى جميع معاهد العلم فى مصر العثمانية —
دينية ولغوية ، الغرض منها تفهم الدين وحسن أداء العبادات ، وتشمل علوم
التفسير والحديث والفقه والتوحيد والنحو والميقات ، وقد خصص فى وقفية
(١١٨٣) مائة أردب من القمح « يصرف مرتبا فى كل سنة لعشرة أنفار علماء
من علماء المسلمين يتعاطون فى كل يوم بالمسجد المشار إليه قراءة عشرة دروس
من الحديث الشريف والفقه والنحو والتوحيد » .

كما خصص وقفية (١١٨٥) مبلغ ٢١٦٠ نصف فضة (أى حوالى ٧٢ جنهما
مصريا) « يصرف سنويا فى معلوم رجل عالم من علماء الإسلام ، العاملين بكتاب
الله تعالى . التابعين لسنة نبيه سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، يقرأ فى
المسجد المذكور درسا من القرآن العظيم لتعليم السادة المجاورين بالمسجد المرقوم
وأهالى الناحية المرقومة — طنطا » .

ومبلغ ٧٢٠ نصف فضة « يصرف سنويا فى معلوم رجل معيد مقرئ
للدرس المرقوم ، كما خصص مبلغ (٢١٦٠ نصف فضة) ، يصرف سنويا فى
معلوم رجل عالم من علماء المسلمين المحدثين يقرأ بالمسجد المرقوم فى كل يوم درسا
من حديث البخارى للسادة المجاورين بالمسجد المذكور وغيرهم من أهالى الناحية
المذكورة ، ومبلغ (٧٢٠ نصف فضة) « يصرف سنويا فى معلوم رجل معيد
للدرس المذكور يكون فيه أهلية لذلك » .

أما علم الميقات فقد خصص له فى وقفية (١١٨٥) مبلغ ٣٦٠٠ نصف فضة
« يصرف سنويا فى معلوم رجلين عالمين بعلم الميقات يعمران الأوقات ليلا ونهارا

بالمسجد المرقوم ، زيادة عن المعلوم بالوقف الأصلي ، (أى وقفية ١١٨٣ وقدره خمسة أراذب من القمح كل سنة) .

أما أداء العبادات في المساجد فقد وضع لها نظاما جعل المسجد مركزا لنشاط ديني عظيم ، إذ رتب للمسجد إماما شافعيًا ، وإماما مستعجلا للصلوات الخمس ، وخطيبا في أيام الجمع والأعياد ، ومرقيا للخطيب المذكور ، وأربعة مستخدمين بالدكة أيام الجمع والأعياد ، وميقاتيين ، وأربعة وعشرين نفرا حسان الأصوات يؤذنون بمنارتى المسجد في الأوقات الخمس ويعملون السحريات بالتهليل والتسبيح في كل ليلة . هذا عدا أئني عشر بوابا لأبواب المسجد الداخلية والخارجية ، وغيرهم من الكناسين والفراشين والوقادين والسقاين وخدمة المقام والنقباء .

وزيادة على ذلك فقد رتب نظاما لقراءة القرآن بالمسجد فجعل جراية يومية من الخبز والفول النابت لمائة قارئ كل ليلة سبت واثنين بالمقام (١) . وجعل لهم نقيما وخداما . كما رتب ثلاثين قارئًا يتلون القرآن كاملا كل يوم مرة بعد صلاة الفجر وأخرى بعد العصر ويختمون قراءتهم بالتهليل والتكبير والدعاء للواقف . وأقام عليهم شيخا يقوم بالدعاء وجمع المصاحف بعد القراءة — هذا عدا أربعين مقرئا يقرأون (سورة الأنعام) مجتمعين تجاه المقام كل يوم قبل الفجر ويختمون القراءة بالدعاء . كما رتب نظيرهم لقراءة (سورة يس) بعد صلاة العصر على النسق السابق . ولكل جماعة من هؤلاء القراء شيخ ونقباء لخدمتهم .

وفي شهر رمضان يزيد على من تقدم أربعون قارئًا يتلون القرآن كاملا في كل ليلة ويختمون القراءة بالدعاء . ثم تخير جماعة من القراء الحسنى الأصوات يقرأون في آخر كل ليلة من رمضان ، حتى طلوع الفجر ، ما تيسر من القرآن والمدائح النبوية ، ويعلنون الأذان مع طلوع الفجر .

أما المكتتب فقد فرش به بالحصر المنوفى وركب له الساتر ورتب فيه « خمسين يتما قاصرين عن درجة البلوغ » لتعلم حروف الهجاء والكتابة والقرآن العظيم وقراءة الحزب الشريف فى كل يوم والدعاء لمولانا الواقف فى مثل ذلك على العادة عند انصرافهم من المكتتب . . . ، واقام عليهم فقيها وعريفين . وجعل لهم جراية يومية من الخبز — كما قرر لكل صبي بالمكتتب « جبة صوف واحدة ونصف مقطوع قماش وطاقيه وشد ومركوب » ثمنها ١٠٠ نصف فضه تمنح له فى شهر رمضان من كل سنة .

أما الفقيه فكان يصرف له بفته محلاوى ومقطع قماش أبيض وشاش بلدى ثمنها ٢٠٠ نصف فضه مرة كل سنة . كما كان يصرف لكل عريف « جبة صوف ومقطع قماش أبيض » ثمنها ١٥٠ نصف فضه (١) .



ولعل من الطريف أن نتبين الآن مدى تنفيذ شروط ما أوقفه على بك فى عامى ١١٨٣ — ١١٨٥ . فقد أصبح المعهد الاحمدى مستقلا عن مسجد السيد أحمد البدوى ، ويضم عددا ضخما من الطلاب والمجاورين . ولكن المعهد لا يتمتع برىع الوقفتين كاملا ومعظمه يضم إلى دخل المعاهد الدينية . كما أن تعاطى الجراية صار نقدا نظرا للظروف الحاضرة ، وامتنع عمل الحساء فى شهر رمضان أيضا . ولم يعد يتعاطى الجراية سوى الفقهاء بالمكتتب ، وبعض المجاورين بالمعهد وبعض العلماء والقراء بالمسجد . أما المكتتب فيضم حوالى ٤٠ صبيا يتلقون دروسهم كأسلافهم . ويقوم الآن عشرة قراء كل ليلة أحد طول العام بقراءة ما تيسر من القرآن .

وفى شهر رمضان يتولى القراءة عشرة قراء قبل الفجر ، ومثلهم بعد العصر ويأخذ كل مقرأ ثلاثين قرشا فقط طول شهر رمضان .

تبيين لنا مما سلف النشأة الاولى للمعهد الاحمدى الذى كان ولا يزال ، ثانيا
المعاهد الدينية فى مصر قدما وشهرة بعد الازهر . ولكن بقى لنا أن نبهت عن
سر اهتمام على بك بذلك المسجد وهل جاء تلبية انزعة إصلاح علمى ؟
الواضح هنا أن الدافع الروحى كان أظهر فى عمله هذا من نزعة الإصلاح
العلمى — وان كنا لانستطيع أن ننفي العامل الأخير تماما — فنشأت على بك
العلمية لم تهمل عمارة المسجد الاحمدى وتنظيم الدراسة فيه وفى المكتب المجاور
له ، أما نشر التعليم فى بقية مدن القطر أوحى فى القاهرة فلا نكاد نعلم عنها شيئا
حقا نخبرنا الجبرتى عن ظهور بعض حكام اهتموا بالناحية العلمية فى ذلك
العهد ، مثل عبد الرحمن كخيا « أبو العمار والخيرات فى مصر والشام والروم » ،
الكثرة ما بناه من المساجد والزوايا والمساكن وهى أما كن للعبادة والعلم فى
نفس الوقت ، ومثل أبى الذهب الذى بنى مسجدا ومدرسة وألحق بها مكتبة
كانت تعتبر من أعظم المكتبات فى مصر العثمانية ، وأوقف عليها أوقافا طائلة
ورتب لها الأئمة والمدرسين والعلماء ، إلا أنه يخبرنا عن إهمال أمورها سريعا
وذهاب أوقافها إلى غير ما أوقفت له (١) .

فالاهتمام بالعلم فى ذلك الزمن كان اهتماما شخيصا محدودا تغلب عليه الناحية
الروحية — واهتمام على بك كان من هذا النوع — إلا أن فضله لا ينكر فى وضع
أساس المعهد الاحمدى المشهور فى أيامنا هذه .

* * *

وثانى منشآت على بك العمارة التى أجزاها بمسجد الاسام الشافعى بالقاهرة (٢)

- (١) الجبرتى ج ١ ص ١٦٨ ، ٤١٩ ، ج ٢ ص ٥ — ٨
(٢) قدم الامام الشافعى الى مصر سنة ١٩٩ هـ وقيل ٢٠١ هـ (٨١٦ م) وتوفى ٢٠٤ هـ
(٨١٩ م) ، وكان صلاح الدين الأيوبى يجله فى تربة له سنة ٥٧٢ هـ (١١٧٦ م) ،
وجاء الملك الكامل بن العادل الأيوبى فى قبة على قبر الامام ٦٠٨ هـ (١٢١١ م) الى جوار
المدرسة الصلاحية ، حتى جاء قايتباى سنة ٨٨٥ (١٤٨٠) فجدد رخامها وتقوشها ، ثم
أصلحها الفورى . وقام عبد الرحمن ككتخدا بتجديد المدرسة ١١٧٦ هـ (١٧٦٢) ومن بعده
على بك . أما بناء المسجد الحالى فيرجع الى عهد توفيق باشا ١٣٠٩ (١٨٩١ م) .

إذ أمر بتجديد خشب القبة — وكان منذ القرن الخامس الهجرى على عهد الملك الكامل الأيوبي — ثم كساه بالحديد المسبوك ، وجدد نقوشها من الداخل بالذهب واللازورد ، وطلاها بالألوان الزاهية أغلبها اللون الذهبي على أرضية خضراء ، وجميع النقوش الموجودة بالقبة الرئيسية الحالية عدا الكتابات الأندلسية علمت بأمر على بك الذى لا ينكر فضله فى المحافظة على الكتابة الأصلية بالقبة من أعلا .

وقد ضمن النقوش برقبه القبة تاريخا شعريا منظوما مكتوبا بالخط النسخ الجميل يبدأ بالبسملة وبعض آيات من القرآن ذكر بعدها النص الآتى :

أمر بتجديد هذه القبة المباركة على التخصيص وتشديد أفنان وضعها بفنون
النقش والترصيص عزيز مصر وحاكمها ، من ثبت احكامه فى أقاليمها ومعالمها ،
المتوكل على الله ، مولانا القائم فى الرعية بما يحبه ويرضاه ، على الاسم والقدر
والجاء ، الحاكم بأمر الله ، أيد الله بالنصر لوائه ، وخلد عزه وبقائه ، وخذل
أعداده وأعدائه ، وبلغه قصده ورجائه ، أنه الملك اللطيف بركة صاحب هذا
المقام الشريف وذلك فى افتتاح سنة ست وثمانين ومائة وألف من الهجرة أدام
الله عزه ونصره » (١١٨٦ هـ — ١٧٧٢)

هذا عدا بعض إصلاحات أخرى بمتعلقات المسجد ، مثل ما فعل بالميضأة
التي كان قد بناها عبد الرحمن كتحدا فإنه هدمها وبنى أخرى مستطيلة متسعة ،
حولها حنفيات الماء وكراسى الراحة المتسعة .

* * *

وكانت العمارة الثالثة قصره بالأزبكية داخل درب الشيخ عبد الحق السنباطى
بالقاهرة فى المكان الذى تشغله دار الأوبرا الملكية . ولا يزال الشارع القريب
منها يسمى باسم شارع سيمى عبد الحق السنباطى . وكان القصر يطل على بركة
الأزبكية ، الحق به حوش وساقية وطاحون وسكنته من بعده الست نفيسة
مستولده ، وقد ذكر على هامش وقفيته بتاريخ غاية شعبان سنة ١٢٨٠ هـ

ما يشير إلى أن هذا السكن ، صار في تواجر وانتفاع اسماعيل باشا والى مصر حالاً (١) ؟!

أما الرابعة فمبانياته المتعددة قرب شاطئ النيل ببولاق قريباً من وكالة الخطب تحت ربح الخرنوب ، وهى عبارة عن قيسارية عظيمة يباين أحدهما شمالى (بحرى) والآخر جنوبى (قبلى) . وخان عظيم تعلوه مساكن من الجهتين بخارجه حوانيت وشونة غلال على شاطئ النيل ويتوسط الجميع مسجد . وكانت متينة الأساس بنيت على خنازير كالمنازل ، وجعل أساسها من المونة والدبش والأحجار ، وكان ذلك فى سنة ١١٨٥ (١٧٧١) ، وانتهى العمل فيها بعد وفاة على بك (٢) .

أما التحصينات التى كان قد أقامها بالاسكندرية وغيرها من الثغور ، فلم يبق منها أثر . هذا ويروى بعض المؤرخين أن على بك بعد أن أصلح مقياس الروضة رنا ببصره إلى الجيزة وفكر فى فتح الهرم الأكبر (٣) . أكبر الظن ليحصل على ما عساه يكون بداخله من كنوز موفورة . كما طمع أن يخلد اسمه بشق قناة تصل البحرين الأبيض والأحمر ولكن انشقاق أبى الذهب عليه لم يسمح له بتحقيق هذه الأمانى .

* * *

الجيش

والتغير الذى أحدثه على بك فى الهيئة الحربية كان تغييراً طفيفاً ، ولكنه لم يعد يعتمد اعتماداً كبيراً على الأوجاقات العثمانية كهيئة حربية ابتداء من سنة ١٧٦٩ .

(١) حجة وقف الست نفيسة قادن بنت عبد الله البيضاء مستولدة الأمير على بك الكبير

رقم ٦٧ ج ١ أهلى بوزارة الأوقاف .

(٢) الجبرقى ج ١ ص ٣٨٢ - ٣٨٣

(٣) Lusignan : P. 39

وقد أشرنا من قبل إلى أنه في سبيل تدعيم مركزه أراد أن يقضى على نفوذ الأوجاقات العثمانية ، حتى يأمن جانبها ويقبض بذلك على عصب الديوان . واتبع في سبيل ذلك عدة طرق كان أحصاها اهلاك بعضهم في الحروب الداخلية كما فعل عندما وجه الفرق لقتال كشمكش بك قرب سمنود ، ومنها نفى كبار ضباطها ومصادرة أموال غيرهم أو إعدامهم (١) ، ومنها أيضا منع العناصر غير المرغوب فيها من بين ضباطها من التزام الأراضي . ولما كان معظم رجالها من التجار والصناع والمترمين ، التحقوا بها بقصد حمايتهم أو تنفيذ بعض أغراضهم الخاصة مستغلين اتبائهم لها ، ولما كان استقرار الأمن وسيادة العدل في عصر على بك يحولان دون تحقيق تلك الأغراض غير الشرعية فقد انفصل عن الفرق معظم رجالها (٢) .

ونحن إذ نقرر هنا أن على بك اتبع مختلف الأساليب لأضعاف الحماية العثمانية ، لا يمكننا أن نجزم بأنها ألغت أو حلت في عهده كما يدعى المؤرخون فان وثائق العصر تدلنا على أنه ، وإن لم تكن الأوجاقات في عهده هيئات قوية منظمة ، فانها كانت موجودة على كل حال . وقد ثبت لنا من دراسة دفاتر الجراية والعليق سنة ١١٧٤ ، أن أغوات فرق الكوكلويان والتفكيجيان والجراكية والمستحقظان والعزبان كانوا يتقاضون جراية وعليقا على النحو الآتي : (٣)

« جماعت أغايان ٥ بلوك »

(١) الجبرتي ج ١ ص ٢٥٩ ، ٣٠٨

(٢) ذكر الرحالة بيرى Perry Part 3 P. 155 عدد الأوجاقات حوالى سنة ١٧٤٠ : من ٦ — ٧ آلاف يكيجريان ، ٣ — ٤ آلاف عزبان ، ألف متفرقة ، ألف جاوشان ، ٥٠٠ لكل من الفرق الثلاثة الأخرى ولعدم وجود الدفاتر الخاصة بهم في عصر على بك . لا يمكننا ذكر بيان مفصل عن عددهم في عهده .

(٣) دفتر جراية وعليق خدمة الديوان سنة ١١٧٤ رقم ٥٥/٦٢ مخزن تركي ص ٤

١ — اغاء كوكلويان ح ١٣ ط ١٤ — ش اردب ٢٩ ط ٢١ (أى ١٣ اردب حنطه و ١٤ قيراط ٢٩ اردب شعير و ٢١ قيراطا)

٢ — اغاء تفنكچيان ح ١٣ ط ١٤
ش اردب ٢٩ ط ٢١

٣ — اغاء جراكسه ح ٨
ش اردب ١٢

٤ — اغاء مستحفظان ح ٨
ش اردب ١٢

٥ — اغاء عزيان ح ١٠
س اردب ١٠ — كل ثلاثة شهور

ثم أن دفاتر « مرتبات دباغ خانه لسنة ١١٨٥ تشير إلى وجود فرقة جاوشان مرتباتها وجرايتها على النحو الآتى (١)

« مسموح مرتب خانه جاوشان »

في يوم عدد ٦ فية باره ٣٢٠

في شهر » ٩٦٠٠

في سنة » ١١٥٢٠٠

جلود عدد ١٨٠ منها جاموس ١٣٥ أنوار عددها ٤٥ اسقاط ١٨٠ كما أن دفاتر الجراية والعليق لسنة ١١٨٦ هـ (١٧٧٢) تشير إلى وجود أمراء الجراكسة وفرقة عزبان. (٢)

* * *

(١) دفتر مسموح مذكورين مع مرتبات بدل مسموح عن حلول مقاطعة دباغ خانه سنة ١١٨٥ رقم ١٣٣/٥٥ مخزن تركى .

(٢) دفتر جراية اسيان جماعت كشيدة ديوان واجب ماه جمادين ١١٨٦ رقم ١٢٦/٥٥ مخزن تركى ، دفتر جراية جماعت واجب ماه محرم وصفر سنة ١١٨٦ رقم ١٣٤/٥٥

هذا وقد عثرنا على دفاتر مرتبات عساكر القلاع كاملة في العصر السابق
العلي بك وفي أثناء عصره ، وبالمقارنة بينهما وجدنا أن على بك ترك كل شيء
على ما كان عليه ، فلم يغير في عدد الحراس أو أشخاصهم أو رواتبهم أو نظام
دفع تلك الرواتب .

كما أنه لم يزد عدد القلاع . وهذا لا يتعارض مع قول الجبرتي بأنه حصنها
وخاصة قلعتي الاسكندرية ودمياط .

والاختلاف الوحيد الذي لاحظناه يعني تعديلا هاما مقصودا وهو احوال
حامية من المستحفظان محل حامية العزبان التي كانت مختصة بحراسة ترسانة اسكندرية
وقد نص في الدفتر على ذلك التغيير نصا صريحا . وهذا يعني بلا شك وثوق على
بك من اوجاق مستحفظان وشك في إخلاص العزبان .

وفيا يلي ثبت بهذه القلاع وعدد حراسها ومرتباتهم في عامي ١١٨١ هـ نقلا
عن « دفتر مرتبات مردان القلاع التابعة لمخروسة مصر ١١٧١ رقم ٥٥/١١٦
مخزن تركي » . وفي عام ١١٨٥ نقلا عن « دفتر أرقام قلاع در توابع مخروسة
مصر واجب ١١٨٥ رقم ٥٥/١٣٢ مخزن تركي » .

١ — قلعة اسكندرية

سنة	العدد	المرتب اليومي
(أ) ١١٨١	٤٥٤	١٩٩٨ عثمانى (العثماني ١/٢ باره)
(ب) ١١٨٥	٤٥٥	١٩٩٦ «

٢ — جماعة ترسانة عزبان اسكندرية ومتفرقة ترسانة عزبان

سنة	العدد	المرتب السنوي
(أ) ١١٨١	٣٣٣	١٦٥٨ عثمانى نقره (النقرة ١/٢ عثمانى)
(ب) جماعة ترسانة مستحفظان اسكندرية امد عن عزبان (أي بدلا من عزبان)		
١١٨٥	١٣٨	١٤٨٤ نقرة ٤

٣ — جماعة مردان قلعة برج مصطفى باشا .
المرتب اليومي العدد

عثماني	٢٧١	٩٧	١١٨١	(١)
"	٢٧١	٩٧	١١٨٥	(ب)

٤ — جماعة مردان قلعة ركن اسكندرية

"	٧٤٤	٢١٦		(١)
"	٧٤٤	٢١٧		(ب)

٥ — جماعة مردان قلعة أبو قير

"	٦٤٩	١٤٣		(١)
"	٦٤٩	١٤٣		(ب)

٦ — جماعة مردان قلعة رشيد

"	٤٤٥	٢٠٣		(١)
"	٤٤٥	٢٠٥		(ب)

٧ — جماعت مردان قلعة صاري أحمد

"	٣٠٣	١٢١		(١)
"	٣٠٢	١٢١		(ب)

٨ — جماعت مردان قلعة البرلس :

عثماني	٤٥٩	٢٠٠		(١)
"	٤٥٩	٢٠٠		(ب)

٩ — جماعت مردان قلعة دمياط :

"	٤٢٠	١٠٩	١١٨١	(١)
"	٣٢٠	١٠٩	١١٨٥	(ب)

١٠ — جماعت مردان قلعة عبد الصمد :

"	٣٧٤	٨٢		(١)
"	٣٨٤	٨١		(ب)

١١ — جماعت مردان قلعة التينة :

العدد	المرتب اليومي	
(١) ١٢٢	٤٥٠	عثمانى
(ب) ١٢٢	٤٥٠	»

١٢ — جماعت مردان قلعة عريش :

(١) ١٦٥	١١٤٠	»
(ب) ١٦٣	١١٤٠	»

١٣ — جماعت مردان قلعة خان يونس (فى الطريق إلى الشام)

(١) ١٤٣	١٣٨٠	»
(ب) ١٣٩	١٢٧٠	»

١٤ — جماعت مردان قلعة قرين :

(١) ٣٥	١٤٧	»
(ب) ٣٥	١٤٧	»

١٥ — جماعت مردان قلعة عجرود (فى الطريق بين القاهرة والسويس)

(١) ٥١	١٣١	»
(ب) ٥٦	١٣١	»

١٦ — جماعت مردان قلعة السويس :

(١) ١١٨١ ٥٣	١٧٠	»
(ب) ١١٨٥ ٥٣	١٧٠	»

١٧ — جماعت مردان قلعة طور مبارك :

(١) ٢١	١٤٣	»
(ب) ٢١	١٤٣	»

١٨ — جماعت مردان قلعة مويلىح :

(١) ٥٤	٣٢٨	»
--------	-----	---

العدد	المرتب اليومى	
(ب) ٥٤	٣٢٨	عثمانى
١٩ — جماعت مردان قلعة قصير الشامى :		
(١) ٦٧	٦٠٢	»
(ب) ٦٧	٦٠٢	»
٢٠ — جماعت مردان قلعة أسوان :		
(١) ٨٨	٧٨٣	»
(ب) ٨٨	٧٨٣	»
٢١ — جماعت مردان قلعت ابريم :		
(١) ٥٥	٣٨٥	»
(ب) ٥٦	٣٨٥	»
٢٢ — جماعت مردان قلعة ساي (فى الطريق بين قنا والقصير)		
(١) ٩١	٦٧٢	»
(ب) ٩٣	٦٧٢	»

✱ ✱ ✱

وفى نفس الوقت كان على بك يكون جيشا كبيرا يعده لحركات الداخل ضد المنافسين والاعراب ، ولمشروعات الخارج من فتوح وإمدادات .
وقد كون جيشه الجديد من قسمين : الأول قوامه الفرق المملوكية الراكبة ، عدتها حوالى ستة آلاف مملوك مدرب عدا تابعيهم من الخدم وغيرهم للتشهيل وخدمة الخيول . أما القسم الثانى فكان من المرتزقة منقسم إلى فرق متجانسة : منهم الأتراك والشوام والمغاربة والمتاولة والدروز والعرب الحضارمة والعرب اليمانية والأحباش والدلاة ، لا يقلون فى مجموعهم عن الإثنى عشر ألفا (١) .
أما السلاح فكان لا يتعدى العميف ، والقدارة ، « القرايينة » ، والرماح مع بعض البنادق العتيقة الطراز ، ومدافع الحصار الصغيرة الحجم .

وأما عن حركة تسيير الجيوش وإدارة دفعة المعركة فلم تكن تنقسم بشيء كثير من النظام . ولكن نظام التكوين الحربى كان وافيا بالغرض منه . ويظهر أن على بك وحد زى مماليكه ، فقد كتب الجبرقى يقول أن على بك ألبس سراجينه قواويق قتلى (بالفاء) من جوخ أصفر تميزا لهم عن غيرهم من سراجين أمرائه (١) . ورغم ما تقدم فانا نلمس فى عهد على بك اتجاهها جديدا فى الفن الحربى المصرى هو الاهتمام بفنون الحصار والمدفعية وخاصة مدافع الحصار ، كما تبينت أهمية الأسطول البحرى فى العمليات المشتركة بين البر والبحر . يظهر ذلك فى حصار يافا ، كما يظهر فى رغبة على بك فى التحالف مع روسيا والحاحه فى طلب مدافع الحصار وضباط أكفاء لاستعمالها ، مما سيكون له أثر ينمو على طول الزمن فى العصور التالية على نحو ما سنبينه فى موضعه .

الفصل الثاني

مسألة التجارة والطريق البرى

تجارة مصر الخارجية — مسالك التجارة — نشاط
الفرنسيين — محاولات الانجليز — احياء الطريق
البرى فى عهد على بك الكبير .

التنافس الدولى على مسالك التجارة بين الشرق والغرب يبدأ مع كشف
طريق رأس الرجاء الصالح ١٤٩٨ . والمحاولات التى تمت فى عهد على بك ١٧٧٠ م
وما بعدها حلقة فذة من حلقات ذلك التنافس ، تختم مرحلة طويلة وتبدأ مرحلة
أخرى حاسمة .

تجارة مصر الخارجية

إن موقع مصر الجغرافى فى قلب الدنيا القديمة وسط افريقية وأوروبا وآسيا ،
التي تمثل مراكز الانتاج والصناعة والاستهلاك ، ووقوعها فى أضيق بقعة بين
البحرين الأبيض والأحمر جعلها محطاً هاماً للتجارة الخارجية ، ترد إليها
براً وبحراً .

فوردت إليها بضائع الهند والشرق الأقصى من أقمشة حريرية وكافور
وجواهر وتوابل وعقاقير وأعشاب طبية وعطور وشيلان حريرية وبعض
مساحيق الصباغة والافاوية — ومن بلاد العرب ورد بن اللين ، الذى اكتسب
شهرة عالية ، والخناء والبخور — وأرسلت فارس اللالىء والسجاجيد عن
طريق البحر الأحمر .

ومن الحبشة عن طريق سنار ومحاذة النيل ومن السودان بطريق القوافل
من دارفور إلى الواحة الخارجية فأسيوط وردت إلى مصر خبراتها من تبروسن

فيل وریش نعام وأبنوس ومسك و صمغ و جلود غير مدبوغة وآلاف العبيد السود والبيغاءات . كما وردت قوافل من بلاد المغرب ومراكش والسنغال عبر الصحراء تحمل البلمح وبعض المصنوعات الجلدية والصوفية إلى مصر . ومن سوريه جاءت قوافل دمشق تحمل الأقمشة الحريرية والزيت والفواكه ، ووصلت سفنها إلى دمياط تحمل الأخشاب والفواكه ، طازجة ومجففة ، والطباق . كما وصلت الاسكندرية سفن العثمانيين تحمل الملابس والأسلحة والفراء والريق الأبيض والزيت والصابون وبعض أنواع اثار القشرية .

وكانت لمصر تجارة نشيطة مع أوروبا فاستوردت من فرنسا المنسوجات الدقيقة والجوخ والمصنوعات المعدنية والأسلحة . ومن ايطاليا وبخاصة البندقية وليفورنة : الملابس المطرزة والمرابا والبللور والزجاج . ومن ألمانيا استوردت الخزف والمصنوعات المعدنية وبخاصة الحديدية والزجاجية والورق وبعض الأدوية .

وكانت مصر تصدر معظم ما تستورده من الشرق إلى أوروبا ، وتزيد عليه بعض مصنوعاتاها ، كما كانت تصدر بعض هذه المنتجات الزراعية وواردات أوروبا إلى السودان وجدة والهند .

أما أهم المنتجات التي أشرنا إليها فكانت : الأرز والقمح والبقول الجافة والقطن والسكر والنطرون وملح البارود وخيوط الغزل ، وبعض المنسوجات التيلية ، التي كانت تصنع بدمياط وتروج في البندقية والجهورن ومرسيليا ، وبعض الأقمشة السميكة التي كانت تروج في فرنسا وإيطاليا واليونان وسوريا والأناضول . ويلاحظ أن الأرز وملح البارود كان يباح تصديرهما إلى بلاد الدولة العثمانية فقط . وأن الميزان التجاري بين مصر والهند كان في غير صالح مصر ، أي أن قيمة الواردات من الهند كانت أكبر من قيمة المصدر لها من مصر ، وهذا بخلاف الحال مع أوروبا والدولة العثمانية . وهكذا استطاعت السوق المصرية أن تظفر بكميات كبيرة من العملة الأجنبية .

فالمصادرات المصرية إلى فرنسا مثلاً في سنة ١٧٨٤ كانت قيمتها ثلاثة ملايين من الفرنكات تقابلها واردات قيمتها مليوناً ونصف من الفرنكات (١) ، وكان الفرق يدفع عملة أجنبية أسبانية أو هولندية أو من البندقية .

مسالك التجارة بين الشرق والغرب :

الناظر إلى مصور للدنيا القديمة يلاحظ أول طريق للقوافل يحمل خيرات الشرق عبر آسيا الوسطى إلى فارس ثم الأناضول ، حيث الأسواق التي توزع منها المتاجر إلى سائر الأنحاء . ثم هو يلاحظ الذراعين اللذين تمدهما آسيا نحو أوربا ، وهما الخليج الفارسي والبحر الأحمر ، ففي أولهما كانت تسير السفن في شط العرب حتى البصرة ثم في نهر الفرات ، ومنه بالقوافل إلى حلب فالاسكندرونة وأزمير .

وحتى سنة ١٤٩٨ كان الطريق الثالث ، وهو طريق البحر الأحمر ومصر ، ينفرد بأهمية من الدرجة الأولى ، فتنتقل البضائع من سورات أو بمباي بالهند ، وتدور السفن حول بلاد العرب ثم تدخل البحر الأحمر حتى السويس ، فتنتقل بالقوافل إلى القاهرة فالاسكندرية ، ثم تتولى نقلها إلى أوربا سفن البندقية وجنوة ومرسيليا . وكانت مصر تجني من مرور التجارة في أراضيها أرباحاً طائلة .

وصادف القرن الخامس عشر عدة عوامل أثرت في أهمية تلك الطرق تأثيراً رئيسياً . فقد حدث في سنة ١٤٩٨ أن تمكن البرتغالي فاسكودا جاما Vasco Dagama من الوصول إلى الهند عن طريق رابع استحدثه بدورانه حول ساحل أفريقيا — الغربي فالجنوبي فالشرقي — وهو الطريق الذي صار يعرف منذ ذلك الحين بطريق « رأس الرجاء الصالح » . وتحولت معظم تجارة الشرق إلى هذا الطريق ،

وأثر ذلك على بقية الطرق تأثيرا سيئا وبخاصة الطريق المصرى .

وعبثا حاولت مصر الاحتفاظ بنشاطها التجارى مع الهند ، حتى تمكنت البرتغال من القضاء على ذلك النشاط خارج البحر الأحمر بتحطيمها سفن الأسطول المصرى تجاه جزيرة ديو الهندية ١٥٠٩ . وأدت هذه الهزيمة إلى أمرين هامين : أولهما القضاء النهائى على أمل مصر حينئذ فى امتلاك أسطول تجارى يصل إلى الهند ، وثانيهما خروج التجارة من يد البنادقة وأهل جنوة ومرسيليا فى البحر الأبيض إلى يد البرتغاليين فى المحيطين الأطلسى والهندي .

ثم حلت سنة ١٥١٧ مع الفتح العثمانى لمصر وحاول السلطان سليم تشجيع تجارة مصر الخارجية فجدد معاهدتها التجارية مع جمهورية البندقية فى فبراير سنة ١٥١٧ . ولكن دون فائدة جدية ، إذ كانت معظم خيرات الشرق قد أخذت طريقها إلى رأس الرجاء . — ثم أخذ نجم أسبانيا فى الظهور حتى تمكنت سنة ١٥٨٤ من السيطرة على البرتغال وانشأت عمارة بحرية جبارة بعزم تحطيم الأسطول الانجليزى الفتى . ولكن انجلترا تمكنت من تحطيم الأرمادا الاسبانية سنة ١٥٨٨ ، وقضت نهائيا على أحلام الأسبان بالسيطرة على البحار . ونلاحظ أن هذه الضربة التى أصابت أسبانيا عززت النكسة التى انتابت الطريق المصرى بعد انكسار السفن المصرية فى معركة ديو البحرية . ذلك ان انجلترا تحمست للطريق الجديد وبذلت غاية جهودها فى تمهيده وذلك بترقية سفنها وآلاتها .

وبأى القرن السابع عشر فوجد النشاط التجارى فى البحر الأبيض محدودا لقلة النشاط التجارى فى البحر الأحمر . وعلى العكس من ذلك نشاهد تحمس الانجليز لطريق رأس الرجاء مع محاولتهم نزع مستعمرة الرأس من هولنده (١) . يقابل ذلك تحمس الفرنسيين للطريق المصرى . والحوادث التى دارت حول هذا

الموضوع من أوائل القرن السادس عشر حتى قيام على بك بثورته مظهر من مظاهر التنافس بين الدولتين .



نشاط الفرنسيين في مصر :

وان كان نشاط الفرنسيين في مصر تغلب عليه الصبغة التجارية ، إلا أنه لا يخلو من ناحية سياسية . ونحن نسهل علينا تتبع هذا النشاط إذا درسنا جهود الرجال الفرنسيين المسؤولين في وزارات الخارجية والبحرية ، وفي السفارة الفرنسية بالاسكندرية . ثم مقترحات القناصل والتجار الفرنسيين بالقاهرة . ذلك لأن فشل فرنسا في منافسة الهولنديين والانجليز في المحيطين الأطلسى والهندي دفعها إلى التفكير في تحويل تجارة الشرق إلى طريق آخر غير طريق رأس الرجاء وظهر في وزارة الخارجية الفرنسية اتجاهان : أما الاتجاه الأول فنعنى به استخدام الطريق المصرى .

ولكن أساس تفكير الحكومة الفرنسية في هذا السبيل لم يكن تشجيع التجارة ، إنما كان أساسه قائما على القضاء على طريق رأس الرجاء ، وبالتالي على نفوذ هولانده وانجلترا . ففكر الوزير الفرنسى كبير Colbert مثلا في ان « هولنده يمكن قهرها عن طريق مصر بسهولة أكثر من قهرها في أملاكها ، وبذلك يمكن تجريدتها دون صعوبة مما يسبب ازدهارها ، أعنى خيرات الشرق (١) » .

وتبع ذلك اهتمام الحكومة بأمور الجالية الفرنسية بالقاهرة وكلهم من التجار ، ووكلت بذلك الغرفة التجارية بمرسيليا ، فصدرت مراسيم ملكية بتاريخ ٢١ أكتوبر سنة ١٦٨٥ تحرم مغادرة فرنسا للتجار في اللفتت إلا بتصريح من الغرفة .

وفي سنة ١٧٠٠ حددت السن الأدنى لمن اراد الهجرة للتجارة بخمسة وعشرين عاما ، وفي سنة ١٧٣١ حددت مدة الإقامة في الخارج بعشر سنوات فقط زيدت في عام ١٧٤٨ إلى خمسة عشر عاما . ولكن الحكومة الفرنسية لم تكن تشجع فكرة تكوين اسر فرنسية بالقاهرة بل على العكس حرمت هجرة الفرنسيات من زوجات التجار وغيرهن بقانون ١١ اغسطس سنة ١٧١٦ وعززته بقانون ٢٠ يولية سنة ١٧٢٦ (١) .

وكان طبيعيا أن يتشجع التجار الفرنسيون بالقاهرة لفكرة إحياء الطريق البرى المصرى فغمروا وزارة الخارجية الفرنسية بمقترحاتهم في هذا الموضوع ؛ وألهم يرجع كل الفضل في اهتمام الحكومة الفرنسية بهذه المسألة . بل أن جميع المقترحات الهامة التى نفذ معظمها فيما بعد إنما جاءت من ناحيتهم .

ففي ١٦٥٩ اقترح چاك سافارى Jacques Savary على الوزير كبير تمهيد الطريق البرى ، وذلك باستئذان الباب العالى في حفر قناة السويس إلى دمياط . وقام كبير بدراسة شاملة لتجارة الهند والدول التى قامت بنقلها ، وتبين أن تلك التجارة كانت سببا في قوة تلك الدول المادية والحريية ، فقدم مقترحات إلى « مجلس التجارة Conceil du Commerce » ١٦٦٤ احتفظ فيها لمصر بدور رئيسى في مشروعه لانهاش التجارة . والتمس من الملك لويس الرابع عشر Louis XIV تأسيس شركتين تجاريتين أحدهما تسكمل الأخرى : شركة الهند الشرقية الفرنسية لنقل المتاجر من الهند حتى مصر ، والثانية شركة اللقنت لنقلها من مصر إلى أوربا (٢) .

وكانت العوائق التى حالت دون تمام الاستفادة من الطريق المصرى تتخلص

(١) Deherain, Chap. II. p.p. 177 - 179.

(٢) تأسست فعلا شركة فرنسية باسم « شركة الهند الشرقية » ١٦٦٤ ولكنها توقفت

عن العمل وألغى امتيازها ١٦٦٩ بسبب عدم تحقق تكوين شركة اللقنت .

Charles - Roux le Projet Fr. pp. XIII - XIV.

في احتكار العثمانيين للملاحة في البحر الأحمر من جده إلى السويس ، بدعوى أن مرور السفن الأوروبية يندس حرمة البلاد المقدسة الإسلامية ، ويهدد سلامتها . كما أن « بحر السويس » كان مكرسا للحج إلى مكة . وثغره هو ميناء المدينتين اللتين يشع منهما نور الهدى وشرعة الرسول ... مكة المكرمة والمدينة المنورة ، لذلك كان « السماح لهذه السفن بالملاحة أو مساعدتها وعدم منعها خيانة للدين والسلطان والمسلمين قاطبة ، عقابه الخزي في الدنيا والآخرة (١) . »

وما كان يدفع السلطان إلى عدم الموافقة على تلك الفكرة معارضة باشاجدة وشريف مكة وأصحاب السفن من تجار المسلمين ، كما كان التجار المصريون ومعظمهم من ضباط البكيجرية أو العزب أو من في حمايتهم يعارضون في انتقال التجارة إلى يد الأجانب ، رغم ما كانت تلك التجارة ستدره عليهم من أرباح طائلة لأن الترك كما قال دى ماويه يحبون حاضرهم أكثر من مستقبلهم . وعندهم « بيضة اليوم خير دن دجاجة الغد . (٢) »

كما أن السلطان عندما رأى كثرة اهتمام الفرنسيين والانجليز بتمهيد هذا الطريق المباشر اعتقدانهم « انما يتكبدون المشاق بالسفر برا وبحرا ، ويصورون المصورات للبلاد التي يعمرون فيها . حتى إذا حان الوقت المناسب استخدموها في فتح تلك البلاد كما فعلوا في الهند وغيرها . » (٣)

أما العقبة للكبرى فكانت عدم ثبات أحوال مصر ، وضعف النفوذ العثماني بها ، مع استبداد بكوات المماليك وعدم اعتبارهم للتجار الأجانب أو أية هيئة أخرى . وفكر الفرنسيون في التغلب على العقبة الأولى باستخدام الطريق المصري بعد الاستعاضة عن مرحلة « جدة — السويس » بالمرور من الحبشة

(١) من ترجمة فرمان سلطاني ذكره الضابط الانجليزي هنري روك .

Rooke : Travels. . . pp. 215 - 222.

De Maillet. pp. 201 - 202. (٢)

Rooke, Travels. . . . p. 218. (٣)

ومنها برا إلى مصر ، وعلى هذا الأساس أرسل الوزير بون شارتران
Le Noir du Roule سفيره المسيو لي نواردى رول
إلى نجاشى الحبشة .

ولسكن قنصل فرنسا فى مصر المسيو دى ماييه Beniot de Maillet بين
العقبات التى تحول دون تذليل طريق الحبشة وفضل عليه الطريق المصرى وضمن
مذكراته ١٦٩٧ — ١٦٩٨ « مشروعا لربط تجارة أوروبا مع تجارة آسيا عن طريق
البحر الأحمر . » « Projet pour la jonction du Commerce de L' Europe
avec celui de L'Asie par le moyen de la Mer Rouge. »
ولسكنه فى نفس الوقت أشار بصراحة إلى « الخطر الذى ستعرض له مصر من
حفر القناة ، وذلك من جانب الدول الأوروبية التى تهمها تجارة الهند (١) »

وبسبب ذلك الفشل السياسى وتلك العقبات التى لا يمكن تجاهلها فكر
الفرنسيون فى الاتجاه الثانى وهو يرمى إلى إحياء طريق التجارة القديم الذى
يبدأ من الخليج الفارسى إلى الفرات ثم حلب فالاسكندرونة أو أزمير . وتشجيع
الرجال المسئولون لهذا رأى ، ووجهت بعثات إلى فارس نفسها لدراسة المشروع
ومباحثة شاه العجم ، كان أهمها بعثة جان بابتيست فابر Jean Baptiste Fabre
بين ١٧٠٢ — ١٧٠٤ ، ثم بعثة المستشرق أوتو Otter سنة ١٧٣٤ ، وأخيرا
عندما وجه سفير فرنسا فى تركيا أحد القناصل وهو الماركيز دى فيلينييف
le Marquis de Villeneuve إلى البصرة ١٧٣٨ بقصد توثيق الروابط
مع فارس . (٢)

* * *

هكذا بدأ القرن الثامن عشر واهتمام الحكومة الفرنسية عوجه إلى فارس

(١) De Maillet : Description de L'Eg, pp. 200 - 202.

(٢) Charles - Roux ; Le Projet, Français. . . p. XIX. & Masos n ; pp.

والخليج الفارسي أكثر من مصر والبحر الأحمر ولكن جدت في خلال ذلك القرن عدة عوامل قلبت هذا الاتجاه ، وجعلت مصر والطريق المصري في المقدمة ، وموضع تفكير الحكومة الفرنسية الجدى ومشار اهتمام جميع الهيئات الرسمية وغير الرسمية .

أهم هذه الاعتبارات تدهور الدولة العثمانية ونشوء فكرة تقسيمها . ورغبة فرنسا في الاحتياط والاستعداد لذلك إذا قدر حدوثه . والاعتبار الثانى توسع الانجليز في الهند وتفكير فرنسا جديا فى القضاء على نفوذهم وتجارتهم ، والاستيلاء على ممتلكاتهم فى الهند لو أمكن ذلك .

كل هذا جعلهم يفكرون فى أقصر الطرق الموصلة إلى الهند وهى مصر . وأصبحنا نصادف فى جميع التعليمات الصادرة من وزارة الخارجية الفرنسية تقريرا بالاشارة إلى أهمية هذا الطريق وضرورة الاستفادة منه . ولكن تقارير شتى وصلت إلى الحكومة الفرنسية من قناصلها وسفرائها وكما تجمع على استحالة الاستفادة من هذا الطريق ما دامت مصر تابعة للدولة العثمانية .

فى تعليمات حكومة الملك لويس الخامس عشر المبلغة إلى المستشرق « اوتر » قبل سفره إلى فارس سنة ١٧٣٤ يؤكدون انه إذا لم يكن الترك أصحاب السيطرة على البحر الأحمر ، لأصبح هذا البحر بكل تأكيد أحسن طريق لتجارة الهند « بل وفكروا فى الاستعاضة به عن طريق الخليج الفارسي ، وطلبوا من اوتر ان يبحث « عما إذا كان هذا الطريق يصلح لنقل تجارة فارس بدل طريق ازمير وحلب (١) » .

وبعد خمس سنوات عاد الشفالية جونا Le Chevalier Jauna مستشار الامبراطورة ماري تيريز النمساوية Marie-Thérèse من رحلته بمصر فكتب من فينا بتاريخ ٢٠ مايو سنة ١٧٣٩ يقترح على فرنسا « فتح مصر وفلسطين وجزيرة قبرص »

فتملك ناصية العالم وتتحكم في تجارة الهند ، وذكر أنه وضع أساس ذلك الاقتراح في القاهرة بالاشتراك مع القنصل دى ماويه (١) .

واقترح المسيو دارجنسون D'Argenson في مذكراته سنة ١٧٤٠ ، قبل أن يصبح وزيرا ، القيام بحملة صليبية دولية لفتح مصر ، وحفر قناة تديرها هيئة دولية فقال «في المشروع الصليبي الذي اقترحه مستحصل على مزايا تجارية ، دون مصروفات باهظة . فمثلا يمكن عمل قناة للتجارة بين بحر اللفنت والبحر الأحمر ، على أن تكون هذه القناة ملكا لجميع الدول المسيحية » .

وفي سنة ١٧٤٧ أصبح الشفالية جونا « مراقبا عاما للتجارة » في المستعمرات النمساوية ، وحينئذ قدم للامبراطورة كتابه « تاريخ عام لممالك قبرص ويدت المقدس وأرمينية ومصر » وألحق به فصلا عن « احوال مصر الحاضرة ومباحث في طرق فتح مصر وقبرص » . وقد أكد فيه أنه يستحيل حفر القناة ، او احياء طريق البحر الأحمر ما دامت مصر لتركييا .

وفي سنة ١٧٥١ عاد القس فورمنت L'Abbé Fourmont من رحلته في مصر (٢) . وقال ان حفر قناة تصل السويس بالبحر الأبيض مشروع في حين الإمكان ويجعل مصر مستودعا لثروة الشرق ، ولكن يجب لنجاح ذلك المشروع ان تكون مصر في غير يد الدولة العثمانية .

ثم ان القنصل الفرنسي في القاهرة المسيو دى ليرنكورت De Lironcourt اشار إلى استحالة المشروع ما دامت حكومة مصر على ما هي عليه من فوضى واضطراب وعدم استقرار ، وكان قد زار الأستانة في يناير سنة ١٧٥١ وعثر في سجلات السفارة الفرنسية هناك على ابحاث عن فكرة وصل للبحرين ، ونقل متاجر الهند عن طريق البحر الأحمر ، فلما عاد إلى القاهرة كتب إلى وزارة

(١) كان دى ماويه قد توفي في العام السابق ١٧٣٨ برسيليا في سن الثمانين .

(٢) أمضى في رحلته ثلاث سنوات وكان غرضه الأساسي دراسة الآثار في أيام القنصل

دى ليرنكورت .

الخارجية الفرنسية تقريراً بتاريخ ٩ فبراير سنة ١٧٥١ قال فيه : « أن احترامى للوزراء الذين تشيعوا لتلك الفكرة ، واعتقدوا أنها عملية أو ممكنة ، يقتضى أن أبين الأسباب التى جعلتني أحكم باستحالتها فان شكوك أهل مصر ، ومعتقداتهم الباطلة وهمجيتهم ، مضافة إلى طغيان الحكومة وجبروتها وعدم أستقرارها ومساوئها ، كل ذلك يحيط المشروع بسياج من الاستحالة ويلقى عليه ظلا من السخرية . . . (١) » .

وفى تقرير آخر أشار إلى المغارم الفادحة التى كان يدفعها التجار لأولى الأمر فى مصر ، والإذلال الذى كانوا يلاقونه منهم قال : « ويجدر بي الا أخفى عن معاليك أن الأقلية من التجار الفرنسيين هم الذين أسعدهم الحظ بالعودة من مصر إلى فرنسا دون أن يكونوا قد جلدوا . . . (٢) » .



والجدير بالذكر أن نظرة التجار الفرنسيين بالقاهرة كانت عملية وتلائم الحالة الموجودة بمصر فعلا بدرجة أكثر من نظرة الوزراء الفرنسيين وسفرائهم بالأستانة .

ففى سنة ١٧٦٥ تقدم تاجر فرنسى بالقاهرة من أهل مرسيليا اسمه مينار Meynard إلى وزير البحرية الدوق براسلان Duc Praslin باقتراح عملى أوحاه إليه الهدوء الذى ساد مصر فى عهد شياخة على بك وأساسه الاستفادة من الطريق المصرى ، وذلك بالاتفاق مع السلطات المصرية دون أى اعتبار للحكومة الباب العالى بعد أن انفردت مصر بتدبير مشونها بنفسها إلى حد كبير .

كما اقترح فى الوقت عينه أن تتولى السفن الأوربية — لا العثمانية — نقل المتاجر إلى السويس فقال : « أن نقل المتاجر من جده إلى السويس يشغل فى الوقت الحاضر من خمسة عشر إلى عشرين سفينة تجارية تتراوح حمولتها بين

تسعمائة وألف طن ، ولكنها رديئة البناء سيئة التجهيز والقيادة لدرجة أنه زيادة على أنها لا تقوم في السنة إلا بسفرة واحدة فأنها قد لا تصل أحيانا إلا للطور ، إذا لم تكن ريح الجنوب من القوة بحيث تدفع بها إلى السويس فتبقى هناك انتظارا لموسم الخمسين التالي . وهذا ما حدث هذا العام وحدث ثلاث مرات على الأقل في خلال السنوات العشرة الماضية » .

ولم يكد التاجر مينار يقدم اقتراحه حتى اضطر على بك إلى الفرار من القاهرة على أثر انقلاب مارس سنة ١٧٦٦ المفاجيء . فرد عليه الوزير عن طريق القنصل داميرات D'Amirat بأن مشروعه لا يمكن السير فيه ما دامت حكومة القاهرة غير مستقرة . وفي سنة ١٧٦٧ بعد عودة على بك إلى شياخة البلد تقدم المثري الفرنسي سيماندى Seymandi من تجار مرسيليا بالقاهرة باقتراح مماثل وما طلت الغرفة التجارية بمرسيليا في الرد ، وأخيرارفضت الاقتراح نهائيا بتاريخ ٢٦ ديسمبر سنة ١٧٦٩ (١) .

والمهم في أمر الاقتراحين السالفين الحل الذي عرض لأول مرة وأساسه الاتفاق مع السلطات المصرية مباشرة تفاديا لمعارضة الباب العالي السابقة . ولكن كان يحول دون الاستقادة منهما عدم ثبات حكومة القاهرة . ولهذا بقيت الحكومة الفرنسية في انتظار حكومة مصر به ثابتة مستقرة يمكن الاتفاق معها اتفاقا دائما .

* * *

محاولات الانجليز :

وكان الانجليز في خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر متحمسين جدا لطريق رأس الرجاء ، وخاصة منذ أن أسسوا « شركة الهند الشرقية الانجليزية »

سنة ١٦٠٠ ، والمكاتب التجارية في سورات عام ١٦١٢ ، ومدراس عام ١٦٣٩ ومبماي عام ١٦٦١ ، وكلكتا عام ١٦٩٠ . وتبع ذلك اهتمامهم طريق البحر الأحمر . ولم يوجهوا اهتماما جديا إلى التجار الانجليز القلائل الموجودين بمصر ، بل لم تكن لهم قنصلية بالقاهرة إلا في سنوات ١٦٣٠ ، ١٦٥٤ ، ١٦٥٦ ، ١٦٧١ ^(١) ولكن في أواخر القرن السابع عشر لفت نظرهم نشاط الفرنسيين التجاري في مصر ، ومقدار الأرباح التي افادوها من استخدام الطريق المصري فعولوا على الاستفادة منه أيضا . وعزموا على تأسيس قنصلية دائمة لهم . فاقاموا التاجر الانجليزي فليت وود Fleet Wood قنصلا في سنة ١٦٩٦ . وبفضل هداياه للبasha ورجال الجمارك حصل على اعتماده رسميا في القاهرة . وبذلك جد في مصر ميدان لتصادم الفريقين المتنافسين : الانجليز والفرنسيين .

فقد نشط قنصل فرنسا الميسو دي ماييه يحرض البasha على عدم اعتماد فليت وود الانجليزي . وفي نفس الوقت حاول السفير الفرنسي في الاستانة الميسو كاستنيير دي شاتونيف Castagnères de Chateauneuf ، أن يغري السلطان مصطفى الثاني بعدم الموافقة . ولكن انتهاء الظروف الحرجة التي كانت تواجه الدولة العثمانية في نزاعها مع الامبراطور ليوبلد Léopold II . على أساس عقد معاهدة كارلوفت Carlowitz عام ١٦٩٨ . وبفضل وساطة اللورد باجت Lord Paget سفير انجلترا في الاستانة ، دعا السلطان إلى استصدار « خط شريف » عام ١٦٩٨ يقرر للتجار الانجليز نفس الامتيازات التي سبق منحها للفرنسيين عام ١٦٨٦ ، ومن بينها جمل الرسوم الجركية على البضائع الانجليزية الواردة من السويس إلى الاسكندرية ٣ ٪ .

ووردت الأوامر السلطانية إلى القاهرة بذلك ، فكتب دي ماييه تقريرا بتاريخ ٢٠ أغسطس سنة ١٦٩٨ يقول فيه : « عين الميسو فليت وود قنصلا للجالية

(الانجليزية) . ولقد بذلت غاية جهدى للحيلولة دون ذلك الاستقرار ، ولكن لم يكن من الممكن اغراء الباشا برفض هذه الأوامر في وقت كانت الدولة العثمانية تعترف فيه بفضل الانجليز في جلب السلام مع الامبراطور (ليوبلد الثاني) (١) .

ورغم أن قنصل انجلترا في القاهرة كان له مركز يساوى مركز القنصل الفرنسى ، ويتمتع بمثل امتيازاته ، فإن نشاط الانجليز التجارى عن الطريق المصرى كان محدودا ، ويكاد يكون مقصورا على استيراد البن اليمنى من مخا والأقشة ، التى كانت أقل جودة من الأقشة الفرنسية وان كانت أثبت منها ألوانا . أى يتلخص فى الاستيراد من مصر والتصدير إليها ، ولم تستعمل البحر الأحمر كطريق للتجارة . ويظهر أن شدة المنافسة التجارية مع فرنسا كان له دخل فى هذا الموضوع لأن نشوب حرب الوراثة الأسبانية ١٧٠١ وما سببته من عراقيل للتجارة الفرنسية حد من نشاط الهرنسمين وزاد من نشاط الانجليز التجارى فى مصر ولكن لمدة قصيرة جدا ، كما أن صلح أترخت Utrecht الذى أنهى تلك الحرب ١٧١٤ قلل من ذلك النشاط تدريجيا حتى أن دى ماييه عند ما عاد إلى مصر ١٧١٩ مفتشا عاما لا ساكل اللفنت قرر أن « الجمالية البريطانية بمصر فى ذلك الحين لم تكن تزيد على ثلاثة أشخاص يعيشون فى بدخ ونعيم دون عمل كبير » (٢) ثم أخذ عددهم يتضائل حتى توفى آخر تاجر انجليزى ١٧٥٢ . ولم يبق بمصر سوى القنصل الانجليزى وهذا طلب اعفاءه من منصبه ١٧٦٦ . واقفلت القنصلية أبوابها ، واضمحل النشاط الانجليزى تماما بمصر . وساعد على ذلك انشغال انجلترا فى حرب السنين السبع ١٧٥٦ — ١٧٦٣ ونشاط القرصان الفرنسيين فى البحر الأبيض فى خلال تلك المدة .

ولكن معاهدة باريس ١٧٦٣ كانت نقطة تحول فى نظرة انجلترا إلى الطريق

Charles - Roux ; Autour d'une Route p. 9. (١)

Charles - Roux ; Autour d'une Route, p. 16. (٢)

المصرى ، فإن تلك المعاهدة اطلقت يد انجلترا فى الهند وبدأ مستقبل الامبراطورية الهندية يتقرر بصفة جدية ، وأخذت انجلترا تفكر فى أصلح الطرق للوصول إلى الهند ، لا من الناحية التجارية ، وإنما من الناحية الاستعمارية ، أعنى أقصر الطرق وأصلحها لنقل الرسائل والتعليمات والجنود أن أمكن بين الهند وانجلترا . ولم يكن هناك طريق يفوق الطريق المصرى أهمية من هذه الوجهة . فقد كانت الرحلة من مدراس إلى لندن بالطريق المصرى تستغرق حوالى ثلاثة وستين يوما أى ربع مدة الرحلة عن طريق الرأس تقرىبا .

ولذا بدأ انجليز يهتمون بطريق البحر الأحمر ، وكثرت أبحاثهم فى هذه الناحية وبدأت تظهر مقترحات انجليزية وكلها تحض على وجوب الاستفادة من موقع مصر الجغرافى كحلقة وسط أقصر طريق بين انجلترا والامبراطورية الهندية ، مثال ذلك ما أورده الضابط الانجليزى هنرى روك بقوله « ومن العجيب أن الطريق بين لندن ومدراس لا يستغرق سوى ثلاثة وستين يوما فلا يصح اهماله أن ظهر أن استعماله ممكن . ولكن على كل حال لا أنصح باستخدامه كطريق عادى للمسافرين بل لنقل الرسائل على سفن خفيفة » ثم اقترح على شركة الهند الشرقية حللا مماثلا للحل الذى اقترحه التجار الفرنسيون وسبقت الإشارة إليه ، وهو الاتفاق مع السلطات المصرية وتقديم هدايا سنوية لاولى الامر فى مصر (١)

والشك فى امكان استخدام هذا الطريق كان لوجود نفس العقبات التى كانت تحول دون استفادة الفرنسيين منه على الوجه الأكل ، وأولها تحريم الباب العالى على أى سفينة تابعة لدولة أجنبية أو أبناء الغنى أن يصلوا إلى السويس ولا للانجليز أو سفن غيرهم ، أن تتجاوز جده إلى الشمال .

وقد فكر الانجليز لتذليل تلك العقبة فى نفس الحل الذى فيه فكر الفرنسيون وهو المرور من الحبشة بدل مرحلة جدة — السويس . وهذا هو أحد أغراض

رحلات جيمس بروس الانجليزى James Bruce سنة ١٧٦٨ وبراون Browne ١٧٩٢ . وغيرهما .

وقد كتب براون (١٧٩٢ - ١٧٩٨) فصلا عن أهمية موقع مصر

الجغرافى بعنوان Observatirns on the Situation of Egypt to Commer-

cial Advantages. ضمنه اقتراحا بحضر قوانين : أولاهاما تصل البحرين الأبيض

والأحمر مباشرة . والثانية تصل البحر الأحمر بالنيل؛ ثم أنه أشار فى ختام ذلك

الفصل إلى ما سبق أن تطلع إليه الفرنسيون من ضرورة استقرار أحوال مصر

حتى يمكن الاستفادة من ذلك الطريق قال « ولو أن هذه الأمة دخلت فى حوزة دولة

متحضرة لامكنها جنى الثمار التى يهيؤها لها مركزها التجارى (١) . »

هكذا بقى الفريقان : الفرنسيون والانجليز يترقبون فرصة استقرار أحوال

مصر ، ولم يطل انتظارهم كثيرا .



احياء الطريق البرى المصرى فى عهد على بك الكبير

عندما تولى على بك شياخة البلد للمرة الأولى سلك نحو الأجانب عموما

والفرنسيين خصوصا نفس السياسة التى كان يتبعها أسلافه وهى سياسة الشدة

وعدم الاعتبار مع محاولة ابتزاز الأموال منهم على قدر المستطاع . أشار إلى

ذلك مبعوث السفارة الفرنسية إلى مصر ٧٥٨؛ المسيو مازوليه Mazoillier ،

فكتب إلى وزير الخارجية الفرنسية يبين سوء حال التجار الفرنسية وتخرج

مركزهم من كثرة المغارم والهدايا الاجبارية التى يقدمونها للقباضين على السلطة

فى مصر وأشار إلى امكان تفادى الضرر متى وجد منافس لمن فرض تلك المغارم

إلى أن يقول « أما إذا كان هذا الذى فرض إرادته كبير الزعماء جميعا ، وصاحب

الامر والنهى فى مصر كعلى بك مثلا ، فإنه يكون أشد جراءة وأبلغ ضررا

وأكثر امعانا في البطش بالمسيحيين عموما (١). « كما قرر القنصل الفرنسي دى جوينفيل سنة ١٧٥٧ بأن على بك « من ألد أعدائنا باعتراف الجميع (٢) » واستمر على بك في اتباع تلك السياسة الفاشية حتى ١٧٦٨ ، عندما انفرد بالحكم وأمن جانب منافسيه ، فانما نلس تغييرا جوهريا ، إن لم يكن كليا ، في علاقته بالتجار الأجانب وإذا بالقنصل الفرنسي داميرات يقرر في ٣ ديسمبر سنة ١٧٧٠ أن على بك يرعى التجار الفرنسيين ويحميهم (٣) .

وأمر على بك باتباع نفس السياسة الجديدة في سورية نفسها في خلال المدة التي دخلت فيها تحت الحكم المصري . وحتى في أثناء الأزمة الحرجة التي صادفته بعد فراره من مصر ١٧٧٢ لم يخرج عن تلك السياسة وكتب قنصل فرنسا في صيدا الشفالييه دى تولين في منتصف ١٧٧٢ يقرر أن الجاليات الفرنسية في جميع اسيا كل سورية وفلسطين « لم تتمتع بمثل ما تتمتع به الآن من عطف الهيئة الحاكمة » وختم تقريره بقوله أنه على يقين من أن المؤسسات الفرنسية في هذه الأنحاء مقبلة على عصر يسوده الهدوء في ظل الحكم الجديد (٤) .

ويرجع بعض الفضل في ذلك إلى الشاب اللبق كارلوروسى Carlo-Rossetti أحد تجار البندقية بمصر ، أسعده الحظ بمعرفة على بك في الوقت الذي كان يعمل فيه للاستثمار بالسلطة . ولمس فيه على بك كفاءة الرجل الذي يمكن الاعتماد عليه ، فاتخذة معينا ومشيرا . وكان لروستى أكبر الأثر في توجيهه على بك في مشروعاته لتنظيم التجارة وكثير من شئون السياسة الخارجية (٥) .

(١) Deherain V.5 ChaP. 11 p. 186.

(٢) Deherian V.5 p. 161.

(٣) Masson ; p. 307.

(٤) Charles - Roux ; Les Echèllas. . 98.

(١) تمكن كارلو روسى ، بفضل لباقته وذكائه ، من أن يشغل مركزا ممتازا في نفس على بك ومن جاء بعده من مشايخ البلد — وفي الوقت الذي كان فيه الرحالة براون بمصر ١٧٩٢ حصل روسى على منصب قنصل عام للنمسا في مصر وفي نفس الوقت حصل من مراد =

وكان من نتيجة ذلك أن اهتم على بك بمسألة التجارة « منذ شعر بمبلغ ما يمكن أن تفيده مصر من ازدهار التجارة فيها وكان غرضه فتحها لشعوب العالم . وجعلها مستودعا لتجارة أوروبا والهند (١) » .

ثم هيا على بك الجو الصالح لازدهار التجارة فضرب على أيدي قطاع الطرق ، ووطد الأمن ، وسهر على اقامة العدل ، وأصبح الطريق بين السويس والقاهرة فلاسكندرية آمنة للتجار .

واقترح عليه روستي عقد معاهدة تجارية مع البندقية ، ولكن اعتذرت هذه الجمهورية عن المساهمة في احياء النشاط التجارى القديم ، لأنها كانت في دور انحلال بطيء . ثم عرض نفس الامر على روسيا ولم يفز بطائل على نحو ما سنذكره في موضعه .

وفي تلك الاثناء حضر إلى مصر الرحالة جيمس بروس الانجليزى فى يونية عام ١٧٦٨ ، وقابل على بك وتناقش معه فى أمور كثيرة ، أهمها الحرب الروسية التركية ، والمشروعات التجارية التى كان روستي قد اقترحها على البك ، واخصها فتح الطريق المصرى المباشر لتجارة الهند المصدرة إلى أوروبا طمعا فى الأرباح الوفيرة المضمونة (٢) .

== بك على امتياز يخول له استغلال النطرون بمنطقة الطرانة (مركز أبو المطامير بمديرية البحيرة الآن) وكان يصدره إلى أوروبا . وقد عهد روستي فى استثمار هذا المشروع إلى ابن اخته الستيور فيرارى Signore Ferrari وزوده ببعض الحرس من سلافونيا لاضطراب الأمن فى تلك الجهات على عهده وقد نزل براون ضيفا عليه .
Savary ; Lettres . . T. 2 p. 228. (١)

(٢) كان بروس قنصلا لانجلترا فى بلاد المغرب ، اعتزل منصبه ، وزار الأناضول فالشام ففصر ١٦٧٨ فى طريقه إلى الحبشة لىكشف منابع النيل . وكان له حظ مقابلة على بك أكثر من مرة ، ونزل جده فى أوائل ١٧٦٩ حيث رجاء بعض التجار الانجليز أن يباحث على بك بشأن السماح للسفن الانجليزية بالوصول إلى السويس فوعده بذلك بعد عودته من الحبشة . ولكنه لم يعد إلى مصر إلا بعد ثلاث سنوات ونصف كان على بك فى أثناءها قد أعاد احياء الطريق البرى ثم انتهى عهده ، فلما جاء بروس إلى مصر ثانية فى ١٧٧٣ قابل أبا ذهب فأحسن لغائه وعقد معه اتفاقية تجارية .

ولما درس ذلك المشروع بالقاهرة وجد على بك من الضروري أن يفتح
الحجاز ، ويستولى على جده لتصبح محطا وسطا للسفن الأوروبية الآتية من الهند
ومستودعا لتجارها . وكانت حملة الحجاز عام ١٧٦٩ ضرورية لنجاح
مشروعه التجارى .

* * *

والغرض الاقتصادى من حملة الحجاز كان واضحا . أشار إليه جميع الرحالة
الذين تسلموا فى هذا الموضوع . فى عام ١٧٧٧ ذكر اروين Irwin أن على بك
الشهير أنما أراد بفتح بلاد العرب أن يضمن لمصر ، التى استأثر بحكومتها ، تجارة
البحر الأحمر وسواحل الهند (١) .

وأكد هذا الأمر التاجر روسى للرحالة فولنى الذى قرر أن « غرض
على بك أنما كان جعل جده مستودعا لتجارة الهند (٢) » .

فلما أصبح على بك صاحب الكلمة فى مصر والحجاز جعل جدة تحت ادارة
ملوكه حسن بك الجداوى مباشرة . وعهد بإدارة جمرك جدة إلى أحد اخوة روسى
ويدعى بلثازار Balthasar ، ثم بقيت الخطوة النهائية لاتمام المشروع وهى
الاتفاق مع شركة أوربية لنقل المتاجر من الهند إلى أوروبا عن طريق البحر
الأحمر ، الذى أصبح بحيرة مصريه ، ومصر التى أصبحت تصرف أمورها حكومة
مستقرة يرأسها رجل رشيد .

أما فرنسا فلم تدرك أن الفرصة التى كانت تترقبها قد سنحت منذ تولى على بك حكم
مصر فرفضت مقترحات التاجر مينار Meynard ١٧٦٥ ثم مقترحات التاجر
سيماندى Seymandi كما أسلفنا وانتهى بها الأمر إلى إلغاء إمتياز شركة الهند
الفرنسية . وإذا بوزير البحرية براسلان Praslin يشجع التجار الفرنسيين على
اتباع طريق فارس ، ويقضى على اهتمامهم بمشروعات البحر الأحمر .

(١) Irwin ; Voyage p. 96.

(٢) Volney V. 1. p. 118.

وأصبح الفرنسيون في ١٧٧٠ أبعد ما يكونوا عن التفسير في تحقيق مشروعاتهم القديمة في مصر (١).

ورغم أن موقف على بك (قائمقام مصر) من المشروع الذي تردد ذكره في تقارير القنصل الانجليزي جون مري John Murray من الاسكندرية — بتاريخ ١٣ نوفمبر ١٧٦٨ ، ٢ مارس ١٧٦٩ ، أول يولييه ١٧٦٩ ، ٣ يولييه ١٧٧٠ — كان يسمح للانجليز بتحقيق مشروعهم التجاري . إلا أن تلك الثورة التي قام بها لم تكن تتفق مع موقفهم التقليدي وهو عدم الرغبة في تقسيم الدولة أو المساهمة في اضعافها أو تشجيع أحد هذين الأمرين (٢).

ولكن استقرار حكومة مصر في عهد على بك ، ونجاح حملة الحجاز في تنظيم جمرك جدة تحت إدارة مصرية جديدة لفت أنظار التجار الانجليز في جدة إلى سنوح الفرصة . فكتب احدهم من جدة إلى على بك ١٧٧٠ يقترح عليه « فتح طريق تجارى مباشر » بين الهند وميناء السويس . وكان ذلك أقصى أمانى على بك فكتب في ١٧٧١ إلى حاكم البنغال الانجليزي يعرض عليه الأمر ، ويطلب منه أن يعاونه في تحقيقه ويعدده بكل مساعدة ممكنة من جهته . ولم يلبث أن تكونت في كلكتا شركة انجليزية صغيرة للتجارة مع مصر ، ولما تولى حاكم البنغال الجديد وارن هيستنجس Warren Hastings ، رحب بتلك الخطوة وبدأت بعض السفن التجارية وحلتها من الهند إلى السويس .

أشار إلى ذلك القنصل القرني داميرات بقوله « لقد عقد اتفاق بين البك وتجار من الانجليز تابعين لشركة الهند الانجليزية ، وظهر العلم البريطاني في السويس (٣) » .

وذكر سافاري أن « على بك عند ما تأكد من سلامة القوافل ، وصلت إلى السويس بعض السفن الانجليزية محملة بأقمشة البنغال ، لاقت رواجاً ورباحاً فيراً »

(١) Masson, p. p. 565 — 566.

(٢) Charles-Roux ; Autour d'une Route pp. 22 — 25.

(٣) Charles-Roux ; Autour d'une Route pp. 217.

وقد أشار إلى ذلك فرمان سلطاني ذكره الانجليزى هنرى روك جاء فيه « وفي عهد على بك جاءت إلى السويس سفينة انجليزية صغيرة أو سفينتان تحمل الهدايا من شخص غير معروف للبك المذكور ، بحجة تفريغ بضائعها » (١)

وشروط الاتفاقية التي أشرنا إليها لانعلم عنها شيئاً ، ولكنها على كل حال حددت رسوماً جمركية مخفضة ، وتعهد من على بك بحماية التجار الانجليز ومتاجرهم ويظهر أن العمل بهذه الاتفاقية استمر حتى فرار على بك من مصر سنة ١٧٧٢ — فإن بروس عندما عاد من الحبشة في ١٠ يناير ١٧٧٣ عقد مع أبى الذهب اتفاقاً جديداً بتاريخ ١٥ ذى القعدة ١١٨٦ (فبراير ١٧٧٣) كان كستجدد للاتفاق السابق ، تعهد فيه أبو الذهب بتخفيض الرسوم الجمركية إلى ٨ ٪ وتقرض ٥٠ ريالاً أسبانيا رسم ميناء لكل سفينة . ومنح التجار الانجليز حق المتاجرة في السويس أو القاهرة مع حمايتهم وحماية أموالهم . ثم تأكدت تلك الاتفاقية في ٧ مارس ١٧٧٥ بعقد معاهدة ملاحه وتجارة بين بك مصر العليا والسفلى (ووران هيستنجس) حاكم البنغال من قبل الأمة البريطانية (٢) .

ولم يغفل على بك أمر القناة فقد فكر فيها كما يقول الماسيو لوى دى لوجيه الذى كتب من مدريد بتاريخ ٧ ديسمبر ١٧٧٤ يقترح حفر قناة ويقول ويؤكدون أن على بك فكر في انفاذ ذلك الأمر منذ عامين ولو قدر له البقاء في مصر
لأتم حفرها (٣) .

هكذا هيأ على بك الفرصة لفتح الطريق البرى بل ونجح في تنفيذه آخر عهده بمصر .

وكل هذه الاصلاحات والمشروعات الحيوية لم تشغل على بك عن المضى في ثورته ، وتوفير منطقته امان لها . ودفعه ذلك إلى القيام بحملات خارجية في بلاد العرب . وسورية وفلسطين . وهذا ما سنبحثه في الباب التالى .

(١) Rooke Travels . . . p. 217.

(٢) Masson ; p. 569.

(٣) Charles-Roux ; le projet Français. P.F.

الباب الرابع

الحملة الخارجية

الفصل الأول

حملة الحجاز

بلاد العرب تحت حكم العثمانيين — مقدمات
الحملة المصرية — تجهيز الحملة — سير الحملة
وعوامل نجاحها .

لا زالت مكة منذ عام الفتح مركزا للاحداث جمة . ولكونها مهبط الرسالة ،
ومركز الأرض المقدسة ، وقلب الحجاز النابض أصبحت قبلة الانظار في العالم
الإسلامي كله . وكان ولاؤها في نظر الحكام المسلمين لازما ، وبالطبع كان
احتلالها الزم في نظر من كان يعمل لسيادة الأمم الإسلامية .
بلاد العرب تحت حكم العثمانيين :

فلما عظم مركز السلطان سليم بفتوحاته التي توجهها بمصر صاحبة السيطرة
والنفوذ على مكة في ذلك الحين اسرع شريفها بركات بارسال ابنه وشريكه في
الولاية الشريفة أبي نعي لتقديم الولاء للسلطان الظافر بمصر فاقربهما في الولاية ،
وأمر بقتل حسين الكردى صاحب جدة من قبل الغوري . ومنذ ذلك الحين
أصبح تعيين شريف مكة بيد السلطان العثماني . (١)

(١) الاشراف حكام مكة يدعون الانساب الى علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء . وأول
من ملكها منهم الاشراف الموسويون ثم السليمانيون ثم الهواشم ، احمد بن زيني دحلان: خلاصة
الكلام ص ١٦ ، ص ٥٠ .

وكما تهدد نفوذ العثمانيين في مصر وغيرها من الولايات العثمانية منذ بداية القرن الثامن عشر تهدد سلطان الدولة العثمانية في جميع انحاء الجزيرة العربية ، حتى إذا ما انتصف ذلك القرن ، وكان على بك السكبير في مصر يعمل للانفراد بالسلطة ، أصدر الرحالة كارستن نيور Carsten Niebuhr مذكرات قيمة يصف مشاهداته في بلاد العرب ، ويعلق فيها على مدى تبعية اقسامها السياسية المختلفة للسلطنة العثمانية . وأشار في تعليقه الى ان اليمن وحضر موت وعمان والحسا ونجد ، وبقية بلاد العرب ماعدا الحجاز ، قد خرجت تماما من يد السلطان واصبحت تحت حكم ولاية شبه مستقلين . انعدمت وحدتهم ولم تكن بينهم أية روابط سياسية اللهم إلا نزاعهم المستمر .

وتكلم نيور عن بلاد الحجاز فقال : « وكان السلطان يدعى ملكية هذه الولاية السكبية ، وان كان أهلها لا يعترفون بدعواه هذه . ولم يكن هناك من يمكن اعتباره تابعا للسلطان سوى شريف مكة . أما بقية الحجاز فكان تحت حكم مشايخ مستقلين ، (١) .

وكانت جميع الولايات العثمانية تدفع للدولة جزية سنوية ماعدا مكة فقد انفردت بنظام خاص ، إذ كانت الدولة هي التي ترسل لها كل سنة مقدارا محددًا من المال قررته على مصر (٢) .

أما العلاقة التي كانت تربط شرافة مكة بالدولة فلم تكن تتعدى ما يأتي : كان في استطاعة السلطان أن يأمر باشا سورية بعزل شريف مكة في المدة القصيرة التي يبقى فيها الحجاج بمكة ويولى غيره من نفس الأسرة . كما كان يعين باشا تركيا بجدة ، واسكن هذا كان يضطر الى الفرار أحيانا ، ولا يستطيع العودة إلى

(١) Niebuhr ; Description de l'Arabie. p. 172 — 170.

(٢) استمرت مصر العثمانية ترسل الحبل المصري كل سنة تحت اشراف أمير الحج المملوك كما ترسل المبالغ المقررة والأموال والقلل الموقوفة على الحرمين وأهل مكة والمدينة ، واعتبر ذلك جزءا من ملازمات مصر السنوية كالحزنة تماما .

جدة إلا مع وفد الحج السنوى . وكان السلطان يحتفظ بحرس عثمانى فى مكة والمدينة وينبع ، كما كان للدولة محاط حراسة بجوار الآبار ، على طول الطريق بين مصر وسورية ومكة لحماية القوافل ، ولكن لم يكن لتلك الحاميات أى سلطان على القرى أو المدن المجاورة .

وقد علق الرحالة على بقاء تلك العلاقة قائلاً : وما كان عرب الحجاز ليتقاعسوا ن طرد الترك ، لولا المبلغ السنوى الذى يناله كل مقيم فى مكة ، وأقارب محمد صلى الله عليه وسلم فى الحجاز ، بصفتهم سدة السكبة ، وما كان يصدر من مراكب القمح والأرز وغيرها باسم السلطان من السويس والقصير إلى ينبع وجده ثم مكة والمدينة فى موسم الحج ، ولولا ما كان يدره قدوم المحملين الشامى والمصرى على الأرض المقدسة من خيرات وعلى الأخص هدايا تأمين الطريق للاعراب ،^(١) ومنذ أن استقر الحكم العثمانى بمصر ، وإمارة مكة تعانى تنافسا ليس له نظير . ولم يكن ذلك راجعا فقط الى ما اشتهر به العرب من حب التنافس على الرياسة ، ولكنه يرجع أيضا الى ما صادفه أولئك المتنافسون من تشجيع أصحاب السلطان فى الخارج ، إذ كانت أمور مكة أبدا موضع تدخل حكام مصر والشام واليمن ، وفيها كان يتصادم نفوذ أولئك جميعا . فكان لكل منهم منافس يناصره وفى انتصاره وتوليئه الشرافة انتصار ضمنى لوليئه الذى ساعده وسيادة لنفوذه ، وربما كان هذا من بين الأسباب التى جعلت كلام الشام واليمن يحقدان على مصر انفرادها بارسال محمل سنوى فشاركها ذلك الشرف^(٢) .

وفى رأينا أن المنازعات المحلية بين الأشراف بمكة كانت تمثل فى الواقع تنافسا خارجيا بين مصر والشام واليمن . وقد تعودت مصر ان يكون لها الفوز فى

(١) Niebuhr p. 302 — 303.

(٢) بدأ ارسال المحمل الشامى ويلقب أحيانا بالروى عقب الفتح العثمانى ٩٢٣ هـ ثم أعقبه المحمل اليمنى ٩٦٣ هـ .

تلك الحلية ، ساعدها على ذلك عدة عوامل لا يصح اغفالها جعلت لها مركزا ممتازا لا يضاهيه مركز بلد آخر في بلاد العرب حتى الآن .

فاذا قدرنا أهمية سعى آلاف الحجاج المصريين الى مكة كل عام مع المحمل المصرى ، يبذلون المال والازاد لأهل الحرمين ، وجلهم من الفقراء ، ومئات الحجيج من بلاد المغرب وغيرها الذين يصطحبون الحجاج المصريين لمكة في موسم الحج ، لتبين لنا أهمية مركز مصر هناك . إذ أن الحجاج ، لمكة خصوصا والحجاز عموما ، كالغيث للأرض المنزوعة وقد غاض عنها الماء . فهم حياة أهلها وداعية النشاط والرخاء فيها . ومصر بما لها من ثروة ، وما بها من خيرات كانت أقدر من غيرها على التأثير في حياة الحجاز الاقتصادية .

ورغم مئات الأميال العديدة التي تفصل القاهرة عن مكة نجد أن الحاجز الوحيد الذى يفصل بين القطر المصرى وبلاد العرب لا يتعدى البحر الأحمر الضيق ، الذى لم يكن فى ذلك الوقت سوى بحيرة ضيقة المخرج من جهة الجنوب . ولذا كانت كل موجه من احداث الحجاز السياسية يتردد صداها فى مصر ، ويظهر مداها فى ولاية مكة . ولم يكن يستنكف الشريف منهم ان يفر الى صاحب النفوذ بمصر يسأله العون لاسترجاع الشرافة أو اغتصابها من صاحبها .

ولما كانت الدولة العثمانية ، وهى صاحبة السيادة الشرعية على البلاد ، فى حال لا تسمح لها بالتدخل فى أمور شرافة مكة ، لكثرة ما بلغ بها التدهور من ضعف والاضمحلال من عجز ، فقد كان الى الشام يناصر قضيتها هناك ضد تدخل بكوات مصر ، الذين كانوا قد استبدوا بالسلطة فى مصر العثمانية ، وراحوا يتدخلون فى شئون مكة اعتمادا على أنهم أقرب اليها من السلطان ، واكثر اتصالا بها منه وتهمهم أحوالها لما بين البلدين من علاقات لا يمكن فصمها .

وما كان السلطان ، رغم ما به من وهن ، ليحفل بالاحتفاظ بتلك الجهات الفقيرة السحيقة لولا أنها حافلة باغنى الذكريات الدينية ، ولا سيما اشتغالها على الحرمين الشريفين اللذين كان يفخر بحمايتهما ، ويتخذ من ذلك ذريعة للاحتفاظ

بما في دولته من ولايات اسلامية ، ولهذا السبب عينة ، واثلا يستأثر بذلك الشرف صناع مصر من دونه اضطر الى التدخل اكثر من مرة عن طريق باشا الشام (١) .

* * *

مقدمات الحملة المصرية :

وعند ما حلت ١١٦٥ هـ (١٧٥١ م) كان قد توالى على شرافة مكة أربعون شريفا من آل عون ، وهم نخذ من الهواشم . وفي تلك السنة بدأت ولاية الشريف مساعد بن سعيد بن سعد بن زيد . ومنذ فاتحة عهده بدأت سلسلة المنازعات التي أدت الى الحملة المصرية على بلاد الحجاز

فما كاد الشريف مساعد بن سعيد يلبس الخلعة السلطانية (يوم الجمعة ثاني ربيع الثاني ١١٦٥) حتى اقبل الاشراف والعرب لمبايعته . ولم يتأخر عن ذلك سوى السادة الاشراف من آل بركات ، فانهم بايعوا سرا ابن أخيه الشريف محمد بن عبد الله بن سعيد . ورغم أن هذا الأخير كان قد بايع عمه إلا أنه اغتر بآل بركات ، فجمع من العرب جمعا ملك به الطائف ، وتقدم بريد مكة ، ولكنه هزم في اكثر من موقعة وأخيرا طلب الصلح ، ثم توفي سنة ١١٦٩ ، ١٧٥٥ (٢) . وقد أدى ذلك النصر الحربي والسياسي الى تقوى مركز الشريف مساعد ، الذي صفنا أمامه الجو فلم يعد يحفل بأمير الحج المصري حسين بك كمشكش الذي وصل في موسم الحج ١١٧١ (١٧٥٧ م) . وشعر أمير الحج بذلك ففكر في أن يستند شرافة مكة الى وال آخر يكون أطوع منه قيادا . وشجعه بعض الاشراف على ذلك ، ورشحوا لهذا المنصب الشريف محمد بن عبد الله بن سعيد ، وهو ابن المنافس السابق « فالبسوه خلعة بدون فرمان سلطاني في الحادي والعشرين من ذي الحجة »

(١) Niebuhr ; p. 392. ومحمد سعيد فرائض زاده ، كلشن معارف ج ٢ ص ١٤٨٥ .

(٢) ابن دحلان . خلاصة الكلام ص ١٩٥ — ١٩٦ .

واشتبك الطرفان في قتال شديد ، وكادت تدور الدائرة على ضيعة حسين بك كشكش لولا أنه طلب الصلح بعد شهر واحد في أوائل المحرم ١١٧٢ (١٧٥٨) وعاد كشكش إلى مصر بعد أن استعاد صداقة مساعد .

وفي موسم الحج التالي رد أمير الحج الشامي عبد الله باشا تحية كشكش بأحسن منها ، فعزل مساعدا وولى اخاه الشريف جعفر بن سعيد . ولما انتهى موسم الحج ورجع عبد الله باشا ، نجح مساعد ١١٧٣ (١٧٥٩ م) في أن يتنازل له أخوه جعفر عن الشرافة في مقابل مبلغ من المال يبذله له سنويا حتى توفي جعفر ١١٧٨ . (١٧٦٤ م) .

ولم يعدد الشريف مساعد طامعا آخر في الولاية ، فما كاد جعفر يتنازل عنها حتى انشق عليه اخوه احمد بن سعيد ١١٧٤ هـ (١٧٦٠ م) فأوقع به مساعد في معركة طلب على اثرها الصلح فتم له ذلك .

ثم تهدد عرش الشريف مساعد للمرة الخامسة ^(١) ١١٨٢ هـ (١٧٦٨ م) عندما وقعت الفتنة بينه وبين الشريف احمد بن عبد الكريم من آل بركات ، فانتصر له آل بركات ، واجمعوا أمرهم على ان يخناروا من بينهم واحدا منهم هو الشريف عبد الله بن حسين بن يحيى بدلا من مساعد .

ثم جمعوا ما استطاعوا من الرجال ، وبذلوا ما أمكنهم من الأموال ، وبدأوا يحاصرون جدة وهي أهم مركز تموين لشريف مكة ، كما انها تتحكم في أهم الطرق المؤدية الى مكة . فأرسل مساعد من أحرق معسكرات عدوه . فتراجعوا عنها دون ان يفوزوا ببيعتهم ^(٢) .

ولما كان القوم مصممين على الفوز بأي ثمن أسرع الشريف عبد الله بن حسين بن يحيى بن بركات إلى مصر يطلب معونة على بك ^(٣) .

(١) ابن دحلان . ص ١٩٩ وما بعدها .

(٢) قيل أنهم لما عسكروا خارج جده في أكوخ من القش رماهم أهلها بنشاشيب ، جعلوا السكربت الموقد في رؤوسها كالرياش فاحترقت وقيل أن مساعد أرسل من حرقها .
(٣) الجبرتي ج ٢ ص ٣٥٠ .

وكان على بك في ذلك الوقت مشغولا بتمهيد مركزه فطبيب خاطر الشريف عبد الله ووعده بالمساعدة فعاد من حيث أتى .

وأوصى على بك أمير الحج محمدا أبا الذهب ١١٨٣ (١٧٦٩ م) أن يدرس تلك المسألة في بلاد الحجاز نفسها ، فيدرس موقف الشريف مساعد سرا حتى لا يثير شكوكه ، ويتحسس نيات العرب ، ومدى القوى اللازمة لانفاذ الحملة ونجاحها حتى إذا جد الجد وحان وقت العمل لم يبق سوى التنفيذ الموفق .

ولما حل موسم الحج أسرع الشريف عبد الله ينفر العرب إلى جانبه اعتمادا مته على وعد على بك . فأوجس خيفة مساعد ، وأسر ما في نفسه إلى أمير الحج الشامي الوزير عثمان باشا الصادق ، ورجاه أن يبقى في مكة حتى يرحل عنها أمير الحج المصري . وبينما كان عبد الله ينتظر عون أبي الذهب كان هذا يلبس الخلعة السنوية للشريف مساعد تغريرا به . ولما انقضى الحج لم يكن أبو الذهب في حاجة إلى من يستحثه على الرحيل ، فعاد إلى مصر وانهى إلى استأذنه على بك كل ما كانت الحملة المنتظرة في حاجة إليه . أما الشريف عبد الله بن حسين فكان في مركز لا يسمح له بالتراجع ، فأثار حربا ضد مساعد . لم يوفق فيها . فطلب الصلح ، ثم أسرع إلى على بك بمصر يلح عليه في طلب المعونة للمرة الثانية ١١٨٤ هـ (١٧٧٠ م) .

وفي أبواب ذلك كان على بك قد خلاص له أمر مصر وانفرد بالسلطة فيها فاتخذ تلك الحادثة سببا مباشرا للحملة التي كان غرضها الظاهري مساعدة الشريف عبد الله . بينما كان غرضه الحقيقي منها تعيين شريف مكة يتخلص لمصلحته ، ويضمن بطاعته ولاء ذلك الجزء الهام من الدولة الاسلامية . إذا أن وجود شريف في مكة من صنائع الدولة العثمانية كان ماثارا لمتاعب جمّة قد تؤدي الى فساد أمر الحج ، وسخط الحجاج من مصر والشرق ، وتضعف من مركزه في مصر اذا اقترن وجوده في الحكم بتلك المتاعب . فتعيين شريف من صنائعه كان عاملا أساسيا في

نظره يضمن به هدوء الأحوال . ويدخل في أغراضه أيضا الشهرة التي يجوزها
بجمايته للحرمين الشريفين وما كان سيفيده من نفوذ في مصر ، وهيبة في بلاد المغرب
والسودان وبلاد الشام وما يليها بتأمين الحج للمسلمين .

ولم تكن تلك الاطماع السياسية غاية الوحيدة ، بل كان يرى من وراء ذلك كله
الى مشروع اقتصادى خطير شجعه عليه التاجر البندقي « كارلوروستى » ، وهوان
يؤمن الشواطىء الشرقية للبحر الأحمر فيصبح في قبضته ممر آمينا لتجارة الشرق
في طريقها الى مصر ، ثم يجعل من جدة ، الميناء التجارى ذات الشهرة الواسعة
حينئذ ، مستودعا وسطا لتجارة الهند والشرق الأقصى يساعد ميناء السويس التي
كانت ستقوم في هذا المشروع بتجارة المرور ويتبع ذلك ضعف الاقبال على
استعمال الطريق الذى استحدثه فاسكو داجاما وحدث انقلابا خطيرا في طرق
النقل البحرى بين الشرق والغرب ، وأثر تأثيرا سيئا في المالية المصرية . ولعل اكبر
دليل على صدق ما ذهبنا اليه أن الحملة المصرية بعد أن أمنت طريق الحج واقامت
الشريف عبد الله الموالى لعلى بك جلست عن الحجاز جميعه ، ولم تحتفظ سوى بحكم
جدة حيث عينت حسن بك الجداوى صنجقا ، وابتقت معه حامية صغيرة ، كما
اهتمت بتنظيم الجمر ك كما سندكر ذلك في موضعه .

ذكر الجبرقى في معرض الكلام عن حوادث سنة ١١٨٤ هـ ١٧٦٩ م رواية
تحتاج إلى تصحيح قال « فيها (أى فى ١١٨٤ هـ) ورد على على بك الشريف عبد
الله من اشراف مكة وكان من أمره انه وقع بينه وبين ابن عمه الشريف احمد
اخى الشريف مساعد منازعة فى اماره مكة بعد وفاة الشريف مساعد فتغلب عليه
الشريف احمد واستقل بالامارة وخرج الشريف عبد الله هاربا وذهب إلى ملك
الروم واستنجد به فكتب له مكاتبات لعلى بك بالمعونة والوصية والقيام معه
وحضر إلى مصر بتلك المكاتبات فى السنة الماضية . . . » (١)

(١) الجبرقى ج ١ — ص ٣٥٠ . وقد اعتمد عليه ديهران Deherain فى تلك
الرواية الخاطئة .

وإيراد المسألة على تلك الصورة يحتمل اخطاء تاريخية : اولها انه جعل وفاة الشريف مساعد في ١١٨٣ والواقع ان الشريف مساعد توفي في يوم الأربعاء ثلاث بقمين من شهر المحرم سنة اربع وثمانية ومائة والف وكانت ولايته تسع عشر سنة إلا ثلاثة أشهر (١)

ثم عاد فذكر انه وقع بين الشريف عبد الله وابن عمه الشريف احمد اخي الشريف مساعد منازعة في إمارة مكة بعد وفاة الشريف مساعد ، فاستنجد عبد الله بملك الروم الذي اوصى به على بك .

وهذه الرواية تحتمل غموضا يؤدي إلى الخطأ ، فقد وقع تنافس حقا على إمارة مكة بين الشريفين احمد وعبد الله ، ولكنه ليس عبد الله الذي يقصده ، فان هذا تولى الشرافة فعلا ولم يحضر إلى مصر ، وإنما الذي استعان بعلي بك هو ابن عمه عبد الله بن حسين من آل بركات .

وبجمل ما حدث انه بعد عودة المحمل المصري صحبة ابى الذهب عام ١١٨٣ هـ ثم انتصار الشريف مساعد على عبد الله بن حسين فرهذا عقب الصلح الى على بك يستنجد به للمرة الثانية . وبينما كان على بك يعد الحملة توفي الشريف مساعد قبل وصول الحملة المصرية إلى بلاب العرب في المحرم ١١٨٤ هـ (١٧٦٩ م) . وكان قد عقد البيعة لأخيه الشريف عبد الله بن سعيد . فما كاد عبد الله هذا يتولى الشرافة حتى فازعه أخوه الشريف احمد بن سعيد وقال . أنا لها ، انا لها . فنزل له عن الشرافة وقلده اياها ١١٨٤ . وهكذا قدر ان تأتى الحملة المصرية لخلع الشريف مساعد فلا تجده فتضطر فيما بعد إلى خلع الشريف احمد (٢) .

وقد انفرد الجبرتي بذكره ان الشريف عبد الله استنجد بملك الروم فكتب له مكاتبات لعلي بك بالمعونة والوصية والقيام معه (٣) . ومع استبعادنا ذلك من

(١) ابن دحلان ص ٢٠٠ — ٢٠١

(٢) ابن دحلان ص ٣٠٢ ، شمعداني زاده مرعى التواريخ حوادث سنة ١١٨٧ .

(٣) الجبرتي ج ١ ص ٣٥٠ .

عبد الله ، نعجب كيف ان السلطان العثماني بعث إلى علي بك بمثل هذا الرجاء في أواخر ١١٨٣ هـ (١٧٦٩) او أوائل ١١٨٣ (١٧٦٩) وهي السنة التي وضعت فيها اطاعه ونواياه . فهل كان يريد ذلك ان يغريه على ان يقذف بنفسه وجيشه في بلاد العرب لينهكه ويقضى على قوته كما طلب ذلك من محمد علي فيما بعد ، ام ان الجبرتي اورد ذلك مجرد الايراد دون تثبيت . نحن نرجح ذلك وان كنا لانستبعد تلك الرواية .

تجهيز الحملة المصرية :

اهتم على بك اهتماما خاصا بتجهيز الحملة فأتم استعداداتها ، ووفر لها ما تحتاجه من ذخيرة وعتاد ومؤون ، ثم اشرف بنفسه على إعداد فرق الجيش . كما اختار بنفسه قوادها فاحسن الاختيار . يقول الجبرتي في ذلك ان علي بك « أمر بتجهيز الذخائر والاقامات وعمل البقسماط الكثير حتى ملئوا منه المخازن ببولاق ومصر القديمة والقصور البرانية وبيوت الأمراء المنافي الحالية ، ثم عبوا ذلك وارسل مع باقي الاحتياجات واللوازم من الدقيق والسمن والزيت والعسل والسكر والأجبان في البر والبحر واستكتب اصناف العساكر — اترাকা ومغاربة وشواما ومتاولة ودروزا وحضارمة ويمانية وسودانا وحبوشا ودلاة وغير ذلك (١) : الى ان يقول « وخرجت التجريفة في شهر صفر بعد دخول الحجاج في تجهيل زائد ومهيا عظيم وسارى عسكرها محمد بك ابو الذهب وصحبته حسن بك ومصطفى بك (٢) وذكر صاحب خلاصة الكلام انه كان بالحملة ثلاثة صنايق وثلاثة آلاف من العسكر وثلاثون مدفعا (٣) .

(١) يقصد بالقصور البرانية الموجودة في ضواحي القاهرة ، وبيوت المنافي أى الدين نفاهم على بك وصادر أملاكهم — أما المتاولة فهم حلفاء ظاهر العمر من بلاد فلسطين على غاية من الشجاعة .

(٢) يظهر من رواية فولاني وسافاري ولوزنيان أن المقصود به اسماعيل بك لامصطفى بك

(٢) ابن دحلان ص ٢٠٠

وهاتان الروايتان تشيران إلى امرين مهمين : أولهما خروج الحملة في وقت غير اوقات الحج كما كانت العادة ، كما ان ذكر اسماء القوادهم أمين من كان لدى علي بك وأمرسهم في ذلك الحين يدلنا على ما كان يعلقه من اهمية على نجاح اولي حملاته الخارجية .

سير الحملة وعوامل نجاحها .

أشرف ابو الذهب قائد الحملة على شحن الذخائر والمهمات في مراكز ثلاث من القلزم (السويس) ثم سارت الحملة عن طريق البر . وبدأ ابو الذهب باحتلال ينبع حتى يمهّد لنزول الذخائر والمؤن التي ارسلت بحرا . ولما رفض وزيرها درويش أغا أن يسلمها إلا بأمر من الشريف احمد ، دخلها ابو الذهب عنوة وقتل متوليها جزاء عناده في أوائل ربيع الأول ١١٨٤هـ (١١٦٩)^(١) . ثم تقدم يريد مكة فأسقط في يد الشريف احمد لقلة من خف لتجدته من الرجال وعدم كفاية ما عنده من مال فاخرج حريمه إلى الطائف « وأقام بمكة بمن عنده من العسكر ، والناس بين مصدق ومكذب ، ومهون ومصعب . ولما ظهر الأمر وتحقق أرسل الشريف احمد للعربان يطلبهم . وهو خلى من الدرهم والدينار فاجتمع عنده نفر يسير ثم تفرق أكثرهم^(٢) . » وبعد محاولات خاسرة من جانب الشريف احمد لجمع رجاله أو لتقوية الروح المعنوية فيهم طلب الأمان وغادر مكة إلى الطائف في منتصف ربيع الأول ١١٨٤ .

وبعد ثلاثة أيام دخل ابو الذهب مكة ونزل بدار الحكم وكانت تسمى « دار السعادة »^(٣) . ثم تولى الشرافة عبد الله بن حسين بن يحيى بن بركات . ويقال أن الشريف عبد الله تأثر كثيرا لما أظهره نحوه على بك وابو الذهب من

(١) ابن دحلان ص ٢٠٢ .

(٢) ابن دحلان ص ٢٠٣ .

(٣) يقال أن موضع دار السعادة هو مكان التكية المصرية الآن .

عطف ومعونة ففتح على بك لقب « سلطان مصر و خاقان البحرين » اعترافا منه بما له عليه من فضل (١).

غير أن الشريف السابق لم يرض بما حدث ، فجمع بعض العربان وقصد الطائف فدخلها دون قتال واعتصبها من الشريف عبد الكريم بن حسين اخي شريف مكة . ثم تقدم احمد يريد مكة واناخ بعرفة ومحضن هناك . ولكن ابا الذهب فاجأها واضطره إلى طلب الصلح بعد قتال شديد فتخلى عن الولاية للمرة الثانية والأخيرة (٢) .

وفي أثناء ذلك تقدم حسن بك شبكة الصنجق المصرى على رأس فرقة إلى جدة وتملكها باسم على بك ، ثم حكمها بدل الباشا الذى كان يتولاها من طرف السلطان (٣) .

ولم أتم القواد ما أمرهم به على بك بقى حسن بك بجدة وعاد ابو الذهب على رأس جيشه الظافر وبصحبة اسماعيل بك إلى مصر فى عشرين جمادى الأولى وكان وصولهم إلى القاهرة فى أوائل رجب من السنة نفسها حيث استقبلوا استقبالا حافلا (٤)

* * *

وبما يدعو إلى الدهشة ان تلك العمليات الحربية لم تستغرق أكثر من شهر واحد ، وان مدة الحملة كلها لم تستغرق أكثر من ستة أشهر بما فيها مدة الذهاب والعودة والاقامة بمكة وغيرها .

وبما لاشك فيه ان كمال المعدات الحربية وتام استعدادات الحملة من مؤونة

(١) Savary, T. 2 p. 230.

(٢) ذكر الأمير حيدر فى تاريخه ج ١ ص ٨٠٠ أن أبا الذهب طرد الشريف مساعد والصواب أنه طرد أحمد .

(٣) هذا هو السبب فى تسمية حسن بك بشبكة بالجدوى نسبة إلى جدة .

(٤) الجبرتى ج ١ ص ٣٥١ .

وذخيرة وعقاد ، ووفرة جند ، مع شهرة الممالك الحربية ، وذكاء ابى الذهب (١) كلها مجتمعة هى التى كسبت الحرب . كما لا يفوتنا ان نشير إلى ان بلاد الحجاز كانت على اتم استعداد لاستقبال أول قادم . فالوحدة العربية كانت منعدمة تماماً ، والمنازعات الداخلية كانت قد أرهقت القبائل فى تحزبها لشريف ضد آخر (٢) . كما انه لحسن حظ الحملة كان الجو السياسى مهيأً لنجاحها ، فالشريف احمد لم يكن سوى معتصب الولاية ، ولم تكن قد مضت عليه مدة طويلة تمكنه من تثبيت نفوذه أو تنمية موارده . فلم يكن لديه ما يكفيه لنضال جيش مدرب مثل الجيش المصرى الغنى بجنده وماله وسلاحه . كما ان انقطاع المعونة الخارجية سواء من الشام أو تركيا اوجد الشريف احمد فى مركز العاجز الذى اسقط فى يده . ولا شك فى ان انضمام فريق كبير من العرب واشرافهم إلى قضية الشريف عبد الله بن الحسين ومساعدتهم الجيش ابى الذهب جعلت النصر فى جانبهم . وهكذا اجاد على بك الاستعداد واتقن ابو الذهب التنفيذ فكان النصر المبين .

(١) ظهر ذكاء أبى الذهب فى عدة أمور سياسية وحربية أهمها نجاحه فى أن خذل العرب عن نصرة الشريف أحمد ، وإسراع جنده إلى قطع طرق تموين جيش الشريف أحمد بمكة أيضاً .

(٢) أحمد واصف — محاسن الآثار ج ١ ص ٢٩١ .

الفصل الثاني

حملات الشام

حكم الشام في عهد العثمانيين — مقدمات الحملة
المصرية — الحملات التمهيدية — تجهيز الحملة
المصرية — أغراض على بك من حملة الشام .

حكم الشام في عهد العثمانيين .

منذ انتصر سليم الأول في غزة (ديسمبر ١٥١٦) تقررَت السيادة للعثمانيين على بلاد الشام ، فمِين جان بردى الغزالي حاكماً لدمشق مكافأة له على معاونته في مرج دابق ، والحق به نيابة حمّاه وما وليها جنوباً أى سورية وفلسطين ما عدا حلب ، وهى همزة الوصل بين الأناضول وسورية ، جعلها تحت حكم باشا عثماني . وتعاضلهم نفوذ الغزالي حتى إذا ما توفى السلطان سليم ١٥٢٠ أعلن نفسه سلطاناً باسم « الملك الأشرف » وساق الجيش لقتال العثمانيين . ولكن هزمه فرهاد باشا وقتل الغزالي المعركة ٢٧ يناير ١٥٢١ . وكان آخر عهد المماليك بحكم الشام . وقسم السلطان سليمان بلاد الشام إلى ثلاثة أقسام إدارية كبرى وهى ولايات حلب (من تسع صنجقيات تشمل سورية الشمالية) ، طرابلس (من خمس صنجقيات) ، دمشق (من عشر صنجقيات وتشمل جنوب سورية وفلسطين) وعهد بحكمها إلى باشوات من الأتراك (١) . أما من الناحية الحربية فقد جعلت الفرق العثمانية في الشام تحت قيادة قائد عام يقيم في دمشق لقبه « مشير العرضى الهايوني الخامس » أى قائد الجيش السلطاني الخامس .

(١) محمد كرد علي : خطط الشام ج ٢ ص ٢٢٧ .

ولما وافى عهد السلطان مصطفى الثالث^(١) كانت بلاد الشام — كما نظمت سنة ١٦٦٠ م — مقسمة اربعة اقسام كبرى باسم «ايلات»^(٢) : سورية الشمالية وتعرف بايالة حلب ، سورية الوسطى الشرقية أو ايالة دمشق (وتتبعها صجقات بيت المقدس وغزة و نابلس وتدمر و بيروت) سورية الوسطى الغربية أو ايالة صيدا لحكم الجبل . ثم سورية الجنوبية أو ايالة القدس الشريف^(٣) . وكانت كل ولاية مستقلة بشؤونها عن غيرها ، يتصرف فيها الوالى يعاونه مجلس شوى مؤلف من بعض العلماء والأعيان . هذا عدا بعض الموانى الهامة كطرابلس واللاذقية جعلت تحت حكم باشوات عثمانيين .



ولم تكن ولايات الشام أسعد حالا من الولايات العثمانية الأخرى أو من الدولة العثمانية نفسها ، فقد تجلى فيها فساد الحكم فى أسوأ مظاهره فسادات الرشوة والقسوة والظلم ، وانتصر الباطل على الحق لجهل القضاة وجشعهم . واساء الجند استعمال نفوذهم فكانوا «كالوحوش الضارية فى فسقهم وجورهم ، أعى الجهل ابصارهم ، وضربت القحطة اطنابها فوق رؤوسهم . وكانوا كثيرا ما يقتلون الناس لغير سبب كتهجبة سيف أو بندقية بأحد المارة . » وبلغ من سلطانهم ان قال الرحالة فولانى يصف الحكومة العثمانية فى سورية «ان حكومه الترك فى سورية حرية استبدادية بمعنى ان سواد الشعب يخضع لرغبات فئة من ذوى السلاح تسيرهم مصالحهم واهواؤهم»^(٤) .

(١) ولد سنة ١٧٢٦ وتولى ١٧٥٧ وتوفى ١٧٧٤ .

(٢) يقصدون بالوالى كل من يلى أمر الحكومة فى أى بلد ولو كانت قرية . ويشبهه المؤرخ جودت العثمانى بالمأمور — أما صاحب الإيالة فهو الحاكم العام للإيالة من قبل السلطان بيده السلطة الإدارية والمالية والقضائية والحربية فهو ولى السلطان وتطلق عليه كلمة والى جوازا .

(٣) Lammense : La Syrie T, 2. pp: 69-60.

(٤) Volney : T. s p. 241.

وجاء التعصب الدينى ضعفا على إباله ، فأصبح الفرد منهم يستطيع نفس من لا يعتنق دينه أو مذهبه ويستتهن بعرضه وماله . فإذا لاحظنا ان كان هناك ما يزيد على عشرة مذاهب واديان فى تلك البلاد استطعنا ان نكون فكرة أولية عن مدى القلاقل والاضطرابات والفوضى التى سادت تلك الأنحاء . فلما زالت هيبة القانون ، وزهق الحق بفضل الرشا ، وظهرت وحوش الإنسانية من جند ورعاع ظهرت طائفة من الأشداء ذوى المروءة من المسلمين وغيرهم يناصرون الضعيف ويحمون ذمار المستضعف . وكان القوم يحسبون حسابهم ويلقبونهم « بالمختبرين » . وليس ادل من ظهور هذه الطائفة على مدى ماوصل إليه النفوذ العثمانى من ضعف فى تلك البلاد (١) .

وكان الولاة يعدون بالحكم إلى شيخ المشايخ ، وهذا يولى المشايخ ، فيولى هؤلاء معاونين لهم فى الحكم وهم فى الحقيقة معاونون لهم على سلب أموال الرعية الجاهلة فيملأون جيوب مشايخهم ، وهؤلاء يشجعون جشع الوالى فلا يرسل إلى الاستانة سوى النذر اليسير . ذكر الرحالة فولنى أن مجموع الضرائب السكية التى دفعها أهل سورية فى إحدى السنوات يبلغ ٢٤,٦٠٠ كيسا ، لم يصل منها إلى خزانة استامبول سوى أقل من العشر أى ٢,٣٤٥ فقط . ولم تكن تلك الأموال تصرف فى سبيل العمير والاصلاح وإنما كانت تدخل جيوب الحكام .

ومارس الولاة العثمانيون فى ايلات الشام سياسة قائمة على التفريق بين العناصر وإهمال كل شىء عدا جمع المال . إذ كان المال فى الدولة عماد الحق ، ودعامته الكبرى فأوجدوا هناك نوعا من الفوضى ، شجعه تعيين الحكام وعزلهم بسرعة تحول دون الاستقرار وتدعو إلى الانانية . حدث أن تقدم تجار حلب إلى باشا طرابلس يرجونه لإصلاح ميناء اللاذقية فاجابهم معتذرا بقوله « كنت بالأمس

في مرعش ، وربما انقل غدا إلى جدة ، فلم احرم نفسي الآن مما لا امل فيه في المستقبل » (١) .

وعلق على ذلك الاستاذ محمد كرد علي صاحب «خطط الشام» بقوله : « ان ابن الشام لا يهتم كثيرا إذا بلغت جيوش الذوله العثمانية أو اسط اوربا في فتوحها ، وفتحت فينا وبودابست . ولا يهتم ايضا إذا اكثرت الخيرات على العاصمة بما يصرف فيها من اموال المغانم والمغارم مادامت الجباية في بلاده مختلة ، منهكة لقواه ، ومادام الولاية يسعون لأن يأخذوا المسكوس من الخانات ومن المسكرات ، وما دامت الضرائب تستوفي حتى من المغنيات والمومسات ، وما دامت المناصب الكبيرة دع الصغيرة يتوصل إليها بطرق ذنيئة على سبيل الضمان والايجار . وما دام الأمن مختلا ، وأهل البادية ولصوص الأعراب على عاداتهم في السلب والنهب ، ومن المتعذر ان ينصف المظلوم من الظالم ، وان تعمل الدولة في باب العمران جزءا عما تأتى بتخريبه .

ولم يكن ابن الشام يتبرم بنظام الدولة لزيادة الجباية ، بل لأن الجباية كانت على غير قاعدة مطردة . فقد تجبى جباية سنتين أو ثلاث في غير أوقاتها في آن واحد ، ولا تراعى أعوام القحط والجذب والمصائب . . وإذا ضاقت الحال يبيع بعض العقلاء أو يبيع بعض الجماعات فرفع صوته بالشكوى عدوه خارجا ، وقتلوه وحرفوا دعوته على ولاية الأمر في الاستانة ، ولبسوا على العامة في أمره حتى يسكتوا نأتمه ، ويزيفوا دعوته ؛ وإلا فلا يعقل ان يسكت جميع الناس عما ينال الأمة من هذه الطريقة المعوجة في الادارة فالخير في الناس ما انقطع ولن ينقطع ، ومهما بلغ شعب من الانحطاط لا يخلو من نهاء يجاهرون بالحق ولو كان في المجاهرة حتفهم أحيانا .

وفد مهر رجال هذا الدور (١١٠٠ — ١٢٠٠ هـ) في تزييف الباطل ، والباطل هو الحق ، وتقليل عدد المتهاككين والشاكين والناشرين والناقين إذا نشبت ثورة أو حدثت فتنة أو تألفت جماعة لمقصد وطني . وكثيرا ما كانوا يصورون العذاب الآليم في صورة نعيم مقيم . . وغدا قتل الانسان ، وسبي النساء والصبيان وخراب العمران من الأمور المألوفة . . وعد المتأخر عن الجباية عاصيا ان خاف منه الوالى سلط عليه جاره . . . الخ » (١) .

وكانت طبيعة بلاد الشام وموقعها الجغرافى مما يشجع مثل هذه السياسة . فهى منذ القدم نقطة تلاقى الشرق بالغرب ، وأهل الشمال بأهل الجنوب اختلفت فيها الاجناس ، وتلاقت فيها الاديان منذ القدم . فبينما وطأها الآشوريون والبابليون والفينيقيون والفرس واليونان والرومان والعرب والسلاخقة والاكراذ والايوبيون والصليبيون ، على اختلاف جنسياتهم ، والمماليك والعثمانيون وتركوا آثارهم بها ، نجد بها بيت المقدس وحرما المقدس عند اليهود والمسيحيين والمسلمين على السواء . وبين هؤلاء وهؤلاء نشأت ملل ونحل ومذاهب ، وتكونت جماعات متنافرة حيثما اختلفت طبيعة الاقليم فى تدرجها من السهول الخصبة إلى الجبال الشامخة التى اتخذوها قلاعاً حصينة (٢) .

ورغم ما كان يدعيه الباب العالى من النفوذ والسلطان على بلاد الشام ، فإن سلطته — فيما عدا مراكز الايالات وبعض الموانى — كانت أسمية فى الواقع ونفوذه لا يتعدى دائرة الوالى الذى يمثله . ذلك لأن شعوب الشام وقبائلها تجاهلت الحكم العثمانى الى حد ما ، وراح أفرادها يزاولون تقاليدهم الخاصة ، ولا يدينون بالولاء الحقيقى إلا لمن أقاموه رئيسا حسب ما جرى عليه العرف عندهم فى سورية الشمالية — إيالة حلب — كان بطش قبائل الاكراد الأقوياء يهدد النفوذ العثمانى فيما بين حلب والاسكندرونة ، حتى لقد اضطرت الدولة

(١) محمد كرد على ، كتاب خطط الشام ج ٢ ص ٢٤٤ — ٢٤٥ .

(٢) Lammense : La Syrie et son importance Geographique p, 34 .

إلى تسيير قوافل التجارة بين هاتين المدينتين عن طريق انطاكية ، رغم طول الشقة ، تجنباً لبطشهم (١)

وفي سورية الوسطى كان لدى الدولة أقوى وأنشط الشعوب من سسلالة الفينيقيين ، في جبال لبنان ووديانة وساحله من بيروت حتى طرابلس ، وهم طائفة الدروز الأشداء الذين كانوا في معظم الأحيان حكمة في خلق باشا صيدا ، وعوناه على أعداء الدولة ، وأعوانهم متى أرادوا ، كما كانوا يتمتعون باستقلال داخلي تام .

وإلى الجنوب منهم أى من جنوبي بيروت حتى مدينة صور كانت بلاد المتاولة وهم من الشيعة أعماهم التعصب المذهبي ، فاقاموا حربا عوانا على العثمانيين وهم من أهل السنة فكانوا يقاتلونهم متى ظفروا بهم .

ولسنا نغالى إذا قلنا أن تاريخ الشام في تلك الأيام مرتبط أشد الارتباط بالنزاع الذى كان لا ينقطع بين أمراء أسرة الشهابيين . ففي عهد السلطان مصطفى الثالث — المعاصر لعلى بك — حدث أكبر انقسام للشهابيين ، عندما أغرى الأمير ملحم الشهابى الوالى السابق ، ابن أخيه الأمير قاسم ، على الثورة ضد ولاية عميه الأميرين أحمد ومنصور .

وبعد نزاع طويل واشتباكات متعددة انتهت الثورة بقتل الأمير قاسم . ولكن كان خروجه من ساحة القتال فاتحة النزاع بين الوالين الشقيقين أحمد ومنصور سنة ١٧٦٢ ، وانقسام اللبنانيين إلى حزبين كبيرين حزب الزكية نسبة إلى الشيخ عبد السلام العماز عيهم ويرأسه الأمير أحمد ، وحزب الجنبلاطية نسبة إلى الشيخ على جنبلاط وعميده الأمير منصور (٢) . وتم آخر فصول هذا النزاع مع انتهاء الحملة المصرية على الشام كما سنقصله في مناسبه بتولى الأمير يوسف شهاب ابن أخيهما الأمير ملحم .

(١) Eton ; Tableau Historique. T. 11. p. 7. Cité par lavalée p. 390

(٢) يوسف الدبس : تاريخ سورية المجلد السابع ص ٣٨٥ — ٣٩٠ .

أما في سورية الجنوبية فلم تكن الدولة تجاهد قبائل أو عشائر ، وإنما كانت تتناضل ، في السر حينما وفي الجهر أحيانا ، فردا واحدا يفوق خطره خطر أولئك جميعا . كانت تكافح نفوذ ظاهر العمر ^(١) .

ولظاهر هذا قصة مثيرة شيقة لا تقل في امتاعها عن قصة علي بك الكبير وهي جديرة بالبحث لأن تاريخه في الواقع ، كما قال صاحب ترجمته ميخائيل نقولا الصباغ ، هو تاريخ نهضة فلسطين وحرية واستقلاله وتحديد عمران مدنه في وقت من الأوقات . ^(٢)

ويرجع ظاهر في نسبة إلى جده زيدان من أشراف بني زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، ارتحل مع أسرته إلى الشام في أواخر القرن السابع عشر واستقر بهم المقام في منطقة صفد وحول بحيرة طبرية ، وكانت تتبع إيالة صيدا . وتزعم زيدان فلاحي تلك المنطقة ، وأخذ التزام طبرية من والي صيدا . ولما توفي ، تمكن ابنه عمر من أن يصبح شيخا على بلاد صفد ١٦٩٨ بكسفاة الأمير بشير الشهابي الكبير أمير الدروز وصديق والي صيدا ^(٣) .

وكان عمر حميد الصفات متعدد الكفاءات فانتشر عدله حتى عم رعيته ، وذاع صيته خارج منطقته حيث كان الأهالي يعانون الأمرين من ظلم العثمانيين والمشايخ القساة . وولد لعمر أولاد نبغ منهم ظاهر ، فقام على تربيته وتثقيفه ثقافة علمية ، وعسكرية . فلما توفي عمر تطلعت أنظار أهل بلاد طبرية وصفد

(١) يستفاد مما كتبه المؤرخ العثماني جودت باشا أن الترك يحرمون اسمه «ضاهراً» بالضاد وينطقونها بالطاء . وقد ذكر أنه اشتهر في كثير من الجهات «بطاهر» بالطاء المهملة وهو خطأ جودت ج ١ ص ٢٧٣ — وقد سمته المصادر المعاصرة ظاهراً ، وحررت اسمه هكذا . كما نقش بهذه الصورة على سور عكا . ويلقب بالعمر نسبة إلى والده عمر ، وقد أضيفت إلى اللقب أداة التصريف (ال) للتعظيم حسب تقاليد أهل فلسطين — ميخائيل نقولا الصباغ ص ١٥٤ .

(٢) ميخائيل نقولا الصباغ : الشيخ ظاهر العمر الزيداني ص ٢ .

(٣) الأمير حيدر الشهابي : تاريخ الأمير حيدر ج ٢ ص ٨٠٠ .

إلى ظاهر فاخناروه حاكما عليهم ، واضطر محمد باشا الى صيدا إلى تهيئة ١٧٣٣ .
وقد وصفه صاحب ترجمته بقوله أنه « كان أبيض اللون ، تمتلئ الوجه ،
واسع العينين ، ذا فم صغير ، حواجبه طويلة مقرونة ، ذا أنف مدور ، معتدل
الشكل ، طويل الذراعين والأصابع ، نحيف الجسم مربع القامة متوسط الطول
خفيف الذقن والشوارب ، أسود الشعر بالأصل ، ذا لحية مدورة ، (١) .

وأخذ ظاهر العمر يوسع منطقة نفوذه على حساب إيالاتي دمشق وصيدا ،
رغم أنف واليهما ، حتى صار متصرفا في صيدا (١٧٣٣ م) وبافا وحيفا والرملة
ونابلس (١٧٣٥) وصفد (١٧٣٩) وعكا (١٧٤٤) أى جميع البلاد التي نسميها
الآن فلسطين ، ثم جعل عكا مركزا لشيخته الواسعة (٢) .

وكان ظاهر كثير البنين ، تزوج بالكثيرات وأنجب الكثيرين . أقام من
أبنائه حكاما على القلاع الهامة في أملاكه . فأقام ابنه البكر صليبي في طبرية ،
وعثمان في دير حنا وحصن عجلون ، وعليا في قلعة صفد ، وسعيد في الناصرة ،
ولبث هو مقيما في عكا يشرف عليهم (٣) .

هذا ولم يكن للحيوية السياسية في لبنان نظير في بلاد الشام سوى في فلسطين
حيث كان ظاهر العمر . وقد كان طبيعيا بعد أن تفانت رعيته في الاخلاص له
ولأسرته أن يتطلع إلى خارج حدوده ، لاسيما وأن اطماعه كانت كما يقولون
« تكبر مع سنه » وكان طبيعيا كذلك أن يصطدم بحيرانه في الشمال أمراء بني متوال
ذوى البأس الشديد خارجهم وأمر أبناء شيخهم ناصيف النصار فاضطر هذا إلى
أن يعقد معه معاهدة هجومية دفاعية . وارتبط الطرفان برباط صداقة لم تنقسم

(١) ميخائيل نقولا الصباغ ص ١٤٩ .

(٢) الأمير حيدر ج ٢ ص ٨٠٠ .

(٣) تزوج من ست نساء وجاريتين ، وأنجب ثمانية ذكور هم صليبي وعثمان واحمد وعلي
وسعيد وصالح وسعد الدين وعباس .

عراها حتى آخر حياته ، أسامها الرغبة المشتركة في تقوية نفوذهما على حساب الدولة العثمانية . (١)

واستمر ظاهر يتوسع نحو الشرق والشمال والجنوب بمساعدة جيوشه وسواعد حلفائه المتأولة الاشداء ، تفره الدولة العثمانية لعجزها مرغمة ، وتحرض عليه والى دمشق و لكن دون جدوى . وأخيراً اضطرت الدولة سنة ١٧٦٨ إزاء ضغط الحوادث وقت اشتداد أزمة الحرب الروسية التركية الى الاعتراف له بكل ماوضع عليه بده من أملاك ، ومنحته لقب « شيخ عكا وأمير الأمراء حاكم الناصرة وطبرية وصفد وشيخ أقليم الخليل » (٢)

وقد جاء فى أحد التقارير التى كتبها أحد قناصل فرنسا فى صيدا عن ظاهر ماترجمته « انه يتمتع الآن بسلطة مطلقة لأحد لها ، يطيعه حلفاؤه بقدر ماتطيعه رعيته . وهو وان كان فى استطاعته أن يجهز للقتال ستة آلاف فارس إلا ان أمواله لاتخصى وكفاءته لاتستقصى — وقد كان مباركا فى كل أعماله ، وعاونته أسرته الوفيرة العدد فى كل مشروعاته ، رغم ما كان يحدث بين أفرادها أحيانا من شقاق . وئمة مسألة انفردها ذلك الشيخ هى انه وهو فى سن الثمانين كان يتزوج كل عام بيافعة فى ربيعها الثالث عشر أو الرابع عشر » (٣) .

ويعلق المؤرخ شارل روعلى ذلك بقوله : أن شخصيه ظاهر المع شخصية ظهرت فى الشرق فى أواخر القرن الثامن عشر ، وأنه رغم تجاوزه الثمانين فقد احتفظت قواه العقلية وقدرته الجسميه بنشاط خارق للعادة (٤) .

تلك كانت حال بلاد الشام وقت ان كان على بك فى مصر يمد لنفسه طريق السلطة : انعدام الوحدة السيامية وقسادالنظم الحكومية ، واضمحلال السيادة العثمانية ، وإهمال الاصلاحات العمرانية . يقابل ذلك الاتحاد الوثيق بين ظاهر وحلفائه

(١) ميخائيل نقولا الصباغ : تاريخ الشيخ ظاهر ص ٣٦ — ٤١ .

(٢) Volney : Voyages.. T2. Chap. IV, Précis de L'His. de Daher. P. 228.

Deherain : T. V p. 132 (٣)

Charles-Roux : Echelles... P,86 (٤)

المتأولة . وبينما كانت البلاد الواقعة تحت حكمه تتمتع بهدوء شامل ورعاية دائمة ، كانت بلاد الدروز التي يعتمد عليها الباشوات العثمانيون في صد مطامع ظاهر تمزقها الخلافات الحزبية والتنافس على الأمانة بين أفراد أسرة الشهابيين .

* * *

مقدمات الحملة المصرية .

وكانت الدولة العثمانية قد اتخذت الأهمية للقضاء على الخطر المنبعث من فلسطين ، فعينت عثمان باشا واليا على دمشق ١٧٦٠ ، ثم ضمت إليه بيت المقدس ١٧٦٥ ، وعهدت إليه اتخاذ ما يروقه من الوسائل للقضاء على ظاهر العمر . ثم عينت ابنه محمد باشا واليا على طرابلس الشام ، وابنه الثاني درويش باشا على صيدا حتى تنسق أعمالهم وتتوحد جودهم (١) . كما صدرت الأوامر إلى والي حلب وأمير الدروز بأن يكونا عوناً لعثمان باشا في كل أعماله (٢) . وحرصت أهل نابلس على مشاكسة المتأولة حلفاء ظاهر . فنشأت من ذلك كله قوة متحدة دائمة يرأسها باشوات أربعة وأمير الدروز ، وتشدد أزرها حاميات من إيلات حلب ودمشق وطرابلس وبيت المقدس ودروز لبنان الأقوياء . ولم يكن لظاهر من قوة العدد والعدة ما يوازي به تلك القوة المتحدة الساحقة ، ففكر في طلب المساعدة من علي بك الكبير شيخ البلد في مصر ؛ وكان ظاهر قد آواه وأكرمه عند ما نفى إلى فلسطين في مارس سنة ١٧٦٦ م (١١٧٩ هـ) ، واستشف نيابته في أثناء إقامته عنده . وكان علي بك من جانيه يحتفظ بجميع ظاهر ولا يرد له طلبا .

(١) اسمه عثمان باشا الكورجي ، ويلقب بالصادق لأنه كان من ممالك أسعد باشا العظم أحد ولادة الشام السابقين ويحبه لنباهته . فلما قتل أسعد باشا سألته الدولة عن أموال سيده فأخبرها بالحق فلقبته بالصادق — تولى دمشق سنة ١١٧٤ هـ ١٧٦٠ م — أنظر محمد كرد علي . كتاب خطط الشام ج ٢ ص ٢٩٩ .

وقد حدث عند ما تمكن على بك من دخول القاهرة في أكتوبر ١٧٦٧ بعد عودتهما من الصعيد ، واستقر نهائيا في مشيخة البلد أن نفى معلم دواوينه « ميخائيل الجمل » وكان هذا قد رفض أن يمدد بالمال وهو بالصعيد (١) والتجأ ميخائيل إلى ابراهيم الصباغ وزير ظاهر العمر فنشفع له هذا عند صديقه على بك ، وأرسله إلى مصر مصحوبا بخطاب وهدية من كرام الخيل . « وكان ظاهر بخوف من الدولة إذ كانت تحضر له الأختيار من عيونه من اسلامبول بما كانوا يكتسبون إلى عثمان باشا لاغتياله والقضاء عليه ، ومن ثم أراد ظاهر بهذا الداعي أن يفتح سبيلا لمكاتبة على بك ليخطب وده ، ويتقوى به على عثمان باشا الشام ... »

وصادف ذلك هوى في نفس على بك الكبير فأرسل إلى ظاهر جوابا « ضمنه كل شكر ومحبة وأنه عمل بما رغب إليه بشأن ميخائيل الجمل . ثم سأله إذا كان يحتاج إلى بخدته ومساعدته على عثمان باشا « لأنه بلغه أن الدولة كانت تغريه على قتاله واغتياله . ثم شجعه بأن لا يخشى بأسا من عثمان باشا ولا من الدولة ، وأنه ينبغي أن يكون دائما على حذر من مكر رجالها (٢) .. »

وعندما تخلص على بك من الباشا العثماني ١٧٦٨ أرسل يخبر ظاهر بالامر ، ويعرض عليه الاتحاد ضد مكائد العثمانيين (٣) . وأسرعت الدولة فأمرت عثمان

(١) انفرد الصباغ بذكر قصة ميخائيل الجمل وملخصها أنه كان معلم دواوين مصر ، فلما نفى على بك إلى الصعيد أرسل خطابا اليه يطلب منه مالا وثيابا فرفض وعلم بذلك ميخائيل نحر أحد ثراة تجار دمياط فأرسل إلى على بك حاجته مع رسالة قصيرة نصها « وان لم يكن لي سعد ثاقب يشرفني بمعرفة الحضرة العلية قبل الآن فاني رأيت أن أرسل اليه ، ان كانت تسمح الحضرة بقبوله ، ما أنا مرسله له مع خادمي مما امتنع عن ارسال بعضه خادمكم » فلما نجح على بك في العودة نهائيا إلى القاهرة عزل الجمل وعين بدله ميخائيل نحر (س ٩٠ — ٩١)

(٢) الصباغ : س ٩٠ — ٩٦ .

(٣) كان رسوله إلى ظاهر الشيخ (محمد المهدي) انظر :

باشا أن يبذل أقصى جهده ليحول دون تلاقى الجيشين : المصرى والفلسطينى ،
فحول هذا على مباغطة ظاهر فى عقر داره ، وسار بجيشه حيثما ، غير أن ظاهر
لم يكن بالأبله فيؤخذ على غرة . ورغم عجزه عن مقابلة تلك الجحافل بمثلها فانه
ركن إلى الحيلة وعزم على أن يحاربهم « بالخنز بدل السلاح » فأسرع وجمع ما ينوف
على تسعة آلاف فارس عسكر بهم شمال بحرية طبرية ، وكلف ابنه عليا أن يشاغل
الجيش العثمانى دون أن يدخل معه فى معركة جديدة ، وأن يتقهقر بانتظام صوب
المعسكر . ثم قسم جيشه هو إلى ثلاثة أقسام أمر الجناح الأيمن وعلى رأسه ابنه
صليبي بالتقهقر وبالاختفاء فى المرتفات الغربية للبحيرة . وأمر الجناح الأيسر
وعلى رأسه صهره الشيخ كريم بالتقهقر تجاه لبنان شمالا بغرب . وما وافى المساء
حتى كان قلب الجيش وعلى رأسه ظاهر يتقهقر إلى الجنوب تاركا كل ما يملك من
ذخيرة وعتاد ، ثم أشعل النيران هنا وهناك تضليلا للعدو ، واعتمد فى نجاح هذه
الخدعة على الخنز ، إذ زود المعسكر بكل ما يكفى الجيش المهاجم من مسكرات .
وفى جنح الليل تقدم عثمان باشا منتصرا أمام جيش على ظاهر المتراجع ، ثم اطبق
على معسكر ظاهر فرأى آثار التقهقر السريع غير المنتظم فأيقن بفرار جيش
ظاهر وسمح لجيشه بالراحة فى معسكر عدوه بعد هذا النصر المبين . . . واحتفل
بذلك فأتوا على ما احتواه المعسكر من خمر ثم راحوا فى سبات عميق ، وفى غسق
الفجر داهمهم جيش ظاهر وجناحاه فقتلوا وأسروا الكثيرين ، وغنموا كل ما كان
لدى عدوهم من ذخيرة وعتاد . وفر عثمان باشا مذعورا إلى دمشق فدخلها
محتشيا بأسوارها (١) .

وأسرع ظاهر فاستخلص صيدا من واليها درويش باشا ابن عثمان باشا . وشجع
هذا النصر مدن يافا وغزة والقدس والخليل فطلبت حماية ظاهر ففعل ، وأرسل

(١) يقال ان عدد جيش على ظاهر كان لا يتعدى ١٥٠ فارس وأن رجال الشيخ لم
تكن تزيد عدتهم على ٩ آلاف فارس بينما كان جيش عثمان باشا يتكون من ٢٥ ألف مقاتل
فقد منهم فى موقعة طبرية ما لا يقل عن الثلث . حيدر ج ٢ ص ٨٠٢ .

يطلب من الدولة أن تقره على ممالك مقابل خمسمائة كيس تدفع سنوياً فوافقت. وفي نفس الوقت اعتذر عثمان باشا عن هزيمته للدولة بتأخر الدروز عن نصرته في معركة طبرية السالفة فقبلت اعتذاره وزودته بفرمان يسمح له بطرد ظاهر من يافا (١).

« وإذ بلغ ذلك إلى ظاهر كتب إلى علي بك في مصر يخبره — ويشكو له من خيانه الدولة ، وأنه كلما استرضاها ترسل له تقرير رضاها ثم لاتلبث بأن ترسل إلى عثمان باشا تحشه على أن يغزوه ويقاّله ، ثم طلبت من علي بك أن ينجده لرد عثمان باشا عن يافا وبلاد القدس والخليل ، وكان ذلك في أواخر سنة ١٧٧١ (٢).



الحملة التمهيدية :

وفي تلك الأثناء كان علي بك قد وجه جيوشه في أواخر سنة ١٧٧٠ إلى بلاد الحجاز كما أسلفنا ، وعادت في أواخرها مظفرة تحمل أكايل النصر الأول ، فعزم على إرسال حملات استكشافية إلى بلاد الشام ليدرس على أساسها طريق الغزو ، ومدى قوة ظاهر وعثمان ، وكل ما تحتاج إليه الحملة ليتم تجهيزها على أكمل وجه ، لاسيما وقد بعد العهد بين الجيش المصري المملوكي وبلاد الشام . فنند ١٥١٦ لم ترسل مصر حملة باسمها تعمل لحسابها الخاص في تلك الجهات .

وفي منتصف رجب ١١٨٤ هـ (١٧٧٠ م) عين علي بك القائد عبد الرحمن أغا الانكشارية على رأس تجريدة مهمتها « تأمين الطريق ، بين مصر وفلسطين . فقامت هذه التجريدة بمهمتها خير قيام ، وطهرت الطريق من العريان ، وتمكنت

(١) ميخائيل نقولا الصباغ . ص ١٠٢ — ١٠٣ .

(٢) الصباغ ص ١٠٤ .

من قتل « سليط » شيخ عربان غزة وأخوته وأولاده ، إذ كان وجوده خطراً يهدد خط تموين الحملة (١) .

ثم كانت الحملة التمهيدية الثانية في نفس الشهر ، وهى ما يمكن أن نسميها « حملة جس النبض » غرضها الظاهرى مساعدة الشيخ ظاهر ضد عثمان باشا بينما كان القصد منها معرفة قوة كل من ظاهر وعثمان ، والعدد التقريبى للجيش الغازى الذى سيخرج من مصر ، مع ما يحتاجه من مئونه وذخيرة . وقد جهز على بك تلك الحملة الثانية نجيبزا حسنا ، وأقام على رأسها إسماعيل بك يساعده على بك الطنطاوى وعلى بك الحبشى .

وقد ذكر المؤرخون أن عددها لم يكن يقل عن عشرة آلاف مقاتل كاملي العدة . (٢) — كما ذكر لنا الجبرتي أن هذه الحملة سارت عن طريق البرق أواخر رجب ١١٨٤ هـ (١٧٧١ م) وأن على بك اتبعها بتجريدة أخرى عليها أحد الصناجق والكشاف ، رحلت من دمياط بحرا فى أواخر رجب أيضا ، ثم اتبعها بثلاثة برية فى منتصف ذى القعدة .

ولا شك فى أن هذا كله يشير إلى رغبة على بك فى تقدير عدد الحملة الرئيسية تقديرأ صحيحاً .



وكان عثمان باشا فى ذلك الوقت يقوم بجولته السنوية بآيالة القدس ، فلم يكده

(١) رغم أهمية هذه التجريدة فقد تجاهلها المؤرخون عن غير قصد . وانقر الجبرتي بذكرها ج ١ ص ٣٥١ . وقد ترجم الجبرتي لعبد الرحمن أغا ج ٢ ص ٣٦ وقال عن تلك الحادثة أن على بك « أرسل المترجم إلى غزة حاكما وأمره أن يتحيل على سليط ويقتله . وكان رجلا ذا سطوة عظيمة وخجور . فلم يزل يعمل الحيلة حتى قتله فى داره ، وأرسل رأسه إلى على بك بمصر ، وهى أول نكته تمت لعلى بك بالشام وبها طمع فى استخلاص الشام » .

(٢) سبق أن ذكرنا شيئا عن إسماعيل بك ، وقد ترجم له الجبرتي ج ٢ ص ٢١٩ — ٢٢٠ وأشهر مواقفه فى القضاء على سويلم بن حبيب ، وانتصاراته فى الحجاز ، وتأثيره على أبى الذهب فى حملة الشام ثم توليه الشياخة فيما بعد .

الجيش المملوكي يصل يافا حتى أسرع عثمان فارتد إلى دمشق، بينما تقدم ظاهر العمر لملاقاة حلفائه المماليك، واتجه الجيش المشترك قاصدا دمشق. ثم أرسل ظاهر إلى عثمان معترزا بحلفائه يقول « أن غز مصر أنت تساعدني عليك، فإن ساء الله غدا صباحا يكون القتال فأنزل إلينا برجالك (١) ».

وتهيب عثمان، وكان رده أن تهيا للخروج إلى الحج لا للقتال. وأرسل يخبر الحليفين بذلك قائلا « انني قد عولت على السير إلى الحج الشريف فلا يمكنني أن أتأخر. وان كنتم تريدون قتال زائري بيت الله الحرام فنحن استعنا بالله عليكم (٢) ».

ولم يقبل اسماعيل أن يتحمل وزر ذلك الأثم فعاد إلى يافا ينتظر عودة عثمان باشا، وعاد ظاهر إلى عكا، وخرج عثمان باشا إلى بلاد الحجاز.

وقد أشار الخوري ميخائيل بريك الدمشقي، وهو شاهد عيان، إلى تلك الحادثة بقوله « في سنة ١٧٧٢ تقوى ظاهر العمر وشاع اسمه، ونهب جبهانة عثمان باشا وإلى الشام (٣). ولما طلع للزيريب ركب عليه ظاهر العمر وأراد أن ينهب الحجاج ويأخذ المحمل ويقتل الوزراء فما سمح الباري تعالى بذلك (٤) ».

ولم تشأ الدولة في ذلك الوقت الحرج أن تترك ولاية دمشق تحت رحمة ظاهر وحليفه فارسلمت حملة بقيادة أربعة باشوات لحفظها حتى يعود إليها. لذلك أرسل ظاهر إلى علي بك يطلب قائدا أطوع ومددا أوفر.

وفي هدى الحملات السالفة تبين على بك عدة أمور: أولها صلاحية أملاك حليفه ظاهر كقاعدة حربية للجيش المملوكي الغازي. وثانيهما حاجة الحملة إلى

(١) يقصد بالغز المماليك — الصباغ. ص ١٠٥.

(٢) الأمير حيدر ج ٢ ص ٢٠٨.

(٣) إشارة إلى معركة طبرية.

(٤) ميخائيل بريك الدمشقي. تاريخ الدمشقيين وجه ١٣٦. والزيريب حصن قديم قرب نابلس كان به بعض الذخائر والمتون.

المدافع لعمليات الحصار . وثالثهما ضرورة حصول الحملة على مساعدة بحرية فعالة . واقترح عليه روستي أن يتصل بجمهورية البندقية ، فأرسل إليها يعرض محالفته ومساعدته لها على امتلاك جزر الدولة العثمانية في البحر الأبيض ، وإعادة تجارتها زاهرة كما كانت من قبل فردت الجمهورية شاكرة واعتذرت (١) .

وكانت الحرب الروسية التركية قد دخلت في دورها الثاني ١٧٧٠ ، فحجزت جيوش الدولة على ضفاف الدانوب ، وتمكن الاسطول الروسي من أن يقوم بدور هام في البحر الأبيض المتوسط ، ولما كانت روسيا قد اعتمدت في حربها ضد الدولة على ائارة ولاياتها لم يجد على بك غضاضة في أن يحصل على حاجته عن طريق روسيا والاسطول الروسي (٢) .

وكتب على بك إلى قائد الاسطول الروسي في البحر الأبيض المتوسط وهو الكونت الكسيس أرلوف Count Alexis Orlov مبديا رغبته في عقد معاهدة تحالف وصداقة مع روسيا ، ووعد به بكل ما يحتاج إليه جيشه واسطوله من مئونة ومال إذا لزم ، وطلب منه مدافع للحصار ومهندسين . فرد عليه أمير البحر الروسي مهنئا اياه ومشجعاه على حركته ، ووعد به بارسال طلبه في الحال لعرضه على جلالة القيصره ، ثم شكره على ما عرض عليه من مساعدته ووعد به بالأيتاخر في طلبها متى وجد نفسه في حاجة إليها (٣) .

وفي ذلك يقول صاحب خلاصة الاعتبار « ومن المصائب التي لا تخاطر بالبال أنه ظهر في مصر مفسد يدعى على بك فاستولى على سواحل صيدا وطرابلس متفقاً مع ضال يدعى ضاهر عمر ، فلم تبق للسكوفيين حاجة لارسال القبعات والصلبان إلى

(١) أرسلات الرسالة مع أحد معاوني على بك وهو يعقوب الأرمني Savary T. 1. P. 231

(٢) يوسف الديس : تاريخ سورية ج ٤ مجلد ٧ ص ٤٣٨٥ ، ٣٩٠ .

(٣) حمل رد أمير البحر الروسي أحد اليونانيين المسيحيين من أهالي القسطنطينية يدعى جريجوري ، كان يتقن الاغريقية واللاتينية والاطالية والفرنسية والتركية ، وما أن وصل إلى الاسكندرية حتى توفي ، وأوصل الرسالة إلى على بك شخص آخر Lusignan, pp. 103-107

على بك إذ أنه بادر بارسال الهدايا ورسائل المودة إلى أمراء البحر المسكوفيين داعياً القدامى منهم إلى مياه يافه ودمياط (١) .

وبدأ الموقف السياسى فى بلاد الشام يتضح تدريجياً ، وينتجلى عن تكوين حزبين كبيرين يتنازعان السلطة والنفوذ : أحدهما فى الشمال والشرق وهو حزب الأتراك أو حزب الباشوات ، يرأسه عثمان باشا والى دمشق أو وزير الشام كما كانوا يلقبونه ، ومساعدوه وزراء الدولة فى صيدا وطرابلس والقدس وحلب وبغداد والموصل ... الخ . والآخر فى الجنوب والغرب وهو حزب ظاهر العمر مركزه عكا ، واتباعه مشايخ بلاد صفد وعشائر المتأولة فى جبل عامل ، وأكثر قبائل العرب الرحل ، ويناصره على بك الكبير بماليكة من مصر ، ولهذا الفريق ثلاثة رجاله .

وبقى مشايخ جبل نابلس حكام غزة ويافا والرملة والخليل فريقين ، مع أحد الحزبين وضد الآخر ، بينما بقى لبنان المنيع بجماله ، العزيز برجاله متوسطا بين الفريقين كما أنه قب ميزان السياسة فى تلك الأيام (٢) .



تجهيز الحملة المصرية .

وأيقن على بك بأهمية المعارك المقبلة ولذلك وجه عناية فائقة إلى تجهيز الحملة فاختار رجالها ونفسه . وبلغت عدتهم أربعين ألف مقاتل ، وزودهم بكل ما يحتاج إليه حملة مهاجمة من سلاح وذخيرة وعتاد . ثم عين على قيادتهم محمداً بك أبا الذهب بطل حملة الحجاز . وفى ذلك يقول الجبرق دوفيا (أى ١١٨٥ هـ ١٧٧١ م) أخرج على بك تجريدة عظيمة وسر عسكرها وأميرها محمد بك أبو الذهب ، ورضوان بك . وأيوب بك ، وغيرهم كشاف وأرباب مناصب ، وماليكهم واتباعهم ، وعساكر كثيرة من المغاربة والترک والهنود والبنانيين والمتأولة

(١) رسمى أحمد الكريدى : خلاصة الاعتبار . حوادث سنة ١١٨٨ . الفصل السادس

(٢) ميخائيل نقولا الصباغ . ص ١١٧ .

وخرجوا في تجميل زائد واستعداد عظيم ومهيا كبير ، ومعهم الطبول والزمور
والذخائر والأحمال والمطابخ والكرارات والمدافع والجبخانات ومدافع الزنيلك
على الجمال وأجناس العالم ألوفاً مؤلفة . وكذلك أنزلوا الاحتياجات والأثقال
وشحنوا بها السفن ، وسافرت عن طريق دمياط في البحر (١) .

وتسكفت تلك الحملة كثيراً من الجهد والمال حتى اضطر على بك إلى فرض
مبالغ تدفعها كل مدينة بمصر . كما فرد أموالاً على اليهود والاقباط « قبضت جميعها
في أسرع وقت » .

ومهد على بك لثلك الحملة بدعاية واسعة ، وأخذ يرسل أعيان دمشق وعلمائها
يخرضهم على طلب عزل عثمان باشا . وقد ذكر السيد محمد خليل المرادي مفتي
السادة الحنفية بدمشق ما نصه « وكان الأمير على بك أرسل لوالدنا يخبره بما صدر
من عثمان باشا ، وأنكم أن لم تسلموه نلقاكم بالرجال والابطال (٢) ... »

كما أرسل إلى ظاهر يبشره بتحريك الحملة لتنفيذ أغراضه . ولم ينس على بك
وهو يودع كبير قواده أن يوصيه خيراً بمن سيساعدفهم من المدنيين ، سواء منهم
من سلم راغباً أو راغماً ، وأن يحمي أهل الذمة من بأس الجند . كما أكد عليه
أن يراعى سلوك جنده في أثناء مروره بأمالك حليفهم ظاهر وأمالك أبنائه (٣)

(١) الجيرقي ج ١ ص ٣٦٤ — ٣٦٥ . وقد ذكر الرحالة فولاني أن الاشارات تواترت
بأن عدد الحملة المصرية ٦٠,٠٠٠ مقاتل ، وأن الأوربيين دهشوا لضخامة تلك الحملة لظنهم أن
كفاءة الجندي المصري لا تقبل عن نظيره الروسي أو البروسي . ثم علق على ذلك بقوله أن
العدد الحقيقي للجيش لم يكن يتجاوز ٥ آلاف من فرسان المالك ، لسلك مملوك تابعان (١٠٠٠
تابع) ثم عشرين ألفاً وهم أتباع الصناجق والكشاف ، ويصحبهم ١٥ ألفاً من البرابرة المشاة
يقصد المغاربة ، وغيرهم والبقية من الخدم ، فيكون مجموعهم ٦٠,٠٠٠ ثم قال ان الجيش
كان معدوم النظام ، فرسانه مختلفو السلاح والملبس ، وخيولهم مختلفة الألوان والأحجام ،
لا يسيرون في صفوف منتظمة أو وفق توزيع خاص .

(٢) والده هو السيد بهاء الدين محمد المرادي من علماء دمشق ، وأصله من بخارى : المرادي

تاريخ المرادي ج ١ ص ٥٤ .

Insignan, sect III, (٣)

وبدأت الحملة سيرها برا في ديسمبر سنة ١٧٧١. وعندما وصلت غزة اتجهت إلى الرملة وصادفت طلائع حملة إسماعيل بك فانضموا إليها . وأخذوا الرملة ونابلس بعد حصار طويل . وعزم أبو الذهب على حصار بيت المقدس فخرج إليه حاكمها وكبير قضاتها وممثلي بطريركها فقدموا هدية قيمة ، وعرضوا عليه دخول المدينة دون قتال احتراما لقدسيته فأجابهم إلى طلبهم .

ثم حاصر يافا فسلمت بعد شهرين ، واتجه قاصدا عكا وعسكر في ضواحيها انتظارا لظاهر وجيشه . وهنا قابله الشيخان على وكريم مرحبين به نيابة عن والدهما (١) . ثم انضما إليه يحيش من الصفدين والمتاولة وغيرهم ، لا يقل عدده عن عشرين ألفا . واتجه الجيش المشترك فاحتل صيدا (٢) ، ولم يبق أمامه سوى احتلال دمشق حتى يصبح سيد سوريا الوسطى . وكان أبو الذهب كلما احتل مدينة يولى عليها حاكما من قبله يحكمها باسم على بك ، ويترك بها حامية تشرف على الأمن والنظام ، هكذا أمره سيده قبل الرحيل (٣) .

وفي تلك الاثناء كان عثمان باشا قد عاد من بلاد الحجاز وجهاز حملة جرارة قدرها بعضهم بمائة ألف مقاتل (٤) ، على رأسها أربع باشوات من دمشق وحلب وطرابلس وصيدا . ثم تقدم يريد القضاء على الجيش المشترك . وتقاتل الفريقان في السهول الفسيحة الممتدة إلى الجنوب من دمشق . ولقى عثمان باشا من مرارة الهزيمة ما جعله يفر إلى دمشق ومنها شمالا إلى حمص (٥) .

(١) يقال أن أبا الذهب تألم كثيرا لعدم حضور ظاهر بنفسه وعدا اهانة لا يصح بعدها أن يتعاون معه أو يقاتل في سبيل نصرته ، وأن ذلك كان من أهم أسباب عودة أبي الذهب من الشام رغم انصراره على نحو ما سنبين فيما بعد .

(٢) Insignan. p.p. 63-66

(٣) الجبرتي ج ١ ص ٣٦٥ .

(٤) ميخائيل بريك دمشق : تاريخ الدمشقيين مخطوط ٣٦ ب

(٥) المرادي : سلك الدرر ج ١ ص ٥٤ — ٥٥ ، ميخائيل بريك ٣٦ ب



أما أبو الذهب فتقدم لحصار دمشق دون أن يعلم بمغادرة عثمان لها . عند ذلك اسقط في يد أهلها وطلبوا من كبار العلماء (١) التوسط لدى أبي الذهب فآظروهم عزمه ألا يكيد على دخولها ، وعرض عليهم الكتاب الذي زوده به على بك وهذا نصه :

« صدر هذا الفرمان الجليل الشأن من ديوان مصر المحروسة المعالي ، دامت له المفارخ والمعالي ، بأمر من منّ به الكريم المنان على أهل هذا الزمان ، فآظرو العدل والأمان ، وعم بالفضل والإحسان جميع أهل القرى والبلدان ، وأرغم أنوف أهل الجور والطغيان ؛ أمير الأمراء الكرام ، كبير الكبراء العظام ، المختص بمزيد عناية الملك العلام أمير اللوای الشريف السلطاني ، والعلم المنيف الخاقاني ، الأمير على بك أمير الحاج سابقا (٢) وقائمقام بمصر المحروسة حالا (٣) دام عزه وبقاؤه أمين .

مضمونه حمد لباريء النسم ومحبي الرمم ، الذي قدس وعظم قدر الحرم وبارك حوله بجزيل النعم ، وأمر بالعدل في سائر الأمم ، وأوعد الظالم بالهلاك والنقم ، القائل في كتابه المبين ، والله لا يحب الظالمين ، إن الله لا يصلح عمل المفسدين ، فلا تأس على القوم الفاسقين : والصلاة والسلام على رسوله الأمين سيد الخلق أجمعين ، القائل وهو أصدق من قال الضرر يزال . وعلى آله وأصحابه الذين سادوا وشادوا الدين صلاة وسلاما دائما إلى يوم الدين .

(١) ذكرهم المرادي في تاريخه ج ١ ص ٥٥ ، وهم العلامة على بن صادق الطستاني أحد مدرسي الحديث والموالي أسعد بن خليل الصديقي أحد الأشراف ، محمد يس احمد العاني أحد المدرسين بالجامع الأموي . واكتفي ميخائيل بريك بالإشارة إليهم .

(٢) فضلنا ذكر هذا الكتاب كاملا لأهميته التاريخية لاسيما وأننا استشهدنا بعده فقرات منه في مواضع مختلفة من الكتاب .

(٣) هكذا كان على بك بلقب نفسه إشارة إلى تولية الحج (١١٧٧ هـ - ١١٧٦ هـ) وفي ذلك دلالة على أنه لم يتخذ لنفسه لقب سلطان .

وبعد مزيد السلام والتحيات ، ونواحي الأمن والبركات ، وجزيل النعم والخيرات في سائر الأوقات والساعات إلى حضرات العلماء العاملين ، والققهاء المحدثين المفتين بشريعة سيد الانام ، وقضاة الاسلام ، وأرباب المناصب والحكام ، والآكابر والأعيان السكرام ، والخواص والعوام من أهل مدينة دمشق الشام ، أعزهم الله بنور العدل وأحكامه ، وأجارهم من الظلم وظلامه ، وعاملهم بالطافه وأكرامه ، وأفاض عليهم جزيل انعامه أمين .

الذي يحيط به كريم علمكم وسليم فهمكم أن الأمة لا تجتمع على الضلالة . وقد علمتم ما فعله عثمان باشا في أرضكم ، وفي غيرها من الظلم والجهالة . وأنه قد تعرض للحجاج والزوار وسلط عليهم الاشرار والفقجار (١) بالاذية والأضرار وظلم المسافرين والتجار . وأذى أهل الأماكن الشريفة ، وبذل أمن الحرمين الشريفين بالخليفة (٢) ، وتعدى حدود الدين وصنع ما لا يليق بالمسلمين . وقد قال من لا تراهم العيون « من يتعد حدود الله فاولئك هم الظالمون . » ولما بلغنا عنه ما بلغ وأنه في إيذاء الأرض المقدسة قد ولغ ، فبادرنا لسوء فعله بالنقض كما أزلنا في العام الماضي من ظلمه البعض (٣) ، وأردنا أن نطهر منه تلك الأرض نصرة للدين وغيره على المسلمين . وأعظم القصد والاحتياج دفع ضرره عن الأرض المقدسة والحجاج تبعاً للحديث الشريف : ما حل بحرمكم حل بكم .

(١) ربما كان يشير بذلك إلى حادثة وقعت في ليلة ١٩ صفر ١٢٨٤ (١٧٧١) ملخصها أن عثمان باشا لم يرض العرب في أثناء عودته من الحج ، اعتماداً على قوته فنهبوه ونهبوا الحجاج فسارع ظاهر إلى تعويضهم واشترى المنهويات وأرسل العلم النبوى وعليه العقاب إلى الدولة — الصباح ص ٧٥ .

(٢) يشير إلى تدخل عثمان باشا في أمور شرافة مكة ، وما ترتب على ذلك من اضطراب ومنافسات .

(٣) يشير بذلك إلى أمرين : أولهما حملة الحجاز وقد اعتبرها إصلاحاً لما أفسده عثمان باشا وثانيهما التجربة التي أرسلها على غزة فخلصت أهلها من أفساد العريان وظلم عثمان .

وبلغنا أيضا ما فعل بالعلماء في غزة ، وقد أذاقهم الذل بعد العزة ، ودفعهم في الأرض بالحياة والحديث المقدس عن الإله ، من أذى وليا فقد أذيت به الحرب والعلماء لاشك أولياء الله لقوله في كتابه الأسمر : إنما يخشى الله من عباده العلماء ، وإذا كنتم بذلك راضين ، وعلى رفع ضرره غير قادرين فنحن انشاء (أن شاء) الله قادرين على إزالة ما هنا لك وقد أفتتنا المذاهب الأربعة بذلك فاستخرنا الله ، وهم نعم الولي وسألناه أن ينصر دين محمد بعلي . وصرفنا الهمة والأموال في رضى الملك المتعال ، ووجهنا العساكر والأبطال ليرفعوا يد الظالم ويستردوا المظالم ويحموا الديار والمعالن ويميزوا العاطب من السلام . والمقصود منكم ترك الظالمين والبعد عنهم ، ومن يتولهم منكم فإنه منهم . وأن تجتهدوا فيما يدفع الشرور ويوجب لكم الفرح والسرور والغبطة والحبور وأمير الحاج الشامى من طرفنا يتولاه ، حفظا وصيانة لحجاج بيت الله فتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الأثم والعدوان ، والنصر من الكريم الفتح لمن طلب العدل والصلاح .

وها نحن قد أخبرناكم ، وللمعاونة على الخير قد اخترناكم ، ومن قبول هذا الظالم في أرضكم حذرناكم . فالعساكر قاصدة اليه وجميع مالدیه ، وقد سلطها غضب الله وسخطه عليه ، فاحفظوا منه سائر أممكم وأحوالكم ولا تدعوه يقيم في أرضكم وبين عيالكم ورأى العلماء والأكابر أعلى (١) . وأنتم بالمعاونة على الخير أولى .

وعلى القريب منكم والبعيد ، والطارف والتليد ، والأحرار والعبيد أمان الله ورسوله وأماننا السعيد ، والله يفعل ما يشاء ويحكم بما يريد . والخير يكون والصعب يهون بعون الله والسلام (٢) .

(١) في ذلك إشارة واضحة إلى قسوة العلماء في ذلك العهد بالشرق عموما .

(٢) أورد المنشور أحمد واصف ج ٢ من ٢١٥ - ٣١٧ بالنص العربي : ويلاحظ أن ميخائيل بريك الدمشقي وهو شاهد عيان لم يذكر هذا الخطاب وإنما أشار إلى حضور العلماء لمقابلة أبي الذهب من ١٣٧ .

وكان الرد على ذلك أن استصدر السلطان فتوى باعتبار على بك وحلفائه وأنصاره بغاة يجب قتلهم أو أعدامهم^(١).

وأحدثت الرسالة الغرض المقصود منها. ودخل أبو الذهب دمشق في صبح يوم ٦ يونية ١٧٧١ دون أن تسيل قطرة واحدة من الدماء ، وأرادت حاميه المدينة إلى القلعة وتحصنت بها ، فحاصرها جيش أبي الذهب وأضطرها إلى التسليم بعد ثلاثة أيام تحت تأثير القنابل المتساقطة . ودخل ممثل على بك الكبير دار الوزارة في دمشق وجلس حيث كان يجلس ممثل السلطان العثماني . وأتت الوفود من سائر الأنحاء تزف التهاني وبدأ الناس يشعرون بنعمة الأمن والسلام^(٢).

وأرسل الأمير منصور الشهابي من جبل الدروز هدية وخطاباً يتقرب بهما إلى أبي الذهب فصادف ذلك قبولا حسنا من نفس القائد المصري . وكان ظاهر قد أوصاه خيراً بامير لبنان^(٣).

وتردد صدى النصر في القاهرة في ربيع الأول من ١١٨٥ (١٧٧١) واحتفل

(١) أحمد واصف : محاسن الآثار ج ٢ ص ٤١٦ ، شمعداني زادة : مرعى التواريخ حوادث ١١٨٧ .

(٢) الأمير حيدر ج ٢ ص ٨٠٣ — ٨٠٤ .

(٣) ذكر الأمير حيدر في تاريخه ج ٢ ص ٨٠٥ — ٨٠٦ أن الأمير منصور الشهابي كان يحقد على عثمان باشا نصرته لشقيقه ومنافسه الأمير يوسف ، فلما علم بدخول أبي الذهب إلى دمشق أرسل اليه ثلاثة أفراس من جياذ الخيل بالملابس الفاخرة ، وكتب له جوابا يستعطف خاطره ، وجهه إلى « الجنب العالي صاحب الفخر والحلال .. صدر صدارة الدولة المصرية أمير لواء عالي الشأن .. » جاء فيه « أما بعد فانه في أبرك الأوقات وأشرفها وأيمن الساعات وألطفها قد ورد علينا كتاب الجنب الشريف وفهمنا فحواه السامى الشريف وانضح لنا حلولكم السعيد بدمشق الشام على حسن تأييدواً كامل نظام ، فقد حصل عند المخلص لكم بهجة لا تحد وسرور ليس له ند . وقد طربت لقدمكم الأقطار واستأمنت البلاد ، واطمأنت خواطر العباد . الخ » ولا شك في أن هذا الخطاب يبين مدى أثر الفتوح المصرية في نفوس أهل الشام وأمرائها

به على بك احتفالا عظيما . وفي ذلك يقول الجبرتي « ووردت البشائر بذلك قنودى بالزينة ، فزينت مصر وبولاق ومصر العتيقة زينة عظيمة ثلاثة أيام بلياليها . وتفاخروا في ذلك إلى الغاية وعملت وقدرات وأحمال قناديل بشموع بالأسواق وسائر الجهات ، وعملوا ولائم ومغانى وآلات وطبولاً وشفاكا وحراقات وغير ذلك . . . » إلى أن قال « ونعاضم على بك في نفسه ، ولم يكتف بذلك فارسل إلى محمد بك يأمر بتقليد الأمراء المناصب والولايات على البلاد التي فتحوها وملسكوها (١) »

ولا غرابة في ذلك فقد أصبح أبو الذهب سيد سورية الوسطى والجنوبية يحكمها باسم استاذة على بك ولم يبق أمامه سوى الاستيلاء على حلب حتى يحتل سورية بأكملها . بل أن على بك في يونيه ١٧٧١ كان في مركز يسمح له بأن يعلن نفسه « سلطانا على مصر وسورية » كما قرر ذلك قنصل فرنسا في صيدا (٢) .

ونشير إلا أن قناصل فرنسا في سورية الوسطى نقلوا محور نشاطهم السياسى من الآستانة إلى القاهرة وأصبح قنصل فرنسا في القاهرة يقوم لدى على بك بنفس الدور الذى كان يقوم به سفير فرنسا في الآستانة لدى السلطان العثمانى (٣) .

ويعتبر هذا الحد منتهى ما وصلت إليه قوة ونفوذ على بك ، كما يمكن اعتبار ليلة ١٠ يونية ١٧٧١ بدء أفول نجمه ، ذلك لأن محمدا أبا الذهب لم يلبث أن عاد سريعا إلى مصر وسحب في طريق عودته جميع الحاميات التي كان قد أقامها في البلاد المفتوحة ، وبدأ يحارب سيده وولى نعمته .

* * *

(١) الجبرتي ج ١ ص ٢٦٥ .

(٢) في تقريره بتاريخ يونيه ١٧٧١ — ذكره شارل روى Charles-Roux : Échalles . p. 96

(٣) من مذكرة لقنصل فرنسا بالكتاب السابق ونفس الصفحة — والقنصل يدعى كوزينيرى Cousinery .

أغراض على بك من حملة الشام :

أغراض حملة الشام موضع اختلاف المؤرخين . ونحن إذا تدبرنا خطاب على بك إلى علماء دمشق وأهلها ، الذى اذاعه أبو الذهب قبل دخوله المدينة ، والخطاب الذى كان على بك قد أرسله إلى السيد بهاء الدين أفندى المرادى ، وأشرنا إليهما فى موضع سابق ، اتبيننا أن غرض الحملة الأساسى هو القضاء على عثمان باشا ، خدمة للدين والإنسانية .

والواضح أن هذا التعليل لا يكفى لتبرير الحملة إنما تعلل به على بك فى الظاهر وإشاعه بين الناس . فلم يكن عثمان باشا مقصودا لذاته وإنما بصفته ممثل الدولة العثمانية فى بلاد الشام إذ لا يعقل أن تقوم حملة جرارة مثل الحملة المملوكية وتقضى ما يزيد عن ستة أشهر فى فتح المدن وتنظيم حكومتها بقصد القضاء على شخص واحد مهما كان نفوذه وسطوته .

وقد ضمن الشفالييه دى تولين chevalier de Taulese تلك الملاحظة خطابه إلى قنصل صيدا الجديد فى إبريل ١٧٧٢ بقوله « أن الأشاعة التى راجت وتقول أن أساس حملة على بك والشيخ ظاهر هو حقد هما الدفين على عثمان باشا ، وأنهما على استعداد لتسليم صيدا إلى الحاكم الذى يرسله الباب العالى متى خلصوا نهائيا من عثمان لهى أشاعة باطلة ليس لها أساس من الصحة . . . فان سلوك هذين الثائرين إنما جاء نتيجة فكرة أوسع من ذلك بكثير ، ولا شك فى أنهما كانا لن يتأخرا عن فضال أى باشا آخر يقف فى سبيل اطماعها ومشروعاتها » .

وهنا يتساءل المؤرخ شارل رو Charles-Roux عن ما هية تلك الفكرة ، وعمّا إذا كان على بك أراد أن يصل إلى بلاد الأناضول والقسطنطينية عن طريق سورية كما قيل عن نابليون بونابرت ومحمد على فيما بعد فيعتلى عرش السلطنة أم أراد فقط أن يؤمن ملكه فى مصر (١) ؟

والواضح أن عمل على بك هذا كان مشروعاً للتوسع يرمى من ورائه إلى غرضين أساسيين : أولهما تأمين املاك حليفه ظاهر، إذ هي باب مصر الشمالى الشرقى . وثانيهما القضاء على قوة باشا دمشق وغيره من الباشوات العثمانيين الذين قد تحرضهم الدولة على القضاء عليه في مصر . فقام بتلك الحملات الدفاعية التي اتخذت شكلاً هجوماً لكي يقيم حول نفوذه بمصر سياج امان دائم .

وقد استشف المسيو داميرات D'Amirat قنصل فرنسا في القاهرة ذلك العزم من على بك فكتب في ٣ ديسمبر ١٧٧٠ مذكرة إلى وزارة الخارجية الفرنسية يقول فيها « ان يمكننا — يقصد على بك — بعد أن قضى على كل من كان يناوئه في مصر يعزم اليوم أن يمضى بفتوحاته إلى الخارج قصد توسيع أملاكه ، مثله في ذلك مثل سائر حكام مصر منذ عهد الفراعنة ، وأن امتلاك سورية الآن يشغل كل اهتمامه (١) .

وعلى ذلك ينبغي لنا أن نستبعد ما ذكره بعض المؤرخين من أن سبب الحملة الاساسى هو إغراء ظاهر العمر لعلى بك (٢) أو إلى تحريض روسيا له (٣) . فان هذا التحريض وذلك الإغراء ما كانا ليجديان فتيلاً ما لم يكن يسير على بك عزم صادق على توفير منطقة امان لثورته، تجعله بمأمن من الخطر (٤) العثماني وفي ذلك يقول شارل رو « أن ظاهراً وعلى بك قد وجدنا في انشغال تركيا بحربها ضد روسيا فرصة لتقوية نفوذهما ، ورأى الروس في ثورة ظاهر وعلى بك عاملاً مساعداً لاغراضهم فشحجوا تلك الشركة . وكان سواء لديهم إذا حارباً متحدين أو عمل كل منهما على انفراد وفق ظروفه الخاصة وكل ما كان يسهلها أن تصادف تركيا متاعب داخلية في الوقت الذي كانت تناضل فيه عدوها في الخارج. (٥)

(١) Deherain : T.V. P. 131.

(٢) مثل جودت ج ١ ص ٣٩١ .

(٣) مثل يوسف الدبس : الموجز في تاريخ سورية ج ٢ ص ٢٢٣ .

(٤) De Tott : Memoires.. V.4 P. 55

(٥) Charles-Roux- Echelles.. P. 84

الباب الخامس

نهاية علي بك الكبير

الفصل الأول

انشقاق أبي الذهب

عودة أبي الذهب من الشام — نفيه إلى الصعيد —
نجدة مصرية لظاهر العمر .

عودة أبي الذهب من الشام .
في الوقت الذي انهارت فيه المقاومة العثمانية ببلاد الشام ، وتراجعت القوات
المحاربة العثمانية ترجو الفرار من بأس الجيش المملوكي ، وبعد أن استقر الفاتح
الاصري أبو الذهب ، في مقر وزير الشام ^(١) ، وبدأت البلاد الشامية كلها تحت
رحمته ورهن إشارة سيده علي بك الكبير ، فوجيء الجميع بانسحاب أبي الذهب
وخروجه من دمشق وبلاد الشام ، وعودته إلى مصر بعد أن سحب جميع
الحاميات المصرية من بلاد الشام المفتوحة في يونيه ١٧٧١ (ربيع أول ١١٨٥) .
وكان هذا الانسحاب المفاجيء موضع دهشة كل من سمع عنه . فقد علق على
ذلك المسيو كوزنيري Cousinery قنصل فرنسا في صيدا حينئذ بقوله : « لقد

(١) كان صاحب ايالة دمشق يلقب بوزير الشام كناية عن اتساع نفوذه . كما أنه كان يعتبر
وزير السلطان لشئون الشام .

اثارت هذه الحادثة دهشة الجميع ، ولست أتمالك نفسى من العجب عند التفكير فى هذا الارتداد المفاجئ . بعد كل هذه التكاليف الهائلة التى بذلها على بك لتحقيق مشروعاته الواسعة ، وبعد أن كانت جميع البلاد قد دخلت فى طاعته (١) .

وقد حاول الكتاب والمؤرخون تعليل هذا الانسحاب فوصلوا إلى نتائج مختلفة . ذكر الخورى ميخائيل الدمشقى ، وهو من المعاصرين ، فى مخطوطه أنه « فى اليوم الخامس عشر من وصوله (أى وصول أبى الذهب) وقف متمسك بالشام وأغاة الانكشارية ونادى بالامان وهدم خيامه ورحل راجا إلى مصر . الله لا يمنعه بالسلامة ، ولم يعرف أحد سبب رحيله ورجوعه (٢) » .

ومن المؤرخين من نسبها إلى اسماعيل بك . فانه لميله إلى الدولة العثمانية ، وحسده لعلو شأن أبى الذهب أثر عليه وحذره من غضب الدولة إذا فرغت من حربها مع روسيا ، ثم أثار فيه النعرة الدينية فأظهر له حرمة قتال سلطان مسلم وحرمة تدنيس الأرض المقدسة . وأن من عصى السلطان عصى الله والرسول . والخروج على طاعته خروج عن دين الإسلام . ثم أثار روح الكبرياء فى نفسه ذلك أنه « أخذ يشكو له بغى أسرة الشيخ ظاهر العمر وغيرهم واستكبارهم ويعيب على من يصاحبهم فى أمر من الأمور . وقال له ألا ترى الشيخ على الظاهر كيف يجلس أمامك كأنه فى مجلس الصعاليك ؟ »

وأخيراً حرضه على عدم اطاعة أوامر على بك أو الانسياق وراء رغباته التى أوجتها إليه روسيا . « وعلى بك كما تعلم قد سلك على غير مسلك الاستقامة ، فانه

[Charles-Roux : les Echelles. P. 90(١)]

(٢) أغاة الانكشارية أى قائد البيكيجرى وهو سليم أغا — ميخائيل بريك الدمشقى : تاريخ الدمشقيين مخطوط ١٣٧ — ويدل هذا التعبير على مقدار الفزع الذى داخل النفوس وعدم الاستقرار الذى صادف الأحوال الاجتماعية والاقتصادية بسبب الأعمال الحربية حتى وصفها المسيو كوزنيرى بقوله « ان حالة سورية الحقيقية غير محتملة » . ولكن الثابت باعتراف المؤرخين أنه لم يحصل تعد من جانب الجيش المصرى على أهل الشام .

ترك الطريقة الاسلامية المعروفة واتبع قاترين (كاترين الثانية) امبراطورة الروس ، مع أن الروسيين أعداء دولتنا العلية ويجب على كل مؤمن أن يحاربهم في كل وقت (١) ...»

ولكن جبهة المؤرخين تنسب هذا الانسحاب إلى أبي الذهب نفسه . فمنهم من يرى ان أبا الذهب كان يدبر من زمن طويل وسيلة للقضاء على علي بك، وأنه في جميع خدماته السابقة لمولاه ، سواء في القضاء على منافسيه أو في حملتي الحجاز والسام إنما كان يعبد لنفسه طريق الحكم والسلطان عند ما تنضج الثرة وتحقق راس سيده . فلما دخل دمشق وأمره مولاه في نشوة السرور بالمضي في القتح خشي فوات الفرصة فعاد لقطف الثرة دون أي اكتراث لما يجب عليه نحو رب نعمته من اخلاص وولاء (٢) .

والمؤرخون التتريون أن أبا الذهب تبين له صدق نصيحة اسماعيل بك وتصادف قدوم « أمين الصرة » لبلاد الشام في ذلك الوقت ، فاتصل به ورجاه كسب عفو الدولة بعد تقديم الاعتذار السكافي وبذا حصل أبو الذهب على وعد سلطاني بالعفو وشياخة البلد (٣) .

أما غيرهم فيقول بأن الباب العالي هو الذي نصح لعثمان باشا وإلى دمشق بالاتصال سرا بأبي الذهب ، وبأن يستثمر مهارته السياسية في كسبه إلى جانب العثمانيين . وفوض إليه أن يعده باسم السلطان بالعفو ومركز صهره على بك .

(١) جودت ج ١ ص ٣٤٦ . وأشار إلى ذلك ميخائيل نقولا الصباغ صاحب ترجمة الشيخ ظاهر بقوله « وقيل أنه اشأزت نفسه من على الظاهر الذي كان يدخل عليه بدون استئذان ولا يقدم له الاعتبار المعتاد من كبار سناجق الغز ، وكان يجلس متكأ بجانبه كأنه في قومه كأحد العربان لا في مجلس سلطاني .. » ص ١١٠ — ١١١ .

(٢) De Tott : Memoires ... P. 65 .

(٣) أمين الصرة هو مندوب الباب العالي لتسلم الأموال السنوية المفروضة على بلاد الشام .

جودت ج ١ ص ٣٤٦ — ٣٤٧ .

فكان أن عقد مجلس سرى بين الطرفين في الليلة السابقة للرحيل انتهى بخروج العدوين صديقين بل حليفين (١).

هذا ويعتقد المؤرخ لوكروي Lockroy أن عثمان باشا كان يحتفظ دائماً ببعض الكتاب الماهرين في تقليد الفرمانات السلطانية ، وأنه بهذه المناسبة حاول بمهارته السياسية أن يعوض خسارته الحربية فقابل أبا الذهب سرا وأغراه بمحاربة على بك ، ووعدته بمركزه ، وقدم إليه فرمانا سلطانيا مزورا (٢).

والرأى الذى نأخذ به نحن هو مزيج من تلك الآراء كلها إذ يتضح لنا من وقائع الحال وآراء من سبق من المؤرخين أن عثمان باشا أرسل يطلب مددا من الدولة حتى لا يضطر إلى التسليم . ولما كانت الدولة عاجزة تماما عن مساعدته بالجند والسلاح فى ذلك الحين ، لانشغالها فى الميدان الأوروبى الروسى ، فقد أمدته بسلاحها السرى الذى برعت فى استخدامه ونجحت فى كثير من الأحيان ، نصحت له عن طريق « أمير الصرة » أن يتصل سرا بإسماعيل بك فيستثمر ميله إلى العثمانيين فى كسب عطف أبى الذهب ، واثارة شكوكه من جهة على بك ، وتحذيره من انتقام الدولة عند ما تتفرغ لتأديب العصاة .

وتحت تأثير ذلك النصيح المغرض استعدت نفس أبى الذهب لقبول اغراء عثمان باشا بضمان عفو السلطان ومركز صهره على بك متى نجح فى الفتك به . وكان على أبى الذهب لتنفيذ هذا الاتفاق السرى أن يعزى البكوات الموجودين فى معسكره بالعودة إلى مصر ، وأراد أن يستثير فى نفوسهم حب الوطن والتمتع بما لا قوه من مجد وغفار . فما أن تسلم أوامر على بك بالسير فى الفتوح حتى « جمع محمد بك أمراءه وخشداشينه الكبار فى خلوة وعرض عليهم الأوامر فضاعت

(١) ميخائيل مشافة : مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان ص ٢١ .

(٢) Lockroy: Ahmed le Boucher, la Syrie et L'Egypte au XVIII ieme Siecle. P. 23.

نفوسهم وسثموا الحرب والقتال والغربة ، وذلك ما في نفس محمد بك أيضا ثم قال لهم : ماذا تقولون ؟ قالوا : وما الذي نقوله والرأي لك فانت كبيرنا ونحن تحت أمرك وإشارتك ، ولا نخالفك فيما تأمر . فقال : ربما يكون رأيي مخالفا لأمر استاذنا . قالوا : (ولو كان رأيك) مخالفا لأمره فنحن جميعا لا نخرج عن أمرك وإشارتك . فقال : لا أقول لكم شيئا حتى تتحالف جميعا وتتعاهد على الرأي الذي يكون بيننا ففعلوا ذلك وتعاهدوا وحلفوا على السيف والكتاب ثم أنه قال لهم أن استاذكم يريد أن تقطعوا أعماركم في الغربة والحرب والاسفار والبعد عن الأوطان وكلما فرغنا من شيء فتح علينا غيره ، فرأي أن نكون على قلب رجل واحد ونرجع إلى مصر ولا نذهب إلى جهة من الجهات وقد فرغنا من خدمتنا . وأن كان يريد غير ذلك من الممالك يولى أمراء غيرنا ويرسلهم إلى ما يريد ، ونحن يكفيننا هذا القدر ونرتاح في بيوتنا وعند عيالنا . فقالوا جميعا ونحن على رأيك (١) .

كما أننا نرجح أن الاشاعة التي راجت قبيل الانسحاب بوفاة علي بك ، إنما ابتكرها أبو الذهب نفسه وروجها انصاره بقصد أغراء الجنود على سرعة العودة إلى مصر .

* * *

ولم يكن جند ظاهر العمر أو حلفاؤه المتأولة باقل دهشة من غيرهم لانسحاب أبي الذهب المفاجيء ، وعندما أرسل اليه ظاهر وشيخ المتأولة ناصيف النصار يستفسران عن سر ذلك رد عليهما مهردا متوعدا (٢) .

وكان أن ارتد أبو الذهب قاصدا مصر في سرعة فائقة حتى كان يخيل إلى من رآه أن انسحابه فرار وليس تقهقرا ، إذ كان القائد يتخلى عن كل ما يعوق سرعة

(١) الجبرتي ج ١ ص ٣٦٥ .

(٢) محمد سعيد فرائض زاده . كلشن معارف ج ٢ ص ١٦٢٦ .

تقدمه . وبذلك تمكن من دخول مصر بعد بضع ساعات فقط من وصول الخبر إلى على بك (١) .

ولم يدعش على بك من قبل دهشته في ذلك اليوم ولكنه احتبس دهشته وكظم غيظه . وما أن دخل أبو الذهب عاصمة مصر حتى أفضى إلى أستاذه بسر عودته ، ونسبها إلى أن الجيش المملوكى لاقى من سوء معاملة ظاهر العمر وجيشه وحلفائه ما هدد كيانه . وشكا من تصلف الشيخ ظاهر العمر وعشيرته عليه ، وقال انهم قوم عتاه لا يعرفون الوفاء ولا يعرفون حرمة صاحب ، وأهم أولياء في الظاهر أعداء في الباطن لأنهم كانوا يغتالون كثيرا من العساكر ، ونحن غرباء في بلاد بعيدة والأمداد قريب اليهم من الدروز وتلك العشائر . وعثمان باشا طردناه إلى أقصى مكان وخشيننا أن تنوبنا نائبة في تلك البلاد فرجعنا ، (٢) والظاهر أن غرض أبي الذهب من ذلك كان مزدوجا ففيه تبرير لعودته من ناحية ، ومن ناحية أخرى كان محاولة خبيثة لخلق العداوة والبغضاء بين على بك وحليفه الوحيد ظاهر العمر ،

* * *

نفى أبي الذهب إلى الصعيد :

أما على بك فلم يأخذ الأمر على علاته بل أرسل يستفسر من ظاهر فبعث له هذا بابنه عثمان ليوقفه بنفسه على ما حدث ، وأمره أن يبقى بمصر برهانا على صدق الرسالة التي كلفه بها (٣) . وأراد على بك أن يختبر صدق أبي الذهب وطاعته

(١) Volney , v. I. P. 129.

(٢) حيدر : تاريخ الأمير حيدر ج ٢ ص ٨٠٧ .

(٣) حيدر ج ٢ ص ٨٠٨ ، وقد ذكر ميخائيل نقولا الصباغ ص ١٠٧ أن طاهرا أرسل ابنه عثمان إلى مصر عقب حملة اسماعيل بك إلى الشام ١٧٧٠ عقابا له على انشقاقه ضد والده ، وأنه طلب من على بك حبسه في القلعة فأكرمه على بك وجعله يحضر الديوان وكتب إلى والده أنه فعل معه ما أراد . والصحيح أنه أرسله لمصر عقب انسحاب أبي الذهب من الشام

له فالح عليه في العودة إلى الشام وأصر أبو الذهب على الرفض . عند ذلك تبين على بك خيانة أبي الذهب وسوء نيته ، ولكن « بقي الأمر على الصكوت » كما يقول الجبرتي ، ذلك لأن على بك فضل أن يبقى ذلك الأمر سرا مكتوما حتى لا ينضم إلى أبي الذهب انصاره الذين كسبهم إلى جانبه في خلال حملاته في الحجاز والشام ، وحتى يستطيع على بك متى حانت الفرصة أن يقضى عليه قضاء مبرما ، وأخيرا قرر نفيه إلى الصعيد (١) .

فلما كان رابع أيام عيد الاضحى سنة ١١٨٥ (أوائل ١٧٧٢) أمر على بك تابعه على بك طنطاوى أن يذهب في خاصة اتباعه إلى أبي الذهب فيبلغه أمر مولاه بنفيه إلى الصعيد . وأمره أن يشرف بنفسه على خروجه من القاهرة فصعد طنطاوى بالأمر ، وامتثل أبو الذهب . وفي ذلك يقول الجبرتي « وانقضى شهر شعبان ورمضان وعلى بك مصمم على رجوع محمد بك إلى جهة الشام وذلك مصمم على خلاف ذلك . وبدت بينهما الوحشة الباطنية . فلما كان رابع شهر شوال (١١٨٥ هـ — ١٧٧٢ م) بيت على بك مع على بك طنطاوى وخلافه واتفق معهم على غدر محمد بك . فركبوا عليه ليلا وأحاطوا بداره ووقفت له العساكر بالأسلحة في الرواق فركب في خاصته وخرج من بينهم وذهب إلى ناحية البساتين وارتحل إلى الصعيد (٢) . »

(١) الجبرتي ج ١ ص ٣٦٥ ، وقد ذكر الرحالة فولبي قصة رواها عن أحد تجار البندقية من بطانة على بك ، يقصد كارلوروستي ، تبين بدء حقد على بك على مملوكه أبي الذهب . فقد سأل على بك ذلك التاجر في أحد الأيام مباهايا عما أولاه من عطف وثقة لمحمد بك فقال « هل ملوك الفرنجة أبناء يقايسون ولدى محمد في ثروته ؟ فأجاب التاجر قائلا « لا يامولاي ولكنهم على العكس يحيطونهم بالرقابة ، لأنهم يعلمون أن الأبناء متى ارتفع شأنهم تعجلوا ورائة عرش آبائهم » ومنذ ذلك الحين أصبح على بك يرى في مملوكه أبي الذهب منافسا خطيرا يجب أن يتخلص منه (volney ; V, 1. p. 127.) .

(٢) الجبرتي ، ج ١ ص ٣٦٥ ، ٣٧١ .

غير أن الرحالة فولني Volney ذكر أن على بك أرسل الطنطاوى بقصد اعدام أبى الذهب وأن الأخير تمكن من الإفلات فى ظلام الليل والتجأ إلى الصعيد (١).

ولكننا نرجح الرأى الأول لعدة أسباب منهما : دقة الجبرقى فى رواية اخباره وميل فولنى إلى إدخال روح البطولة فى قصص رحلاته ، وأخيرا لأن رأى الجبرقى الذى أخذنا به عززه رأى المرادى صاحب كتاب « سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر » (٢) وما جاء فى تقرير قنصل فرنسا بالقاهرة المسمى داميرات M. D'Amirat بتاريخ ٢٧ فبراير سنة ١٧٨٣ . فقد ذكر ما ترجمه « وقد شعر على بك بفضل ذكائه بما كان يدبر حوله فى الخفاء فأمر بنفى محمد أبى الذهب من القاهرة ، وقد تم ذلك فى الايام القليلة الماضية ونفذ دون أدنى صعوبة . ذلك لأن على بك سلك فيما عقد عليه العزم وفى طريقة التنفيذ مسلكا ساداته الرحمة ، ولحمته العطف وأساسه الاعزاز الذى كان يحتفظ به دائما لمحمد ... » (٣) .

وكان على بك قد أخذ الحيلة لنفسه فعين أيوب بك حاكما على جرجا ، وكلفه سرا أن يحتال على أبى الذهب ويقتله عقب وصوله . ويخيل إلينا أن أيوب بك لشدة إخلاصه لهلى بك أسر إليه بما اتفق عليه البكوات مع أبى الذهب فى الشام وهذا هو السرفى ان على بك عينه بالذات حاكما لجرجا وكلفه بتلك المهمة الخطيرة .

(١) ذكر فولنى ج ١ ص ١٢٨ وكذا Delaporte, P. 17h. ما خلاصته أن على بك أمر بإغلاق أبواب القاهرة فأغلقت وأمر الحرس بعدم السماح لسكان من كان بولوجها داخلا أو خارجا ، وتهيات النفوس لحدث على وشك الوقوع دون أن يعلموا كنهه . ثم عهد إلى على بك طنطاوى وأتباعه أن يعيد نفس الدور الذى مثله مع رسول السلطان منذ ثلاثة أعوام . ولكن أبأ الذهب كان أسعد حظا من نظيره ، فقد نجح فى اختراق الحصار الذى ضرب حول منزله ، ثم أمر حراس أحد الأبواب أن يفتحوه بأمر على بك حتى يقوم بأداء رسالة خطيرة أمره بها مولاه وبذلك تمكن من الفرار إلى الصعيد .

(٢) الجبرقى ج ١ ص ٥٦ .

(٣) Déhéraïn ; L'Egypte Ottomane. P. 133.

نجدة مصرية لظاهر العمر .

وعز على بك أن يفلت من يده نصر تكلف في سبيله كثيراً من الجهد والمال ،
فبادر بتجهيز حملة يتراوح عددها بين ٨٠٠ و ٦٠٠ مقاتل بقيادة عبد الرحمن بك
وسليمان كاشف ومصطفى جاش أرسلها لمساعدة ظاهر وحلفائه بقصد استعادة
سلطانهم على أملاكهم السابقة . أما صغر عدد الحملة فيعزى إلى اضطراب على
بك الاحتفاظ بمعظم جيشه في مصر بعد تغير موقف أنى الذهب نحوه . وقد
وصلت تلك الحملة في الوقت الذى كان عثمان باشا يستعد للهجوم بالجيش الجرار
الذى كونه من جنود دمشق وحلب وطرابلس وصيدا والقدس والدروز (١) .
وتلاقى الفريقان على ضفاف الأردن في أول سبتمبر ١٧٧٢ حيث منى الجيش
العثماني هزيمة ساحقة تهقر عثمان باشا على أثرها قاصدا دمشق ، بينما هزم المتأولة
جيشا من الدروز بقيادة الأمير يوسف شهاب تحت أسوار صيدا كان يسرع
لنجده العثمانيين . وأخيرا سقطت صيدا في يد الحلفاء للمرة الثانية في أكتوبر
١٧٧٢ ، وبذلك عادت موانئ الساحل من غزة إلى صيدا تحت الحكم المشترك ،
وفى ذلك يقول قنصل فرنسا في صيدا « أن الحملة المصرية الثانية يرجع سببها إلى
رغبة ظاهر في إقرار النظام في أملاكه بمساعدة القوات التى يمددها على بك الذى
هو اليد المحركة لهذه العمليات كلها (٢) . »

وعاد الأمل إلى نفس على بك وعاد الميسو دامتات قنصل فرنسا في
القاهرة يؤكد أن عليا يحجز حملة لاستعادة دمشق وأنه « لازال يفكر في تلك
المشروعات الواسعة » (٣) ولكن أفسد عليه تديره وصول الأخبار من الصعيد
باستعداد أنى الذهب لدخول القاهرة .

١٧ () كانت الحملة تحت قيادة عثمان باشا واشترك فيها خليل باشا والى حلب ، محمد باشا والى
طرابلس ، درويش باشا والى صيدا ، ووالى بيت المقدس ، والشيخ على جنبلاط قائد للدروز
نيابة عن الأمير يوسف الشهابي .

(٢) Charles-Roux; les Echelles P.P.96-97

(٣) Deherain ; l'Egypte. Ottomane. p. 133

الفصل الثاني

الكفاح الأخير

معركة بياضه وانتصار أبي الذهب — فرار
على بك إلى الشام — كفاحه في الشام — عودته
إلى مصر — معركة الصالحية وأسر على بك .

عندما وصل محمد بك أبو الذهب إلى جرجا أكرمه ضجقها أيوب بك ومهد
له طيب الإقامة ، ثم أهدي إليه خيولا وخياما ، وأمدّه بما يحتاج إليه ، وأظهر
له الود والاخلاص . وفي نفس الوقت كان على بك يرسل مملوكه أيوب في شأن
أبي الذهب وحدث أن وقع في يد هذا الأخير خطاب مرسل من على بك إلى
حاكم جرجا أيوب بك يستحثه فيه على قتل محمد بك وبعده بأن يحله محله السابق .
وأراد أبو الذهب أن يمتحن أخلاص أيوب فترك الخطاب يصل إلى يديه ثم
حصل بالحيلة على رد الرسالة فوجد ملخصها أنه « يجتهد في تسميم الغرض ومترقب
حصول الفرصة » .

وقد أورد لنا الجبرتي ملخص مواجهة أبي الذهب لأيوب بك برسالة
أستاذهما قال : « ثم قال محمد بك يخاطب أيوب بك ، يا هل ترى نحن مستمعون
على الأخوة والمصافاة والصداقة والعهد واليمين الذي تعاقدنا عليه بالشام ؟ قال
نعم وزيادة . قال : ومن نكث ذلك وخان اليمين ونقض العهد ؟ قال : يقطع
لسانه الذي حلف به ، ويده التي وضعها على المصحف . فعند ذلك قال له :
بلغني أنه أتناك كتاب من أستاذنا على بك ! فجدد ذلك . فقال : لعل ذلك صحيح
وكتبت له الجواب أيضا . قال لم يكن ذلك أبدا ؟ ولو أتاني منه جواب لا طاعتك
ولا يصح أن أكتبه عنك أو أرد له جوابا . فعند ذلك أخرج له الجواب من

جيبه ، وأحضر إليه ذلك الرسول فسقط (أسقط) في يده وأخذ يتنصل ببارد العذر فعند ذلك قال له : حينئذ لاتصح مرافقتك معي وقم فاذهب إلى سيدك . وأمر بالقبض عليه وانزلوه إلى المركب ، وقطعوا يمينه ، ثم شبكوا لسانيه في سنارة وجذبوه ليقطعوه . فتخلص منهم والقي بنفسه إلى البحر فغرق ومات . وكان قصد محمد بك أن يفعل به ذلك ويرسله على هذه الصورة إلى سيده بمصر (١) معركة بياضة وانتصار أبي الذهب .

وبموت أيوب بك تغير الموقف السياسي في مصر ، ذلك أن أبا الذهب أصبح محورا التفت حوله جميع العناصر المعارضة لعلى بك تلك التي سلبها نفوذها وأموالها ونفاها من قبل إلى الصعيد وأهمها قبائل الهوارة واتباع صالح بك والقاسمية . (٢)

وأخذ أبو الذهب يؤلف قلوب أنصار سيده ، فكسب إلى جانبه عددا لا يستهان به ، وسار بحمل لواء العصيان قاصدا القاهرة في ابريل ١٧٧٢ (١١٦٨) ولم يعد الصعيد تحت حكم على بك بشكل من الأشكال (٣) .

(١) الجبرتي ج ١ ص ٢٦٥ ، ج ٢ ص ٣٧ — وقد نفذ ذلك عبد الرحمن أغا مستحفظان سابقا .

(٢) الجبرتي ج ١ ص ٣٦٦ .

(٣) ذكر الجبرتي أن أبا الذهب سار نحو القاهرة بعد قضاء سبعين يوما بالصعيد ج ١ ص ٣٦٦ . وقد وصل التاجر لوزيان عائدا إلى مصر في الوقت الذي كان فيه أبو الذهب بالصعيد فزعم أنه عاد من سورية إلى الصعيد مباشرة ولم يدخل القاهرة — لوزيان ص ١١٤ . وانساق وراءه سافري ج ٢ ص ٢٣٦ — ولكن هناك براهين قاطعة على خطأ هذا الرأي وصحة ما ذهبنا إليه منها (١) مسألة وجود أيوب بك كما على جرجا من قبل على بك مع أنه كان بالشام مع أبي الذهب . (٢) خيانة اسماعيل بك وانضمامه لأبي الذهب وهو أيضا كان مع أبي الذهب بالشام ثم عاد إلى القاهرة معه . (٣) تقرير قنصل فرنسا بالقاهرة بتاريخ ٢٨ فبراير ١٧٧٢ الذي أشرنا إليه — والواقع أن أبا الذهب دخل القاهرة واستمر بها من أوائل رجب ١١٨٥ حتى أوائل شوال أى حوالى ثلاثة شهور .

ولم يكن من الهين على على بك أن يشاهد انهيار صرح أحلامه ، فعزم على تاديب العاصي وردّه إلى الطاعة الواجبة عليه نحو استاذّه ، فجهز تجريدة عظيمة أرسلها برا بقيادة إسماعيل بك واعقبها بالامدادات في النيل . ولم يدر على بك أن إسماعيل كان الورقة الراجعة الباقية في يد أبي الذهب ليستخدمها في الفرصة المناسبة . وكان أن فوجيء على بك بانضمام إسماعيل بك إلى أبي الذهب . وتقدم الجميع نحو العاصمة (١) .

واتخذت الحركة شكلا جديدا ، فلم تعد حركة مملوك انشق على سيده ، وإنما أصبحت ثورة جاحقة كغيرها من ثورات المماليك التي سبقتها والتي تلتها . انضم المماليك فيها إلى حزبين أحدهما في الصعيد على رأسه محمد بك والآخر في القاهرة وعلى رأسه على بك .

يقول الجبرتي « ومنذ ذلك اشتد الأمر بهلى بك ولاحت على دولته لوائح الزوال ، وكاد يموت من الغيظ والقهر . وقد سبغ صنّاجق والكل مزلقون ، وسماهم أهل مصر السبع بنات ، وهم مصطفى بك وحسن بك ومراد بك وحزبه بك ويحيى بك وخليل بك كوسه ومصطفى بك أوده باشه . وعمل لهم يرقا وداقا ولوازم وطبلخانات في يومين . وضم اليهم عساكر وطوائف ومماليك واتباعهم (٢) واضطر على بك في آخر الأمر أن يلجأ إلى موضع ثقته على بك الطنطاوى فعينه على رأس حملة ثالثة أفرغ في تجهيزها كل جهده . وأمره بوقف سيل العصاة الجارف . ثم خرج بنفسه إلى البساتين ، وعسكر هناك للأشراف على تحصين الضفة الشرقية للنيل وانتظار النتيجة وإصدار التوجيهات اللازمة (٣) .

(١) الجبرتي ج ١ ص ٣٦٦

(٢) تقليد على بك لسبع صنّاجق يشير ضمنا إلى عدد البسكوات الذين انصموا لأبي الذهب ومزلقون أى متزينون ناعمون ، وتسميتهم بالسبع بنات كناية عن منتهى الترف وانترفه وعدم

الصلاحية لجهاد الحرب — الجبرتي ج ١ ص ٣٦٦

(٣) كان ذلك في منتصف المحرم ١١٧٦ — والبساتين قرية جنوب مصر القديمة على الضفة الشرقية للنيل يشغل معظم أهلها بقطع الأحجار وعندها كان يعبر المسافرون من الصعيد =

وتقدم الطنطاوى حتى لاقى طلائع أبى الذهب شمالى بنى سويف تجاه بياضة
ومنى بهزيمة ارتد على أثرها فاشلا إلى مولاه . وتأكد على بك من عبث المقاومة
فارتد إلى القاهرة وتحصن بالقلعة مع غروب الشمس . أما أبو الذهب فقد عسكر
على الضفة الغربية للنيل تجاه بياضه . وعزم على بك أن يقاوم مستعصما بالقلعة
ولكن عثمان بن ظاهر أقنعه بضرورة الالتجاء إلى عكا حيث يجد ظاهرا على
أتم استعداد لمداده بالمال والرجال لاستعادة ملسكه المسلوب ، وبين له أن
البقاء فى القلعة يسمح لعدوه بحصارها وقطع الامدادات عنها فيسقط فى يده
حيا أو ميتا (١) .

* * *

فرار على بك إلى الشام :

اقتنع على بك بصدق نصيحة عثمان وحكمتها وعزم على تنفيذها ، فأمر رجاله
بتجهيز ماله ومتاعه الخاص والاستعداد للرحيل . ثم ارسل أمرا إلى المعلم رزق
وهو المتصرف فى شئون المالية المصرية باحضار ما بالخزينة من مال . ولكن
رزق كان قد اختفى (٢) .

== إلى الوجه البحرى من الضفة الغربية إلى الضفة الشرقية ، وذلك يحدث بسهولة لوجود عدة
جزر فى عرض النيل تجاه البساتين .

(١) ميخائيل نقولا الصباغ ص ١١٩ — ١٢٠ . ويدكر الجبرقى ج ٢ ص ١٩ فى ترجمته
للأمير على أغا المعمار (+ ١١٩١) أنه من خشدا أشين صالح بك الذى قتل فى عهد على
بك انضم إلى أبى الذهب واشترك فى معركة بياضة « وخرج هو ومن معه وبأيديهم مسارق
غلاظ قصيرة ولها جلب من حديد ، وفى طرفها أزيد من قبضة بها مسامير مقببة محدة الرؤوس
إلى الخارج يضربون بها خوذة الفارس ضربة واحدة فتتخسف فى دماغه . وكانت هذه من
مبتكرات المترجم حتى انه سمي بابى الجلب » وقد قتل فى المعركة .

(٢) ذكر الصباغ ص ١١٩ أن على بك اصطحب معه المعلم رزق عند خروجه من مصر
وذلك على أساس وجوده بالشام مع على بك والواقع أنه اختفى ثم عاد إلى الظهور فجأة عند
حصار على بك ليافا . وسيعود إلى الاختفاء مرة ثانية فى ظروف سنشرحها فيما بعد ونناقش
أثر هذا الرجل فى فشل حركة على بك .

ولم ينس على بك أن يرسل سفيره يعقوب الأرمني إلى أمير الاسطول الروسى الكونت أرلوف Count Alexis Orlov يخبره بما حدث ، وبعزمه على التوجه إلى سورية ، ويرجوه أن يرسل إليه هناك مددا من الجنود والمدافع والخبراء يستعين بهم على العودة إلى مصر . وكانت هذه هى الرسالة الثانية من على بك إلى أمير البحر الروسى (١) .

وفى ليلة ١٢ أبريل ١٧٧٢ (٢٥ المحرم ١١٨٦) غادر على مدينة القاهرة . وكان ضمن بطانته عثمان بن ظاهر ، والتاجر اليونانى سوفير لوزيان كوزموبوليتس . وقد كتب هذا الأخير يصف خروج على بك فقال : « أما عدد من تبعه من المقاتلة فلم يكن يتجاوز سبعة آلاف رجل من الخيالة والمشاة . وقد لزم ست وعشرون بعيرا لنقل ماله وثيابه . أما ثروته الخاصة فكانت تقدر بثمانمائة ألف محبوب نقدا ، والباقي مجوهرات تقدر قيمتها بثمانية ملايين من الدوقات . وغادر مصر فى مساء ١٢ أبريل ١٧٧٢ وجد فى السير حتى لا يلحق به أبو الذهب . . . وفى اليوم الثالث والعشرين من الشهر وصل قرب مدينة حيفا وعسكر فى السهول التى يشرف عليها جبل الكرمل (٢) .

أما أبو الذهب فقد دخل القاهرة فى صباح الخميس ١٣ أبريل ١٧٧٢ (٢٦ المحرم ١١٨٦) بعد أن غاب عن القاهرة سبعين يوما . وكان أول أعماله أن أمر بالقبض على من عرف بميله إلى على بك واعدم عبد الله كيتخدا الباشا . وأمر

(١) Lusignan Chap. III. p. 117

(٢) يرى بعض المؤرخين أن عدد الحملة مبالغ فيه . وأن جيشه لم يكن يتعد ثمانمائة مملوك وألف من المغاربة المرتقة — وقد صاحب على بك ثلاثة عشر بيكا وهم على بك الطنطاوى ورضوان بك أبى أخته ، حسن بك ، خليل بك ، مراد بك ، ابراهيم بك (وهما غير ممالك ابى الذهب) وعبد الرحمن بك ، لطيف بك ، ذوالفقار بك ، عاكف بك وسليم آغا الإنكشارية وسليمان كخيا .

بإبطال النقود التي عليها اسم على بك (١). ثم ارسل يبشر الباب العالي بما وفق إليه . وكان ذلك موجبا لزيادة الممنونية (٢) .

كفاح على بك في الشام :

ولم يكذب على بك إلى الشام حتى أصابته حمى شديدة ، لفرط ما لاقاه من الجهد والاعياء ، وثقل وطأة ماناء به من اضطراب النفس والذهن كلها انتهت به فكرة خيانة أنى الذهب . وخف إليه ظاهر فواساه وشجعه وطيب خاطره ووعد به بكل مساعدة ممكنة وعرض عليه الانتقال إلى قصره بعكا فشكره معتذرا . ولما عاد ظاهر ارسل إلى حليفه المريض طبيبه ووزيره إبراهيم الصباغ فشفى بعد ثلاثة أسابيع (٣) .

وفي تلك الاثناء كان عثمان باشا قد عاد إلى دمشق ، وتقدم بحمائه لحصار صيدا يحاول استردادها من يد الحلفيين . وكان الأمير منصور الشهباني صديق ظاهر قد تنازل عن ولاية الدروز إلى ابن أخيه الأمير يوسف الشهباني وهو الموالي للعثمانيين (٤) . أما بلاد الشام فلم تكن في حالة استقرار . دليلنا ما جاء في الوثائق التاريخية التي نشرها أحد المعاصرين وهو الخوري ميخائيل بريك الدمشقي ، إذ يقول في حوادث ١٧٧٢ « وأما على بك فإنه هرب إلى عند ظاهر العمر في عكا وركب معه ظاهر العمر وحاصروا يافا وبعد ثمانية أشهر ملكوها والأخبار مشكلة كل يوم وعطل السبب وقلة الأمان والخاوف داخل وخارج والغلا متصل . . . (٥) »

(١) الجبرتي ج ١ ص ٤٦٦ ، ٣٨١

(٢) جودت ج ١ ص ٣٤٧

(٣) ميخائيل نقولا الصباغ العكاوي ص ١٣٠

(٤) كانت صيدا تحت الحكم المشترك يحكمها أحمد أغا الدنكرلي باسم ظاهر وحسن بك باسم على بك .

(٥) ميخائيل بك الدمشقي ، تاريخ الشام من ١٧٣٠ — ١٧٨٢ ص ٩٨ — ٩٩

وفي أثناء مرض على بك مرت بعض قطع الاسطول الروسى بعكا في طريقها من بيروت إلى جزيرة باروس^(١) ، وكان على رأسه الشفالييه جورج ريزو Chevalier George Rizo أحد مساعدي أمير البحر الروسى والشفالييه قسطنطين سارو Ch. Constantin Psaro من أخص المقربين إليه^(٢) . فلما علما بوجود على بك ومرضه زاراه بالمعسكر لعيادته وتقديم التحيات إليه . فأكرمهما على بك وزودهما بالهدايا وأصبحهما بذى الفقار بك ومعه هدية إلى الكونت أورلوف مع رسالة يرجو فيها ارسال بعض المدفعية والذخيرة وحوالى ثلاثمائة البانى ممن التحقوا بخدمة الروسيا حتى يتمكن من العودة إلى مصر ، وهذه هى الرسالة الثالثة من على بك إلى الكونت^(٣) .

* * *

وكان على بك قد عزم على البقاء فى انتظار وصول النجدة الروسية . ولكن عند ما علم بتهديد العثمانيين لصيدا بادر هو وحليفه إلى ارسال جيش مشترك من المماليك ، وعلى رأسهم على بك الطنطاوى ، والصفديين والمتاوله وعلى رأسهم صليبي بن ظاهر والشيخ كريم صهره ، ورغم تفوق الجيش المحاصر للدينية على الحامية المصرية فقد تمكن المماليك وحلفاؤهم من هزيمة العثمانيين الذين

(١) ضرب الأسطول الروسى بيروت ونهب بعض أنحائها ، ثم غادرها بعد تعهد حاكمها بدفع جزية سنوية للروس . أما القسم الرئيس من الأسطول بقيادة الكونت أورلوف فكان راسيا بجزيرة باروس لحدى جزر الأرخبيل الشمالية .

(٢) هذان القائدان البحريان من سكان جزر الارخبيل التابعة للدولة العثمانية . ولكن جزيرتهما ، بسبب الدعاية الروسية فى ذلك الوقت قامت بثورة فى مايو ١٧٧٢ مستغلة فرصة انشغال الدولة فى حربها ضد روسيا . ثم تطوع بعض أبنائها للعمل فى الأسطول الروسى بالبحر الأبيض .

(٣) كانت الهدية مكونة من ثلاثة جياذ من كرام الخيل وفرس على بك الخاصة ، وكلها مطهمة . وتخبروا ذا الفقار سفيرا لأنه كان بهى الطلعة دمت الأخلاق يجمع الصفات اللازمة لنجاح السفير .

ارتدوا سريعا إلى دمشق . وعاد الجيش المصرى إلى معسكر على بك بعد انقاذ صيدا .

ولم يشأ على بك — وقد شجعه هذا النصر ، وأعاد إلى نفسه بصيصا من الأمل المفقود — أن ينتظر حتى تصله النجدة الروسية ، فعول على تطهير الطريق إلى مصر حتى إذا ما وصل المدد الروسى تقدم مباشرة فدخل القاهرة . ورحب ظاهر بتلك الفسكرة وانضم إلى على بك بكامل قوته ومعه أولاده وحلفاؤه المتأولة . وتقدم الجيش المشترك ، وبدأ بحصار يافا فى منتصف أغسطس ١٧٧٢ ، وزود ظاهر الجيش المحاصر بما يحتاجه من ذخيرة ومنونة وعتاد عن طريق البحر بسفن افرغت حمواتها شمالى يافا ثم أوصلتها الجبال إلى معسكر على بك .

وكان حسن باشا حاكم صيدا السابق — شقيق مصطفى باشا حاكم نابلس المعادية للمصريين — قد اختزن فى يافا قدرا وافرا من الزاد والعتاد فرفض التسليم وركن إلى الدفاع واحباط خطط المحاصرين .

وأخذ على بك يضيق الحصار على يافا شيئا فشيئا فى نظام محكم ، فاحاط بالبلدة فى شكل دائرى معسكر على محيطه جماعات من المقاتلة ، بين كل جماعتين منها مائتا ياردة تقريبا ، أما كل جماعة فكان قوامها مائتين من الجنود وعلى رأسهم أحد البسكوات (١) . ثم نصب على بك بطارية للمدافع تجاه باب المدينة الشرقى ، تتألف من مدفعين جديدين زنة قنبلتهما اثنا عشر رطلا ، عهد بقيادتها إلى عبد الرحمن أغا (٢) . وعززها ببطارية أخرى تتألف من مدفع نحاس من عيار ١٦ بوصه وزن قنبلته ١٦ رطلا .

(١) كان خليل بك ولطيف بك فى الشمال الشرقى المدينة وبينهما مائتا ياردة ثم عبد الرحمن بك ومراد بك فى الشرق ، ومصطفى بك وعاكف بك فى الجنوب .

(٢) عبد الرحمن أغا من أهالى طرايزون له خبرة بالمدفعية ، وكان يقوم بإطلاق المدافع بعض اليونانيين تحت إشرافه .

ورغم وطأة الحصار فإن المدينة صمدت للمهاجمين ، ذلك لأنها كانت تمون من البحر . وطال الحار ، فارسل على بك تجريدة فتحت غزة ودخلت الرملة والدبغير قتال ثم عادت الى حصار يافا (١) . واحكم الحلفاء الحصار ، وبدأ المدافعون يشعرون بوطأة الجوع والحاجة الماسة إلى الوقود . لذلك استعاضوا عن القمح بالأرز وأخذوا يتسللون في ظلام الليل ، يقطعون أشجار الفاكهة التي تحيط بالبلدة لاستخدامها كوقود ، ولم يجد على بك بدا من اتخاذ الحزم ، فامر رجاله بقطع تلك الأشجار ليحرم أهل يافا من بعض مصادر تموينهم (٢) .

وأخيرا وصل ذو الفقار بك في منتصف سبتمبر على سفينة روسية ترفع العلم الانجليزى يقودها الكابتن براون Caprain Browne ومعه يعقوب الارمنى سفير على بك الذى كان قد أرسله إلى أمير البحر الروس قبل قيامه من مصر . وجاءت السفينة تحمل النجدة الروسية التي كانت تتألف من ضابطين روسيين ، ومعها بعض الهدايا ، وخطاب من الكونت أرلوف الى على بك — ولما قدمها ذو الفقار الى على بك نال اشرف تقبيل يده : أولهما الكابتن كلنجلينوف S. Pleschoff من Cap. Clinglinoff من الفرسان والثانى اللقثانت سيرجى بلستشوف S. Pleschoff وكانت الهدية تتكون من ثمان قطع من الحرير المطرز بورود صيغت الذهب وأسلاك الفضة من صنع جزيرة بحر الارخبيل ، وثلاثة مدافع اليدان من النحاس زنة قبيلتها أربعة أرتال ، وسبعة بنادق جيدة المعدن مع خمسائه طلقة وثلاث جرارات للدفاع حديثة الصنع .

(١) قيل أن أبا الذهب كان يرسل المئون من مصر إلى يافا لتقوى عزيمه المدافعين عنها . وقد تعين حسن بك حاكما على اللد ، سليم أغا لحكم الرملة .

(٢) كان يحيط بيافا حدائق ذات بهجة وبساتين ليون وبرقال ورمات ذات شهرة عالمية . وكان على بك قد أمر رجاله ببناء على رجاء أهل يافا أن يتجنبوا اتلاف تلك الأشجار وأن يكثفوا بقطع ثمارها متى شاءوا . فلما اضطر أهلها إلى قطع بعضها لانضاج خبزهم أمر على بك بقطعها جميعا حتى يحرمهم من تلك الفائدة ويدفعهم إلى التسليم .

وأما الرسالة فكانت من الكونت أرلوف إلى على بك مكتوبة باللغة الروسية في إحدى وجهيها ، وبالإيطالية في الوجه الآخر . وقد ترجمت إلى على بك بالتركية فكانت تتضمن وعودا بالنجدة السريعة .

ولاقى الضابطان الروسيان من كرم على بك ما جعلهما يقبلان على العمل بهمة فائقة ، وهكذا أقيمت بطارية ثالثة جنوب يافا ، على بعد مائة ياردة من أسوارها ، تتألف من ثلاثة مدافع زنة قبيلتها اثنا عشر رطلا قادها السكايتن كلنجليينوف وأصلي الأسوار نارا حامية صدعتها على الأثر .

ولكن سوء حظ هذا الضابط جعله يوقف الضرب ، ويطل برأسه من شق في السور ليرى مبلغ ماسببته قتاله للسور من تلف ، فاطلقوا عليه النار من الداخل واردته رصاصة استقرت في صدره .

واغتم على بك لوفاته ، وانتهز الفرصة للثأر فطلب من السكايتن براون أن يعبره ثلاثة من مدافع السفينة الروسية — زنة قبيلتها ٦ أرطال — فاجيب الى طلبه وعززت تلك المدافع البطارية الشمالية الشرقية التي يقودها خليل بك ولطيف باشا . ورغم تصدع الأسوار لاقى المهاجمون في هجمتهم الثالثة دافعا مجيدا جعلهم يرتدون بعد خسارة كبيرة في الأرواح .

وطالت مدة الحصار فأثر الضابط الروسي أن يرتحل عائدا بسفينته . وزوده على بك برسالة شكر للكونت أرلوف ، وأخرى للقيصرة يرجوها العون والمدد وكانت تلك هي الرسالة الرابعة من على بك للقائد البحري الروسي (١) .

وفي منتصف ديسمبر جاءت بعض قطع الأسطول الروسي إلى بيروت لتسلم الجزية المفروضة . ومرت في عودتها بيافا ، وجاء قائدها الشقالييه بنيانوتي الكسيانو Chev. Panagioti Alexian يحمل رسالة من الكونت أرلوف إلى

(١) كان بين القتلى في أثناء ذلك الحصار ابراهيم بك وهو ثاني البكوات الذين فقدهم على بك في تلك الحملة ، بعد قتل أحمد بك في تحريده انقاذ صيدا . وقد حمل رسالة على بك الرابعة الى القائد الروسي سليمان كخيا وذلك لان ذا الفقار كان مريضا مرضا أودى بحياته بعد قليل وهو ثالث من فقد على بك من البكوات .

على بك وأخرى من الشفالية ريزو Ch. Rizo إلى ذى الفقار بك (١) .
واقصرت رسالة الكونت كالعادة عن التحيات والتمنيات والوعود الخلافة
بالمساعدة العاجلة .

وساهمت قطع الأسطول في ضرب يافا من البحر . ولكن الظروف الجوية
اضطرتها إلى مغادرة يافا والعودة إلى قواعدها .

وسلح ظاهر بعض السفن وأرسلها لقطع خط التوين البحرى من مصر .
فاضطر حسن باشا حاكم يافا أن يفر ليلا إلى أخيه حاكم نابلس . وتمكن الحلفاء
من دخول يافا في أول فبراير ١٧٧٣ ، بعد انسلاخ ثمانية أشهر على حصارها .
وبسقوط يافا اختتم على بك أعماله الحربية بفلسطين ونشط يستعد للعودة
إلى مصر .



عودة على بك إلى مصر :

كان كل يوم يمر بعلى بك وهو في الشام يضعف من قوته ، ويزيد من قوة
خصمه أنى الذهب . فلما تأخر وصول النجدة الروسية ، وانتهت الأعمال الحربية
التهديدية بفلسطين أعلن عزمه على العودة إلى مصر . وقد عارض في تلك الرغبة
حليفه ظاهر العمر ونصحه بانتصار المدد الروسى والاهتمام بتكوين فرقه وحسن
تجهيزها وترك العصاة للزمن فهو كفيل بانقسامهم وتحطيم قوتهم (٢) .

وقد كان ظاهر ضعيف الأمل في النصر إذا سار على بك يطلب مصر وهو
في تلك الحالة من الضعف والجهد والعناء والاضطراب النفسى ، كما أنه كان يرى
في مغادرته البلاد الشامية خسارة لاتعوض إذ كان قصد ظاهر الأول اتخاذ على
بك معينا له على فتح ما استعصى عليه من المدن وتوطيد ملكه الجديد فيها وقد
أشار إلى ذلك القنصل الفرنسى في صيدا بقوله « إنه وإن كان يخيل إلينا أن على

(١) ولم يكن ريزو يعلم بوفاة ذى الفقار بك لان سليمان كخيا لم يكن قد وصل اليهم بعد

(٢) Savary ; Lettres. T2 lettre XVII, pp. 243—5. (٢)

هو القوة المحركة لتلك الأعمال التي جعلت تلك المنطقة مسرحا للكوارث ، فانها ليست كلها سوى مشروع للتوسع أوجدته اطباع ظاهر للاستيلاء على جميع المدن الساحلية ، (١)

وخشى أبو الذهب أن تتغلب حكمه ظاهر على رغبة على بك الملحة ، فأوعز الى بعض البكوات الموالين له ، وبعض ضباط الفرق ، من غير فرقة اليكيجرى أن يكتبوا إلى على بك يستنجدونه ويستغيثون به من ظلم أبي الذهب وقسوته ويدعونه إلى دخول مصر (٢) . أشار إلى ذلك الجبرني بقوله « وتحرك على بك للرجوع إلى مصر ، وجيش الجيوش فلم يهتم المترجم — أبو الذهب — لذلك وكاد له كيدا بان جمع القرائصة والذين يظن فيهم النفاق وأسر اليهم أن يرسلوا على بك ، ويستعجلوه في الحضور وينمقوا له مساوىء المترجم ومنفرائته ، ويعدوه بالخامرة معه والقيام بنصرته متى حضره وأرسلوها اليه بالشريطة السرية فراج عليه ذلك واعتقد صحته ، وأرسل اليهم بالجوابات وأعادوا له الرسالة كذلك باطلاع مخدومهم وأشارته ، (٣)

واغتر على بك بتلك الرسائل ، وألح على ظاهر في العودة . وطلب منه مالا لتجهيز الحملة ، وادعى أنه ليس في حاجة إلى عدد كبير من الجند « لأنه حضري مكاتب من سناجق مصر ، وكلهم معي يدا واحدة على محمد بك ، وعرفوني أنه حالما تظهر اعلاى لهم حيث هم في الصالحية ينضمون إلينا متحدين معنا » .

Charles-Roux ; Echelles...P. 67. (١)

(٢) في كل المحاولات التي اتخذت لحيانة على بك أو القضاء عليه لم تشتك فرقة البكييجرى في واحدة منها ، وبقيت على الحياد محتفظة بحميل على بك وحسن معاملته — وكان من بين مظالم أبي الذهب الرسوم التي فرضها باسم « رفع المظالم » وكانت هي نفسها ضربا جديدا من هذه المظالم السابقة .

(٣) الجبرتي ج ٤ ص ٤١٨ — ٤١٩ . أما الشريطة السرية فيقصد بها اصطلاح بين الطرفين . وتسمى في عصرنا الحاضر « الشفرة »

ولما اطلع إبراهيم الصباغ — وزير ظاهر ومشيره — على تلك الرسائل تبين فيها الخديعة ، ذلك أنها كانت متقاربة اللفظ والمعنى ، ونص المكتوب الواحد منها لا يختلف عن الآخر ، كأنها كتبت باملاء فرد واحد ، فلما سمع على بك كلام إبراهيم ضحك وقال : « هذا ظن السوء من العاقل الفطن ، لكن أنا اخبر منك باولادى وأهل بيتى . . . » وعند ما حذر إبراهيم الصباغ ظاهرا أن هذا الا مساعدة على بك فى محنته قائلا : « سلطان عظيم الشأن خانة الزمان واستنجدنا ، أما ينبغى لنا ان نساعد وننجده (١) » وذلك من كثرة الخاح على بك .

وعاد على بك إلى مكاتبة البكوات فردوا يؤكدون ويقسمون . وأخيرا عاد سليمان كخيا من سفارته إلى السكونت أورلوف دون أن يصحب مددا ، وكان المعلم رزق قد ظهر بعد غيبة طويلة واعاده سيده إلى خدمته وراح يؤكد لعلى بك أن ساعة الرحيل قد دنت (٢) .

وأخذ ظاهر يجهر مددا لحليفه على بك ، واخذ هذا يهيه نفسه للرحيل ، فأمر بحماية الأموال المفروضة على غزة والرملة واللد وجمع ما عسى يكون بها من مشونة للجيش وعلف للخيول . ثم سحب حاميات تلك المدن ، وبدأ تحرك الجيش من يافا فى أوائل مارس ١٧٧٣ . وكان الجيش مكونا من نماليك على بك وجند الشيخ ظاهر من الصفديين وعلى رأسهم صليبي ابنه وكريم صهره ، ثم ثلاثة آلاف من المغاربة المرتزقة ، وكان عدد الجند جميعا لا يتعدى ثمانية آلاف رجل بين راكب وراجل .

ومر الجيش فى طريقه بغزة فى أواخر مارس ، ثم خان يونس فى مساء ٤

(١) مبخائيل نقولا الصباغ : تاريخ الشيخ ظاهر . ص ١٢٣ — ١٢٥
(٢) عاد سليمان كخيا فى أواخر فبراير ١٧٧٣ — أما دور المعلم رزق فى خيانة على بك فسناقشه فى موضع آخر .

ابريل (١١ المحرم ١١٨٧) ثم تقدم إلى الصالحية بعد أن استراح يومين فوصلها في ٩ ابريل . وهناك التقى جيش على بك بطلائع جيش أبي الذهب ، ورغم تفوقه في العدد على جيش على بك فإن المعركة لم تستمر سوى أربع ساعات انسحب الجيش المدافع على أثرها بعد أن منى بهزيمة كبيرة وخسارة في الأرواح وتمكن على بك الطنطاوى من الاستيلاء على الصالحية .

وأسقط في يد أبي الذهب ولكنسه لجأ إلى الحيلة والخديعة ، فجمع ذوى الحيشة من رجال القاهرة وأثار فيهم روح الجهاد دفاعا عن الدين متظاهراً أمامهم بمظهر المدافع عن الحريات والعقيدة الدينية قائلاً « لقد احطت علما بالدعوة التي وجهها بعضكم إلى على بك . أما أنا فأني (بك) مثله وحيثما ذهبتم فيمكنني أن أحفظ بهذا الشرف : ولكنني أرى لزوما على قبل مغادرة هذه البلاد بصفتي مسلما قوى الإيمان ، أن أخبركم بأن على بك الذى تحسبون أنه سيحكمكم خيرا مني إنما هو حليف الروس الملحدين وسيستقدم جيشا أوربيا كبيرا يحل محلهم . وبما يزيد الطين بله أنه في قلبه يميل إلى المسيحية أكثر من الإسلام ، ولكم أن تثقوا بقولى أنه بمجرد أن يتمكن هؤلاء النصارى من أرضكم سيفتصبون أموالكم ويستحيون نسائكم وبناتكم ، وأخيرا سيجبرونكم على تغيير دينكم . ولأنى لأرجو خلاصا أن تثقوا في قولى حتى لا تقع فيما وقع فيه اخواننا مسلمو الهند .

فعندما ظهر الأوربيون لأول مرة على ساحل ملبار سألته طوائف السكان وعاملوهم معاملة كريمة . إذ كانت دعواهم أنهم جاؤا بقصد التجارة ، ولما سمحوا لهم بمزاولة تلك الحرفة الشريفة ، بدأوا يستقرون ويقيمون المنشآت باسم المصانع ، وتدرجوا حتى أصبحوا حكاما للهند وراحوا يفتصبون الأموال وينتهكون الأعراض ، بل أنهم فعلوا ما هو افظع من ذلك . . . أنهم بشروا بالدين المسيحى بين فريق المؤمنين من اتباع الرسول الأمين .

ويمكنكم الآن أن تتصوروا ما سيفعله أولئك الأوربيون متى قدموا إليكم وعلى رأسهم رجل كعلى بك ، أيها المسلمون الموحدون . . . اعينوني على طرد

عدو بلادكم وعدو شريعتكم ، والا فتحملوا كل الشرور التي يعانيتها أخوانكم في الهند ، والآن اعتقد أني أدبت واجبي كمسلم ولكم الخيرة بيني وبينه (١) .
ونهمض أبو الذهب متظاهرا بالانصراف فمنعه الجميع معلنين في وقت واحد عزمهم الاكيد على الاستشهاد في ساحة الجهاد ، واستغل أبو الذهب فترة ذلك الحماس فأعلن في المدينة أن كل « من أحب دينه ووطنه فليستقدم إلى حمل السلاح (٢) » .

* * *

معركة الصالحية وأسر على بك :

وبذلك تمكن أبو الذهب من جمع جيش كبير سيره للقاء على بك بالصالحية ، وبقي هو بالعادية . وكتب القنصل الفرنسي بالقاهرة المسيو داميرات يقول في ابريل ١٧٧٣ « أن زعماء البلد يشيرون الآن حربا دفاعية ، والجميع يتطلعون إلى نتيجة ذلك الكيفاح (٣) » .

ولما سمع على بك تلك الاخبار السيئة أثرت في نفسه تأثيراً سيئاً ، زاده سوءاً شدة تعبته وقسوة حرارة الجو ووقع تحت برائن الحمى . ورغم وطأة المرض كان على بك يصمم على أن يشرف بنفسه وهو جالس عند باب فسطاطه على تدريب جنوده اليومى — وصف التاجر لوزنيان التقاء الجيشين فقال « وبدأت طلائع جيش أبي الذهب في اليوم الثالث عشر من شهر ابريل . ورغم قلة عدد

(١) لبس أبو الذهب ثوب الحمل ، وبرأ نفسه من رسائل التحريض التي وجهت إلى على بك للتغريب به .

(٢) lusignan Chap. III pp. 241. 145 — 7.

(٣) ذكر بعض المؤرخين ، مثل حيدر ج ٢ ص ٨٢٤ ، أن الواقعة الحاسمة كانت في غزة والواقع أنها في الصالحية . وقد ذكر الجبرتى ج ١ ص ٣٨٦ وصفا للصيوان الذي كان يقيم فيه أبو الذهب بالعادية قال « هو صيوان صالح بك في غاية العظم والاتساع والعلو والارتفاع وجيم دوائره من الجوخ وبطائنه بالأطلس الأحمر وطلائعه وعساكره من نحاس أصفر مموه بالذهب . أما العادية فهي المنطقة الواقعة خارج باب النصر عند قبر الملك العادل طومان باي

جيشنا إلى حد كبير فانه كان قد نظم تنظيمًا محكمًا لملاقاة العدو . . فعهد بقيادة جناحنا الأيسر إلى الشيخين صليبي وكريم ، وبقيادة الجناح الأيمن إلى الطنطاوى والبسكوات الآخرين ، بينما جعل المشاة فى القلب ، وبدأت المعركة فى الساعة الحادية عشرة صباحا على وجه التقريب . وصادف طنطاوى توفيقا فى الهجمة الأولى ، ولكن صليبي وكريم لم يكونا كذلك . ورغم هذا فقد لاحت تباشير النصر إلى جانبنا . ولكن انضم مشائنا الخوثة إلى جيش العدو ، وعم الفرع . أما طنطاوى فقد أحيط به واستشهد ، ولحق صليبي نفس المصير ، ولما رأى الشيخ كريم مقتل أخيه ومعظم جنده فزع نحوى مع الشيخ حسن ، ووصل ثلاثتنا إلى فسطاط على بك بصعوبة كبيرة .

وما أن رأنا حتى قال فى لهفة : ما الخبر ؟ فأجاب كريم ، والدموع تنهمر من مآقيه ، إننا قد فقدنا كل شيء ، وأنه ينبغى ألا تضيع الفرصة . ثم عرض عليه أن يمتطى صهوة جواده حتى نفر إلى غزه .

ولكن على بك ظل جامدا صامدا ، وقال بلهجة اليقين أنه يفضل الاستشهاد على العودة ، وبينما نحن كذلك أقبل رضوان بك . . وعندئذ سمح على بك بالفرار لـكل من أراد النجاة قبل أن يقترب العدو . فصدعنا بالأمر واستأذناه فى الرحيل . . . وكانت الساعة حوالى الرابعة مساء (١) « ولما وصل لوزنيان إلى غزه تبعه بعض من فروا فى مساء يوم الموقعة ووصفوا له خاتمة على بك فكاتب يقول « وبعد رحيلنا بقليل هجم كخيا أبو الذهب ومعه حوالى الثلاثين رجلا على فسطاط على بك ، واقتحموا بابه رغم مقاومة عشرة من مماليكه قتل وجرح فى أثنائها بعض المهاجمين . ولما أحاطوا بعلى بك فزع رغم مرضه إلى سيفه فشهره للدفاع عن نفسه وصرع أول قادم بضربة واحدة وجرح اثنين آخرين . وعندما تبين المهاجمون جرأة المدافع عن نفسه أطلقوا عليه النار فأصيب ذراعه الأيمن وإهامه بطلقتين ، ولكنه لم ينفك يقاوم وأطلق النار عليهم بيده اليسرى ففرح

الكخيا ، ولكنه خر على الأرض طريقاً بعد أن أصابت يده اليسرى طعنة سيف فملوه جريحاً أسيراً إلى فسطاط أبي الذهب (١) .

واتفقت روايات المؤرخين على أن خيانة المرتزقة من مشاة المغاربة كانت العامل الأساسى فى هزيمة الصالحية ، وهى أهم المواقع الثلاثة الحاسمة فى تاريخ على بك . وقد أكد المؤرخون دور الخيانة الذى قام به مراد بك فانه قاد جيش استأذه أبى الذهب بعد أن وعده بمستولدة على بك الفاتكة الجمال واسمها نفيسه وتلقب بأُم المماليك ، وكان مراد مولها بجها فاجتهد حتى كتب النصر لابي الذهب (٢) .

(١) ذكر بعض المؤرخين مثل قولى ج١ ص ١٣٢ أن على بك جرح فى وجهه وذكر بعضهم أنه جرح فى فخذه والصحيح ما ذكرناه .
(٢) وقد ذكر همر أنه قابل الست نفيسه بالقاهرة سنة ١٨٠١ عند ما كلفه السير سدننى سمث بتوصيل بعض الهدايا إليها . Hammer; v. 15. p. 354.

الفصل الثالث

وفاة علي بك وتقديره

تحليل شخصيته تقدير حركته وفاته

وفاته :

لم يكده علي بك يصل إلى معسكر عدوه حتى انسكب أبو الذهب على يد ولى نعمته يقبلها ، وقلده ببقية البكوات . ثم حملوه فى محفة إلى داره بالاز بكية وكرسوا أحد الأطباء لخدمته حتى كاد يبرأ (١) ، ولكنه توفى بعد بضعة أيام قبل أثر نكسه وقيل بالسسم (٢) . وكان ذلك فى أوائل مايو ١٧٧٣ الموافق ليلة الخامس عشر من

(١) ذكر بعض المؤرخين أن مراد بك هو الذى تجاهل على بك وضربه بالسيف وذكر نقولا الصباغ ص ١٢٨ أن أبا الذهب هو الذى تجاهل على بك وضربه ، وأن على بك صاح به « قتلتنى يا ولدى » والأصح مما ذكرناه — وقد علق كثير من المؤرخين على سلوك أبى الذهب نحو على بك بعد أصابته بأنه تظاهر مفتعل . والواقع أنه رغم منافسة محمد بك لسيده ، تلك المنافسة غير الشريفة فإنه كان يحمله ويحترمه ، بل أن هذا كان طبع الممالك ، أشار إلى ذلك المؤرخ دهران Deherain, p. 136. فقال ما ترجمته « ولا ينبغي لنا أن نعتبر ذلك مجرد تظاهر سطحي ، فإن الرابطة التى كانت تربط بين الملوك وولى نعمته لا يمكن أن تفصمها أحداث القصر . فلا زال الملوك يحترم ولى نعمته مهما علا قدره وانحط قدر سببه . فهو دائماً مملوكه يتوجه إليه بالإجلال والاحترام . »

(٢) قضى على بك مدة بعد أصابته ، قبل ثلاثة أيام ، وقيل سبعة وقيل ثمانية . ثم أن بعض المؤرخين يشك فى وفاته من جراحة : فنلا ذكر سافارى ج ٢ ص ٢٢٠ أن بعض الناس أخبروه أن على بك مات بالسسم وهذا يوافق ما ذكره فولنى ج ١ ص ١١٣ . والواضح أن المدة التى وقعت بين أصابته ووفاته لا تكفى لشفاء الجراح التى أصابته . فهو إما أن الحزن قد أثر عليه تأثيراً سيئاً ففسدت جراحه ، وإما أن يكون أبا الذهب قد لجأ إلى السم للقضاء على متاعب المستقبل .

شهر صفر ١١٨٧ هـ . ذكر شمعدي زاده صاحب « مرعى التواريخ » فى حوادث سنة ١١٨٧ أن على بك ثمل بعد شهر بكأس الخيبة وسار فى قافلة إقليم العدم متأثراً بجراحه ، ثم دفن بالقرافة الصغرى قرب الإمام الشافعى بالقاهرة فى احتفال مهيب (١) .

وتوجد مقبرة على بك باحد الحيشان بالقرافة الصغرى ، قرب الإمام الشافعى وهى مقبرة عادية من الرخام حفرت حولها بعض النقوش والكتابة بخط واضح جميل . وهى من الآثار المسجلة بإدارة حفظ الآثار العربية . وفيما يلى نصوص تلك النقوش .

١ — نقوش وجه الشاهد الامامى :

(لا إله إلا الله محمد رسول الله « كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام » إنا لله وإنا اليه راجعون)

٢ — واجهة المقبرة :

« روحيجون فاتحة » أى « الفاتحة على روحه »

٣ — ظهر الشاهد الامامى :



« بسم الله الرحمن الرحيم ، وتحتها اسم « على » مزدوجا »

(١) يذكر المؤرخ مهرج ١٥ فى الخطاب الثالث والستين ص ٣٥٤ أن أبا الذهب قطع رأس على بك قبل دفنه ، ثم قدمها إلى خليل باشا الوالى العثمانى ليرسلها إلى السلطان دليلا على صدق ولائه — ولكن المؤرخين الآخرين لم يقولوا بهذا رأى ولم يذكره المؤرخون الترك كما أنه واضح حسب رواية الجبرى ج ١ ص ٣٣٧ أن على بك أصيب وأسر ليلة ١٥ صفر و١٥ خليل باشا العثمانى وصل مصر فى ١٧ ربيع أول أى بعد مايزيد على شهر من وفاة على بك ولذلك تستبعد تلك الرواية .

٤ — واجهة الشاهد الخلفى :

« فى قبره أمسى أمير اللوا ، يرجو الرضى ، من أكرم الأكرمين ، أعفى على القدر بين الورى ، والله ذو فضل على المؤمنين ، لهله يارب ، ورب الملا من شأنه يعفو عن التائبين ، سماحه فضلا وأعف عن ذنبه يارب واحشره مع الفايزين ، فرحمت المولى لنا أرخت بان عفو الله للذنبيين . وتحتها عام (١١٨٧) وهو عام وفاته .

٥ — ظهر المقبرة :

« كل نفس ذائقة الموت ،

٦ — طوق من الكتابة حول جوانب التربة الأربعة :

« آية الكرسي من أولها إلى آخرها ،

والثابت أن أبا الذهب هو الذى أمر بعمل التربة ، وهو الذى وافق على عمل النقوش السابقة ، وهى تدل على احترامه لاستاذه وتبجيله ذكره .

* * *

تحليل شخصيته :

مير اللوا على بك كما كان اسمه الرسمى ، أو الجن على بك كما كان يلقبه المصريون أو على بك بلوت قبان كما كان يسميه العثمانيون ، أو على بك الكبير كما لقيه بعض الرحالة الأوربيين وشاع عنه ذلك فيما بعد شخصية مغيرة للشخصيات التى ظهرت فى مصر العثمانية قبل أيامه . شخصية أحاطتها هالة من التمجيد ، وذاع صيتها فى مصر وبلاد العرب والشام ومعظم أوربا وخاصة فى فرنسا وإنجلترا وروسيا والبندقية .

ولم تكن هذه الشهرة وليدة أساليب البيان وسحر البلاغة كما لم تكن تلك الهالة وليدة الخيال ، إنما استحدثت وجودها من الواقع الذى لا يخطئ . ولذلك فشخصيته من الشخصيات السهلة التحليل ، على غير ما يظن لأول وهلة بسبب تخطيط كثير من كتبوا عنه ، أما لعدم تحصنهم بالدقة وأما لاعتمادهم على مصادر



« علي بك الكبير في أواخر عهده »
نقلا عن صورة له نشرت بمدينة البندقية (عن شارل رو)

غير موثوق بصحتها . وأظهر ما برز فيه من صفات صفتا الدهاء والجرأة فبالأولى
حاك الدسائس ومملك الحوادث وبالثانية وضع أساس مجده وخلد ذكره .
وان تعدد ألقابه التي أشرنا إليها ليس سوى مظهر من مظاهر نشاطه الجهم وكفائاته
المتعددة . فقد كان على بك كبير النفس كبير القلب كبير المطمع ظهر في عصر
اضطراب وفوضى ، وفي وقت كانت مصر في أمس الحاجة إلى رجل مثله . وقد
اتقن على بك دوره وأخذ في تنفيذه مضجيا بكل ما يملك من صحة ومال . ولم يكن
يكتثر لمرض بعد صحة ، أو تعب بعد راحة ، أو فقر بعد ثراء مادام يجد منفذا
إلى غرضه المزدوج . أن يجمع في يده بصفته قائمقام ما تشدت من سلطة الباشا
العثماني ، وأن يخلق من الفوضى نظاما يمكنه من استغلال تلك السلطة لمصلحته
ومصلحة ممالكه .

* * *

كان على بك أبيض اللون ، واسع العينين يشع منهما دكاء وقاد وعزم أكيد
مشرق الطلعة ، متين البنية ، قامته إلى الطول أميل . صريحا في سلوكه ، كريما في
معاملته . وهبته الطبيعة شجاعة لا يشوبها خور وذكاء مع صدق فراسة ،
وأحكام تدبير وسرعة بديهة (١)

وذكر الجبرتي أنه كان عظيم الهيبة اتفق لanas ما نوا فرقا من هيئته « وكثيرا
من كانت تأخذه الرعدة بمجرد المثل بين يديه فيقول له هون عليك ، ويلاطمه
حتى ترجع له نفسه ثم يخاطبه فيما يطلبه بصدد » (٢)

لم يربه والده في القوقاز ، ولم يربه أستاذه ابراهيم كخيا في القاهرة بقدر
ماربته الأيام في مصر والشام . عركته الحوادث ومرسته الخطوب منذ كان
صبيا يتلمس بالصيد في احراش القوقاز . وتقلب عليه صروف الدهر منذ أسر
رقيقا وبيع مملوكا ونصب بيكا ثم نفي شريدا . وذاق حلاوة الأمل ونشوة النصر

فتولى شيخا للبلد وأميراً للحج وقائم مقام مصر وختم حياته في الأسر وانتهى كما بدا في ذمة التاريخ شخصيه جديرة بالبحث وصاحب ثورة نجحت بهيمته ثم فشلت لأسباب خارجة عن إرادته .

وفي خلال السنوات الخمس والأربعين التي عاشها على بك تسليح بالأمل والرجاء ولم يقنط يوماً أو ييأس مهما ادهمت الملمات . فقد اعتقل أكثر من مرة ونفى أكثر من مرة ولكنه كان فيها ثابت الجنان قوى الثقة بنفسه .

وصادفته ظروف حرجة كان كل واحد منها كارثة جارفة ولكنه ظل شديد الأمل بالنصر قوى الإيمان بالله . رأيناه كيف وقف في الصالحية وحيدا يناضل جيشاً بأكمله وقف واثقا بنفسه يصارع الخيانة والفساد ، وحارب بشجاعته المأثورة عنه يصارع أعدائه حتى تغلب المسلحون على الأعزل وقضت كثرة العدد على شجاعة البطل ، ورغم ذلك كله ظل قلبه عامراً بالإيمان .

وزيادة على فضائله الشخصية من طموح وذكاء وثقة بالنفس فإنه كان تقياً متين الخلق يرفع فروض العبادات في تواضع القادر يؤم المساجد ويؤظ على صلاة الجماعة . وقد عزا كثير من المؤرخين بعض عوامل فشل حركته إلى انهماكه في الملذات . تلك الوصمة التي يصمون بها حكام الشرق السابقين (١) . ولكنه في الوقت الذي لا نجد فيه ما يؤكد تلك التهمة تصادف ما ينفيها أو يضعف من قوتها . ففي الوقت الذي عرف فيه ببغض الخمر كان مشهوراً بهواية الألعاب الرياضية والتمرينات الحربية . وفي الوقت الذي كان غيره منكسباً فيه على ملذاته كان على بك يبذل مسهداً يصرف الأمور في صبر وروية (٢) .

* * *

تزوج على بك « الست عائشة قادن بنت عبد الله البيضاء معتوقة (أستاذه) الأمير إبراهيم كتحدا مستحفظان » وكان له ثلاث مستولدات اتخذهن زوجات ،

(١) بواس قرالى . السوربون في مصر ج ١ ص ٨٤ . Volney V. 1. p. 134.

(٢) Bruce Voyage . . V. 1. pp. 34, 42.

وأوقف عليهن وعلى زوجه أوقافا تكفي لكي يعشن في رغد من بعده . وهن « الست نفيسة خاتون بنت عبد الله البيضاء » ، « الست كلسن خاتون بنت عبد الله البيضاء » ، « الست منور خاتون بنت عبد الله البيضاء » ، وقد توفيت كلسن في حياته . أما أحبهن إلى نفسه فكانت « الست نفيسة » أو « أم المالك » كما كانوا يلقبونها ، وقد ميزها عن سابقتها في وظيفته (١) . ورغم أن هذه جاءت إلى مصر جارية إلا أنه كان في علاقته بها مثالا للعفة والرجولة . ولم ينتجب على بك سوى طفلة من الست نفيسة ماتت في سن مبكرة .

قصة زواجه بمارى :

أورد لنا التاجر لوزنيان قصة زواجه بها فقال « وفي سنة ١٧٦٤ اشترى على بك شابه فاتنة من روسيا الحرا . جلبها إلى مصر مصطفي الطرابيزوني ، وقد أغرم بها على بك ولكنه بدل أن يغتصبها لنفسه عرض عليها أن تزوج منه على شريطة أن تعتنق الديانة الإسلامية . ولكنها رفضت أن تغير اسمها — ماري — أو أن تترك المسيحية . وأعجب على بك بشهامتها وسمح لها لو أرادت أن تبقى كما تريد . وكانت ماري جديرة بحبه حقا ليس فقط لبهاء منظرها وسحر عينيها الدعجوتين وأهدابها الساحرة ولون بشرتها الوردى ، بل أيضا لطيبتها وكرم أخلاقها وسمو أفكارها . ورغم أن كثير من الجوارى كن يقمن بخدمتها فأنها كانت تعاملهن كالأخوات . (٢) »

(١) حجتها وقف على بك الكبير ١٠ شعبان سنة ١١٨٣ ، القعدة سنة ١٢٨٥ .
(٢) lusignan. PP. 82—83 — وبعد وفاة على بك تزوج مراد بك من الست نفيسة ، وهذا هو السر في اشتهارها باسم « نفيسة المرادية » . تكلم عنها التاجر لوزنيان ١٧٧٢ والرحالتان سافارى ١٧٧٩ وبراون ١٧٩٨ ، وقبلها المؤرخ همر بالقاهرة سنة ١٨٠١ . وترجم لها الجبرتي في وفيات سنة ١٢٣١ هـ (١٨١٦ م) . عاشت ثلاثة وأربعين سنة بعد وفاة زوجها الأول على بك كما أنها عاشت حوالى خمسة عشر عاما بعد وفاه زوجها الثانى مراد بك ويعتبرها المؤرخون أعظم شخصية ظهرت بين سيدات مصر في ذلك العصر ، فقد جمعت إلى سحر

وكان على بك في نظر الأوربيين شخصا ممتازا غير عادى ، فهو كحاكم ومصلح كان يجمع كل صفات رجل الدولة . وهو مثل طيب للرجل العظيم ونموذج حى سابق لمحمد على الكبير (١) .

وحق قولنى الذى يشيع حقه على المالك بين سطور كتابه شهد بأن على بك كان يملك أسس الصفات العظيمة وأنه « ينبغى علينا أن نمتدح فى على بك فضيله ميزته عن غيره من الحكام المستبدين فى مصر ، فانه وأن تكن قلة حظه من الثقافة منعه من بلوغ المجد الحقيقى فاثابت أنه كان مطمح الذى يسعى إليه . والمجد والفخر لم يكونا فى وقت من الأوقات مطمح النفوس الشريرة (٢) . » غير أننا نأخذ على على بك أن صفاته الطيبة لم تعصمه من اتباع تلك الطرق الغادرة فى القضاء على المنافسين ، فلا زالت عشرات الأرواح التى أمر بإزهاقها ليعبد بها سبيل مجده تنعى وسائله التى تقوم على القسوة والغدر . وهذه بلا شك نقطة سوداء تشوب نقاء صحيفته البيضاء . وعلى كل حال ينبغى لنا أن نقرر دون قصد الدفاع عنه أنه لو لم يلجأ إلى تلك الطرق لكان هو نفسه أحد هؤلاء الضحايا .

* * *

== الجمال وسمو العواطف ونبالة الأخلاق قسلا بأس به من الثقافة والتهديب . اكتسبت احترام المالك وكانت تلقب « بأم المالك » . كما استعبدت قلوب الشعب بما كانت تصلهم به من بر وإحسان وحماية . ونالت تقدير التجار الفرنسيين وكانت موضع مهاداة قناصلهم . كان لها مركز ومكانة وتقوى عهد على بك واحتفظت به فى عهد مراد بك . وعاصرت الحملة الفرنسية بمصر ثم العهد العثمانى التالى لها ثم أوائل عصر محمد على باشا وكان لها فيها أدوار مشرفة أساسها حماية من اتصل بها من أفراد الشعب . وتعرضت فى أثناء ذلك لتعسف الفرنسيين وعسف العثمانيين فذهبت ثروتها ولم يبق لها إلا منزلها الذى كان قد شيده على بك بدرب عبد الحق على بركة الأزبكية . ولما توفيت ١٢٣١ هـ دفنت كزوجها على بك بالقرافة الصغرى بجوار الإمام الشافعى .

Combe : P. 47 & Cuemard : les Reformes en Eg. D'Ali Bey (١)
El-Kabir . . . P. 88

Volney. T. I. PP. 133—135. (٢)

تقدير حركة على بك .

تفرق الناس في تقدير ثورة على بك لأنهم نظروا إليها من حيث مبلغ تأثيرها في مصالحهم الخاصة . أما العثمانيون فكانوا بطبيعة الحال أشد الجميع سخطا على على بك وثورته . لاسيما وأنه تخير للقيام بها وقتا من أخرج الأوقات في التاريخ الدولة ، عندما كانت تهددها الجحافل الروسية في البر والأساطيل الروسية في البحر . فعجزت عن إرسال جيوشها لاتخاذ حركته وفي نفس الوقت حال بين الدولة وبين تجريد عدة فرق مصرية تصدبها غائلة الروس .

لذلك كان في نظر المؤرخ العثماني شمعاني زاده صاحب « مرعى التواريخ » « مفسدا خنزيرا وشخصا زنيا قليل الإيمان ، ارتكب مالا يرتكبه إلا كافر ، فقد منع جيش مصر من التقدم إلى الحرب وكفار موسكو يستولون على أملاك الدولة برا وبحرا ، وحال بين أربعين أو خمسين ألفا وبين الكفار ، ذلك غير الأموال الطائلة التي أرغمت الدولة على صرفها . »

أما جودت فقد اعتبره « مجازفا لم يدرك أن كثيرا من أمثاله غلبت عليهم الشقاوة ففعلوا الدولة العلية ثم وقعوا في شرك العقاب والجزاء الذي يستحقونه وهو في نظر رسمي أحمد الكريدي صاحب ، خلاصة الاعتبار ، « زعيم البؤس والشقاء في مصر » . واعتبرت حركته في ذلك الظرف الحرج « من اللصائب التي لا تخطر بالبال ، واعتبر أحمد واصف صاحب ، حاسن الآثار ، « أن هذا الحادث نادر شاذ خارج عن طبيعة الدهر ، فلا يحدث مثله الا مرة كل مائتين أو ثلاثمائة عام (١) »

وأما الشعب المصري فقد شعر بنعمة الأمن والعدل ، وليكنه في الوقت نفسه أحس بوطأة الضرائب التي فرضت عليه لتشهيل حملات الحجاز والشام ولم تكن الاصلاحات والتعديلات التي قام بها على بك — لكي يجعلها موردا

(١) شمعاني زاده حوادث ١١٨٧ مخطوط تركي، جودت ج ٢ ص ٣٤٥ ، رسمي الكريدي

حوادث سنة ١١٨٨ مخطوط تركي ، أحمد واصف ج ١ ص ٢١٢ .

للمال محل محل الضرائب — قد آتت أكلها في المدة القصيرة التي قضاهـا . ولذلك لا تعجب أنه رغم تأكيد سافارى تمجيد الشعب لذكرى على بك وتأسفهم لانقضاء عصره الذهبي ، كانوا يأخذن عليه كما ذكر فولنى تـماديه في فرض الضرائب وقصره حق استثمار بعض المشروعات الاقتصادية الحيوية على طائفة من مريديه (١) .

وأما الجاليات الأجنبية في مصر والشام فقد سعدت في عهده ، ولاقـت من حسن المعاملة ما لم يحلم به أفرادها . فزعة التسامح الديني كانت قوية في نفس على بك ، ذلك لأنه تبين ضرورة تشجيع التجار الأجانب والاستعانة ببعض من يثق فيهم لانهاض حركته .

وعلى هذا الأساس شجع هجرة السوريين إلى مصر وأكرم القناصل الفرنسيين وأحسن معاملتهـم الرحالة الانجليزى جيمس بروس وغيره . أما أهم معاونيه الأجانب فكانوا من أسرة روسى أولهم الناجر البندقى كارلوروسى الذى اتخذ مشيرا في المسائل التجارية والخارجية ، ثم شقيقه بلثار Balthasar الذى تعين مديرا لبحرك جدة ، ثم ابن أخته السنيور فيرادى S, Ferrari الذى ناب عن خاله روسى في حكم الطرانة واستغلال النطرون في تلك المنطقة من صنجقية البحيرة .

وكان التاجر الفرنسى برتران Beqtrand من ضمن المقربين إليه (٢) . وكذلك التاجر اليونانى سوفيلوزيان كوزموبوليتس Kosmopolites Sauveteur lusignan . ومن السوريين عاونه كثيرون أهمهم المعلم ميخائيل فرحات ثم يوسف البيطار . وإلى هذين وغيرهما من السوريين في مصر يعزون تحريض على بك على فتح الشام وإلى ابراهيم الصباغ وزير ظاهر العمر يعزون تحريض الشيخ على التحالف مع على بك . أى أنهم ينسبون إلى السوريين في مصر والشام فضل اقتراح وتوطيد ذلك التحالف الناجح بين على بك والشيخ ظاهر (٣) .

Volney. V. I. PP. 136—137 & Savary : L. XVI. P. 220 (١)

Bruce. v. I. P. 35 (٢)

(٣) بولس قرالى : السوريون في مصر ج ١ ص ٨٦ .

أما التجار الأجانب فقد أثنوا على عهده ، لأن الأمن والعدل اللذين سادا في عهد على بك ساعدا على ازدهار النشاط التجارى .

فعلى بك فى نظرم وفى الواقع خلق من الفوضى حكمه رشيدة . وقد قارن بروس الانجليزى بين الحكومة التى أقامها على بك والحكومات السابقة فقال « وربما لا يوجد فى العالم رجال اجلاف جائرون طغاة ظالمون جشعون بمثل الدرجة التى عليها أولئك الأشهرار الذين يقبضون على حكومة القاهرة » إلى أن يقول « ولحسن الحظ عند ما كنت بالقاهرة لم أصادف ذلك النوع المشوش من الحكومات ، بل كان على بك الشهير يحكم بنفسه أو بوساطة عماله (١) » . وفى الوقت الذى شاد فيه سافارى بعدل على بك وكرمه (٢) ، اعترف كل من ثولنى وأوليفيه أنه سمع ثناء مستطابا عليه من التجار الفرنسيين الذين تفيؤوا ظللال عدله وحكمه الرشيد (٣) .

ولم يفت المسيو دى شابرول De Chabrol من كتاب الحملة الفرنسية وهو يتحدث عن « عادات أهل مصر الحاليين » أن يشير إلى أن « حكمة وحزم هذا الرجل النابغة — الذى لم ينقصه سوى حظ أوفى من الثقافة ومجال أوسع ليدهش العالم — مكناه من أن يبت فى نفوس المصريين روح التسامح الذى صدفت نفوسهم عنه طويلا (٤) » .

ولم يغفل على بك صالح الشعب ولم يهضم له حقا ، قرر ذلك الرحالة براون على لسان زوج مراد بك فقد ذكر أن « أم المالك » وهى زوج على بك من

(١) Bruce, v. I- P. 88

(٢) أورد سافارى قصة من عشرات القصص التى تصلح مثلا لعدالة على بك ماخصها أن أحد المالك قابل تاجرا من تجار البندقية قرب مصر العتيقة فأجبره على الترحل عن ظهر دابته واغتصب ازاره ، ولما علم على بك أحضر الجانى وعنفه أمام الاجنبى وأجبره على أن يعتذر له علنا ثم أمر بإعدامه Savary : T. 2. P. 220

(٣) Olivier V. II. P. 108 & Volney. V. T. P. 13S

(٤) De Chabrol, T. 2 P.723 (Description De l' Eg.)

قبل كانت موضع احترام المالك جميعا يتشرفون بزيارتها كلما تولوا منصبا من المناصب لتزودهم بالنصائح الثمينة قائلة « إياكم واغتصاب حقوق الشعب ، فان زوجي كان دائما يرعاها حق رعايتها » (١) .

ودأب على بك على الإصلاح وافر العدالة وأقام حزبا عوانا على العاشرين بالامن ونشط التجارة وشجع العلوم إلى حد ما . ففي وسط الفوضى التي كانت سائدة من قبل ، وإهمال مرافق الشعب كرس على بك نفسه لخدمته . وفي عصر هضمت فيه الحقوق حاول على بك رفع منار العدل ، ومن خلال أحاييل المجرمين وسطوة اللصوص وقطاع الطرق نشط على بك يوطد الامن ويوجد حالة من الاستقرار والهدوء والسلام . ومن حكمة ظلام الجهل بزغ قبس اهتمامه بالعلم والعلماء حتى « لقد دهش الجميع لمبلغ ما وصل إليه ذلك الشعب المتبربر (في نظر لوزنيان) من حضارة في تلك المدة القصيرة » (٢) .

(١) ظن بروان أن زوج مراد بك كانت بنت على بك والواقع أنها كانت زوجا له

(Browne, p. 8' 2.)

Lusignan, p. 103 (٢)

الخاتمة

عوامل فشل الحركة وأثرها في تاريخ مصر

أولاً - عوامل فشل ثورة علي بك

أراد علي بك أن يكون له حكم مصر فكان له ما أراد ، ثم تطلع إلى الفتح فسارت جيوشه المنصورة شرقاً إلى بلاب العرب وشمالاً إلى بلاد الشام ، وتسامع الناس عن ثورته ، وذاع صيت بطولته في أوروبا .

وأخيراً بعد سنوات أربعة قضى علي بك في الأسر بعد أن شاهد انهيار صرح أمانيه التي كانت قد تحققت . فمصر عادت مسرحاً للدسائس الداخلية تحت السيادة العثمانية والشام كذلك . كما طرد الشريف عبد الله من شرافة مكة تنفيذاً لأوامر أبي الذهب وإجابة لرغبة الباب العالي .

أما أهم العوامل التي أدت إلى فشل تلك الحركة فتتلخص فيما يأتي :
دسائس الدولة العثمانية :

فقد كان أبرز تلك العوامل سلاح الدسيسة التي كانت تليجاً إليه الدولة كلها أعوزتها القوة . فلما كانت الحرب الروسية قد احتجرت جنود الدولة على ضفاف الدانوب ، وأخذ الأسطول الروسي يهدد بقطع الطرق الحربية بين الدولة وولاياتها البعيدة ، وقامت الولايات الأوربية بشورات جاححة بفضل الدعاية الروسية ، وانتهر على بك تلك الفرصة وقبض على أزمة الأمور على حساب الباشا العثماني صادفت الدولة العثمانية أزمة عصبية من أخطر الأزمات التي صادفتها في تاريخها الطويل . وأزاء عجزها لجأت إلى محاربة علي بك بطريق الدس والخداع : ففي سورية خدعت حليفة ظاهر فكان « كلما استرضاها ترسل له تقرير رضاها ثم لا تلبث بأن ترسل إلى عثمان باشا تحثه أن يغزوه ويقتله » (١) — وعهدت إلى

(١) ميخائيل نقولا الصباغ : تاريخ الشيخ ظاهر العمر ص ١٨٤ .

عثمان باشا أن يبذل أقصى جهده في إثارة التالبليسيين حتى يقطعوا على الجيش
المصري الغازي طريق اتصاله بحليفه ظاهر العمر، وأمرت باشوات صيدا وطرابلس
وحلب ودمشق وبغداد أن يساعده ما أمكن . كما كسبت إلى جانبها أهالي
جبل الدوز وعلى رأسهم الأمير يوسف شهاب .

وأما في مصر فقد سلطت عليه رجاله وأتباعه فخانه مملوكه وأقرب الناس إليه محمد أبو الذهب ، إنشق عليه واضطره إلى الخروج من القاهرة وخذله خشداشه اسماعيل بك ، وأنصاره مراد بك وإبراهيم بك وغيرهم . وخدعه من أولاده ثقتة وهو المعلم رزق . وكان هؤلاء جميعا سببا في هزيمته في معركة الصالحية .

✻ ✻ ✻

غدر المالك :

والغدر صفة من أكثر الصفات انطباقا على المماليك في العصر العثماني . ذكر عنهم جودت أنه في موطنهم الأصلي « لم يكن معيبا عندهم أمر النهب والسرقة بل يعدون ذلك من الشجاعة . والأشخاص غير المقتدرين على ذلك لا ينظرون إليهم بنظر القبول ولا يعدونهم من نوع الإنسان » (١) .

ورغم تربية المملوك في مصر فإن الغرض من تلك التربية لم يكن تثقيف الذهن وتهذيب النفس . إنما تمهيد السبيل أمامه إذا استطاع أن يتولى مقاليد الحكم في يوم من الأيام . فكانوا ينشئونهم في ميعجة الصبا تنشئة عسكرية ، عند ذلك يطرح المملوك ماضيه وراء ظهره ويرنو بنظره إلى الأمام فيجد المستقبل الباسم ، حلم كل مملوك يأتي إلى مصر . يعلم أن مستقبله يتوقف على سلاحه وقلبه وعقله ، فحقه يدبر الدسائس وقلبه يدفع بسلاحه إلى تنفيذ أغراضه في خدمة سيده أولاً ونفسه ثانياً (٢) . ولم يكن هناك في نظره من يصح أن يقف عشرة في سبيل تحقيق

(١) يقصد ببلادهم الأصلية بلاد الشركس وهى احدى أقسام بلاد قافقاسيا الأربعة غربها البحر الأسود وشمالها نهر قوبان ، جودت ١ ص ٣٢٣ .

Guémard : Aventuriers Mameluks d'Egypte. p. 30. (۲)

أطاعه ، فليس بين زعمائه المتقدمين عليه في المرتبة من يمتاز عنه بأية مؤهلات خاصة توجب له الاحترام والطاعة فكلهم سواء . أتوا بمالك ، وتلقوا نفس التعليم ، وتدرّبوا نفس التدريبات ، وقد تجمعت هذه العوامل النفسية مع عوامل البيئة الجديدة وكونت مجرى حياتهم الجديدة فأصبحوا كما وصفهم الرحالة فولقى « أقرب إلى الوحوش بما ينفذونه من اغتيالات ، ومشاغبين بما يدبّرونه من مؤامرات ، وخونة بما يحكون من دسائس ، يتسمون بلؤم النفس لكثرة ما هم عليه من مكر وخداع ، وقد أفسدهم الفجور والفسق . وبالاختصار فهم من ذلك الجنس الذى جمع فى وقت واحد نقائص الإغريق والتتار (١) » .

ولم يكن محمد أبو الذهب بدعا من الممالك ، ولا كان يمتاز عنهم بشيء من الشرف اللهم ما غمّره به سيده على بك من حب شديد وثقة أعتمته عن دسائسه وأطاعه . وكان أبو الذهب لا يقل طموحا من على بك ولا كنهه كان جشعا يحب المال غيورا إلى حد كبير .

ذكر لوزيتان أن أعداء على بك من اتباع إبراهيم الشركسى (٢) حاولوا رشوته بمبلغ كبير من المال ليقضى على مولاه على بك ، وكان ذلك عقب وفاة إبراهيم كخيا ، فوافقهم أبو الذهب ظاهرا وتسلم المال ثم أفضى بالأمر إلى سيده وبذلك نجح فى الوصول إلى غرضه . ومنذ ذلك الحين اتخذ على بك صديقا أميناً ومعيّنا مخلصا ولم يعد يصغى إلى أية وشاية ضده صادقة كانت أو كاذبة .

ولما وثق أبو الذهب من ذلك أوعز إلى على بك الطنطاوى أن يغتال على بك عندما يحضر إلى دار صهره للعب « الشطرنج » . وفى نفس الوقت أوحى إلى زوجته أن تضع السم فى القهوة التى ستقدمها الى على بك . ولم يسمح اخلاص طنطاوى لسيده الا بتحذيره ، ولكن على بك لم يصدقه . ولما جاء رسول شقيقته يحذره من الحضور أسرع إليها يستجلى الخبر . ولكن نفته الهمياء بإخلاص

(١) Volney. II. p. 178.

(٢) إبراهيم الشركسى هو عدو إبراهيم كخيا أسقاذ على بك .

أبى الذهب جعلت هذا بمنأى عن الشبهات (١).

وظل على بك يحبو أبأ الذهب بعطفه ، ويطويه بكرمه ، ويغمره بحبه وهو لا يدري أنه يحمي الخائن الذى يدبر فى هدوء وسكينة سبيل القضاء على ولى نعمته. وداخلت نفس أبى الذهب الكبرياء لكثرة ما لاقى من انتصارات ، وزهت نفسه غروراً بما حباه به سيده من حب وعطف حتى استوزر على بك المعلم رزق القبطى وأقامه مديراً لما ليته . وشغل رزق هذا جانباً كبيراً من اهتمام على بك ، وأصبح له من المسكافة ما يسمح له بالجلوس عند دخول البكوات عليه (٢) . وعدها أبو الذهب اهانة لكرامته فشكاها الى سيده . ولكن على بك أجابه بلهجة اليقين والجد « أن البكوات كلهم ليسوا سوى عماليك ، وأما رزق فلم يكن سوى معينه وهو يعرف جيداً كيف يعامل هؤلاء » (٣) — وأخفى أبو الذهب خنقه وحقده وراء ابتسامه عريضة وأخذ ينتظر سنوح الفرصة للتشفي .

فلما دخل أبو الذهب مدينة دمشق ظافراً آلمه عدم ترحيب الشيخ ظاهر به بنفسه وعدم احترام أبناء الشيخ له ، ورغم أن ذلك لم يكن عن قصد فإنه مهد لنجاح دسيسة عثمان باشا والى الشام ، وصنيعته اسماعيل بك فاجتمع به سرا وأظهر له من يد الاحترام فأعاد كرامته المهدورة ووعدته بمركز سيده فأرضى طموحه (٤) ونجحت دسيسة الدولة باستغلال نقائص أبى الذهب فقاتل ولى نعمته وأسر من اشتراه رقيقاً ثم رباه فى كنفه وأطلقه فى سماء الحرية .

وكان انسحاب أبى الذهب من الشام بدء أفول نجم على بك وفشل ثورته اذ عاد لخارب مولاه وأخرجه من مصر .

Lusignan see. II; pp. 87—86

(١)

(٢) لم يكن يسمح لأحد سواء من المسلمين أو المسيحيين أو غيرهم بالجلوس عند مرور البكوات أو دخولهم فى مكان ما .

lusignan: pp. 89—90

(٣)

(٤) ميخائيل نقولا الصباغ — تاريخ الشيخ ظاهر ص ١١٠—١١١ ويوسف الدبس

ناقش ذلك العامل المستر جورج بلدوين Mr. George Baldwin قنصل إنجلترا في مصر سنة ١٨٠١ ، وعزى اليه وحده فشل الحركة قال « كان أساس تربية المماليك تدريبهم لنوال النصر والفخر . طريقهم الى الشرف قوة غاشمة وعنوان قوتهم تدبير الاغتيالات . فلا استقرار ولا نظام بل تعطش دائم للرياسة وغيره عليها . » إلى أن قال « ولعل عصيان علي بك الكبير منتزعا فرصة الحرب الروسية سنة ١٧٧٠ يشذ عن الرأى الذى ذهبت اليه ، ولكنى لست جزعا لهذا بل اتخذ حركته توضيحاً لذلك الرأى . فإن نفس الروح التى أشعلت ذلك العصيان وألهبته ، هى نفسها التى أخدمت أواره . فالدولة لم ترسل قوة لتأديب العاصى ، ولم تستخدم فى سبيل ذلك قوة خارجية ولكن قضت عليها روح ذلك النظام ، أعنى ذلك العامل الهدام الذى أثارته بينهم حكمة سياسة سليم ، وهو ذلك الطموح الذى كان يسير كل مملوك . فان محمد بك صنيعته وأقرب المقر بين اليه وقائده ، بعد أن أصبح أقوى من أن يكبح جماحه تنكر له وعارضه وقضى عليه (١) »

ولا يفوتنا أن نشير إلى أن انضمام اسماعيل بك بجيشه إلى أبى الذهب قبل معركة بياضة زاد ذلك الخطر الزاحف كما كان لتحمس مراد بك على رأس جيش أبى الذهب فى معركة الصالحية الحاسمة الأثر الفعال فى هزيمة على بك النهائية . وأصبحت معركة الصالحية أحصم المواقع فى تاريخ على بك وحياته أيضاً .

* * *

أخطاء على بك :

ارتكب على بك على نفسه عدة أخطاء لا تقل خطورة عما أسلفنا : منها أنه كان يولى ثقته من لا يستحقها مثلبا منح ثقته العمياء للملوك أبى الذهب ، تلك الثقة التى أعمته عن استشفاف نواياه السيئة ، وكما عهد إلى اسماعيل بك بقيادة حملة جرارة ضد أبى الذهب رغم الموقف الذى وقفه اسماعيل هذا فى حملة الشام

عند ما رفض قتال عثمان باشا بدعوى حرمة قتال الحجاج . وكان انضمامه لآلئ الذهب بمثابة اعطاء سلاح على بك لعدوه كى يطعنة الطعنة القاتلة ، وفعل لم يكف جيش على بك الطنطاوى فى صد الزاحفين ، واضطر على بك إلى الفرار من القاهرة قاصداً سورية سنة ١٧٧٢ .

ومنها اعتماده فى تنفيذ مشروعاته على دراسة الفلك ، فما تشير به النجوم والكواكب أمر مطاع وثابت لامطن فى صحته أو وجوده . لاحظ ذلك الرحالة الإنجليزى جيمس بروس واضطر لىكى يفوز بثقة على بك وعطفه إلى التظاهر بأنه عالم بالفلك ، وأن آلاته العلمية الطبوغرافية ليست سوى آلات لرصد النجوم^(١) . وفى ذلك يقول الرحالة فوانى « ولو أن على بك قد حاز أسس الصفات العظيمة ، إلا أن قلة حظه من الثقافة لم تساعد على إنمائها . . منها أن اعتقاده فى التنجيم والفلك كان يتحكم فى أغلب تصرفاته أكثر من تحكيم عقله وفكره »^(٢) . ولسوء حظ على بك أنه عدم المرشد الكفء والناصح الأمين ، فبطانته كانت تنقصها الخبرة السياسية والحنكة الادارية والمهارة العملية وهكذا صادفته العقبات وغلبته الحوادث بدل أن يخضعها لمصالحته^(٣) .

وثمة مسألة أخرى هى تماديه فى الحروب الخارجية ، اذ اضطر الى صرف اهتمامه نحو الخارج ، وأخذ أموال الشعب فصرفها على الجيش . فقد كلفته حملة الحجاز مثلاً ٢٦٠.٠٠٠ ر. من الفرنسكات أى ما يعادل ٥٢.٠٠٠ كيساً من الذهب ، كما أن حملات الشام كلفته أكثر من ذلك بكثير . ولما كان مركزه فى مصر لا يسمح له بتولى القيادة بنفسه فقد سنحت الفرصة لقواده كى يحوزوا النصر وتطلع نفوسهم إلى الرئاسة كما حدث لآلئ الذهب .

لمس آثار ذلك الرحالة فوانى فقال « وإنا لنجد أن على بك قد أخطأ أو أساء

Bruce: Voyage., T. I. pp. 33—34. (١)

Volney T. I. p. 133 (٢)

Lockroy ; Ahmed Le' Boucher ; p. 12 (٣)

تنفيذ مشروع توسعه ، وأنه هو نفسه مهد طريق فشله . . وأول أخطائه تلك الرغبة الملحة في الفتوح وهي التي أرهقت موارده دون ثمرة ما (١) .

هذا وينبغي لنا أن نلاحظ أن على بك لم يكن بهضيره عدم المشروع في غزو الحجاز وسورية في ذلك الحين إذا علمنا أن الغرض الأساسي من الحملة السورية كان ضمان حدود مصر الشمالية . والثابت لنا والواضح حينئذ أن الجيوش العثمانية لم تكن تستطيع تهديد مصر .

الثورة لم تكن شعبية :

وتشجيع للحركة على بك ورجاله وأقاموها على أكتافهم ولمصلحتهم . أما الشعب فكان قد فقد الشعور بحقوقه وراح في بحر من الجهل يعاني أسوأ ضروب الفوضى والحرمان مع استبداد الحكام . ولم تسمح السنوات الأربعة التي خطاها على بك في سبيل الإصلاحات أن يتذوق الشعب ثمارها بل أثقل كاهله بتكاليف الحروب التي حالت دون ازدهار الإصلاحات ولذلك كانت ثمارها لاتزال فجأة فلم يستسخرها الشعب .

والواقع أن على بك لو كان حاول إشراك الشعب في ثورته لكان كالراقم على الماء ، فالشعب المصري في ذلك الحين كان نهبا لتيارات مختلفة وعرضة لمؤثرات قوية حالت كلها دون نمو فكرة القومية أو إبراز معنى واضح مفهوم للوطنية . وذلك الوصف نفسه كان ينطبق على على بك الذي لم يكن غرضه قوميا وإنما شخصا ولمصلحته الخاصة . وكان أهم هذه المؤثرات جهل الشعب المتمكن من عقول أفراد ، ثم اهتمامه بالدين أكثر من السياسة ، وتأثره بالمعتقدات الصوفية السائدة (٢) . وأخيراً تشبعه بفكرة الوطن الإسلامي دون أي اعتبار أو تقدير للوطن القومي . وهذا يجعلنا نفسر صداقة على بك لكبار

(١) Volney. T. I. pp. 134—139

(٢) توفيق الطويل : التصوف في مصر أبان العصر العثماني . ص ٩٠ — ٩٥

العلماء كالهلباوى والدمهورى ومشايخ الطرق الصوفية كالحفناوى وغيره بأنها مهارة سياسية قصد بها كسب ولاء الشعب وسكونه عن طريق إرضاء من لهم قوة اقتناعه وقدرة التأثير عليه . وقد نجح فى غرضه هذا كما رأينا واضطر أفراد الشعب أن يكبحوا جماح سخطهم من عناء ما لاقوه فى عهده من تضحيات . ولكن عند ما انقضى عهده أطلقوا عنان ما كبحوه من مر الشكوى .

ولإليك ما كتبه الرحالة فوانى عن رأى الشعب فى على بك بعد وفاته بعشر سنوات ، ولا يسعنى أن أمضى دون أن أذكر هنا ملاحظة سمعتها فى القاهرة من التجار الأوربيين الذين عاشوا فى عصر على بك ووقفوا على خاتمته . فإنهم بعد أن أثنوا على حسن إدارته ، وحماسته فى إقامة العدل ، وماثره على الفرنجة ذكروا ما أثار دهشتى بقولهم أن الشعب لم يكن يتأسى لفقده . بل أن أفرادهم كانوا لا يزالون يرددون شكواهم من مظالمه . ولكنى عندما بحثت حقيقة هذا الأمر لم يبق عندى ما يستدعى عجباً أو يثير دهشة ، فإن الشعب فى مصر كما هو فى أى بلد آخر إنما يكون رأيه فى حاكمه حسب ما تمليه عليه مصلحته الذاتية . فبقدر جهد الحاكم فى تمهيد سبيل الحياة لأفراد الشعب بقدر حبهم له وثناءهم عليه حتى إذا شعروا بأعباء الحياة تشغل كواهلهم نظروا إلى حكامهم بعين السخط وارجعوا تلك العقبات إلى سياسة الحكام الخرقاء . ثم يعلق فوانى على ذلك بقوله : ونحن لا يمكننا أن نعتبر أساس ذلك التقدير أهوجاً أو غير عادل فمن العبث أن يتعلل الإنسان بأن شرف الدولة ، ومجد الأمة ، وتشجيع التجارة ، وترقية الفنون كانت تستدعى منه هذا العمل أو ذاك ؛ لأن مرافق الحياة هى التى كان يجب أن تشغل اهتمامه قبل كل شئ . فماذا كان يفيد المصريين أن يغزو على بك الصعيد ، وتدخل جيوشه مكة والشام إن لم تؤد تلك الفتوحات إلى خير يصلح حالهم ! وعند ما يعز الخبز على الشعب يحق له عدم الاعتراف بحاكمه أو الرضاء بحكمه .

لذلك لم تعد هذه فى نظرهم حسنات بل انقلبت إلى مساوئ . لأنها أثقلت

كواهلهم بتسكاليفها . فقد كلفت حملة الحجاز وحدها ٢٦ مليوناً من الفرنكات ، كما أن تموين الجيوش بغلال مصر مضافاً إلى احتسار بعض التجار من محاسيده لها أحدث مجاعة طاحنة في خلال عامي ١٧٧٠ و ١٧٧١ . إلى أن يقول ، كيف يحق لنا أن نعتبر هياج الخواطر ضد على بك ضلّالاً عند ما كان سكان القاهرة وفلاحو الريف يموتون جوعاً ؟ أكانوا على غير حق عندما سخطوا على تجارة الهند لأن أرباحها تركّزت في أيدي فئة قليلة خاصة ؟ وعند ما صرف على بك ٢٢٥,٠٠٠ جنيهها ثمناً لحلية مقبض خنجره ، ألم يكن من حق الشعب أن يبغض تحفه ونفائسه ؟ ثم فيض إنعاماته من مال الشعب التي كانت بطانته تسميها فضيلة ، ألم يكن من حق الشعب أن يعتبرها رذيلة ؟ أكان فضلاً لهذا الرجل أن يسرف فيما لا يفيد ؟ وهل كان عدلاً منه أن يشبع رغباته الخاصة ويسدد ديونه على حساب الأمة (١) ؟ » .

ونحن مع تقديرنا لعظم التسكاليف التي استوجبتها تلك الحملات نخيل إلينا أن فولني تجاهل أثر انخفاض منسوب فيضان النيل في تلك السنوات . ففي خلال السنوات الأربعة التي قام فيها على بك بثورته (١٧٦٨ — ١٧٧٢) صادفت مصر خمس مواسم للفيضان كان من بينها فيضان بدرجة حسنة في عامي ١٧٦٨ (١١٨٣) ١٧٧١ (١١٨٥) وآخران ضعيفان في عامي ١٧٧٠ (١١٨٤) ، ١٧٧٣ (١١٨٧) والخامس غير كاف ١٧٧٢ (١١٨٦) (٢) .

(١) Volney . T. I. pp. 135—137 وقد ذكر مثلاً لمسألة الديون في ص ١٣٧ قال « وفي إحدى مرات نفيه ضرب خيامه خارج القاهرة ثم أعطى مهلة ٢٤ ساعة لتسديد ديونه . وكان من ضمنها دين (لحسن الانكشاري) عجز على بك عن تسديده . فأخرج حسن ضعف الدين وقدمه لعل بك فتأثر لذلك وأقسم (برأس النبي) أن يعطي حسناً ثروة لا نظير لها عندما تقدر له العودة — فلما عاد شيخاً للبلد جعل حسناً متعهداً لتوريد الأغذية الحكومية فرح من وراء ذلك ثروة طائلة ورغم ما كان يذاع من مغالاة حسن فان على بك تفاؤل عنه ورفض أن يحاسبه . »

(٢) أمين ساي باشا تقويم النيل ج ١ ص ٢٤ و ٧٢ . وكان يعتبر منسوب النيل وقت الفيضان حسناً إذا بلغ ارتفاعه الحقيقي ١٤ ذراعاً عند مقياس الروضة ويعتبر منخفضاً إذا كان بين ١٠ و ١٣ ذراعاً — ويعتبر غير كاف إذا لم يتعد ارتفاعه ١٠ أذرع .

خداع المعلم رزق :

أما العامل الخامس فهو مزيج من دسائس الدولة وإسراف على بك في منح ثقته لمن لا يستحقها واعتقاده في ارتباط حياة الأشخاص ببعض الأفلاك ، وهو يتمثل في خداع المعلم رزق .

بزغ نجم المعلم رزق عندما غير على بك سياسته المالية فنزع إدارة الجمارك من اليهود واستخدم المسيحيين والأقباط بدلاً عنهم . وحبب رزق إلى نفس على بك شخصيته القوية ومهارته في علم الفلك واستيحاء النجوم ، وهذا ما كان يصادف هوى في نفس على بك ويؤثر في توجيه أعماله تأثيراً قوياً . واتخذ على بك وزيراً له ومشيراً ، ولم يعد يصدر في حركة من الحركات إلا بعد أخذ رأى المعلم رزق القبطى أو اتباعاً لنصيحته (١) .

وقوى هذا من مركز رزق وصار لا يتسنى لشخص ما سواء من المصريين أو المماليك أو الأجانب أن يحصل على موافقة على بك في أى أمر من الأمور دون موافقة أو توصية المعلم رزق . أما على بك فقد ارتاح إلى آراء رزق . وأما أبو الذهب فإمتلاً قلبه حقداً وغيره (٢) ، وأما المعلم رزق فلم يحفل بشعور أبى الذهب إذ كان مستحوذاً على ثقة مولاه وحسن تقديره .

وسارت الأمور في مجراها الطبيعي حتى تهدد نفوذ على بك وحياته بتهديد أبى الذهب لمدينة القاهرة في أبريل سنة ١٧٧٢ — ولما عزم على بك على الفرار إلى صديقه وحليفه ظاهر العمر أرسل يطلب من المعلم رزق كل ما يوجد بالخزانة من مال . وفى تلك الظروف الدقيقة اختفى رزق دون أن يحقق رغبة مولاه على بك وكان ذلك من ضمن العوامل التى زادت في حرج مركزه .

ادعى رزق فيما بعد أنه أخفى الخزانة في باطن الأرض واختفى هائماً على وجهه في الصحراء في زى درويش مسلم خشية أن يقع في يد أبى الذهب فيقتص منه

(١) Bruce: V. I. pp. 32—34

(٢) Lusignan: pp. 90—91

ويسميه العذاب (١). والذي يتضح لنا أن رزقا قد اشترته الدولة العثمانية لمصلحتها وبهره الذهب العثماني فأعماه عن طريقين الوفاء لمولاه ، وعلى ذلك أخذ يدفع به من خطأ إلى خطأ حتى كانت الخيانة التي ذكرناها ، إذ أنه عندما انتعشت آمال علي بك بسقوط يافا في نوفمبر سنة ١٧٧٢ ، وقوى الأمل في نفسه باستعادة مصر دفعت الدولة بصنيعهما رزق ليكمل دور الخيانة فعاد إلى الظهور ثانية وسط دهشة الجميع وعدم تصديقهم .

شاهد التاجر لوزنيان تلك الحادثة وكتب عنها يقول « وفي شهر نوفمبر ، بينما كان حصار يافا قائما ، حضر المعلم رزق رئيس الادارة العربية لدى علي بك — والذي لم يعثر عليه عندما اضطر لمغادرة مصر — وعاد رزق إلى المعسكر وسط دهشة الجميع وكان في حالة يرثى لها : يرتدى قميصا قدرا مهلهلا ، ويتدلى من كتفه جراب من الجلد ، وقد قص شعره وعقصه كما يفعل الأحباش . وكان عارى الرأس حافى القدمين وبالاختصار كان في زى نساك (درايش) المسلمين . وكانت بشرته برونزية بعد أن لفحتها الشمس . وكان يشبه في مجموعه شكل العفريت أو الشبح .» إلى أن يقول « وعند ما سمع على بوصوله لم يكمد يصدق أذنيه ، فأمر باحضاره وحينئذ لم يستطع أن يتمالك نفسه من الضحك من منظره الذي يدعو إلى السخرية . وبعد أن وجه إليه أسئلة قليلة سمح له بالراحه وأمهه بملابس لائقة . وعندما علمت بطانة علي بك بمقدم المعلم رزق أسرع الجميع يقدمون الهدايا الضرورية له حينئذ . أما أنا فقدمت إليه ساعة ذهبية وقدر ستة فناجين من القهوة الصينية وست فناجين من الفضة وإثنين لصنع القهوة وصيوان لللباس وأشياء أخرى .» (٢) .

وبعد أن علل اختفائه السابق (من أبريل إلى نوفمبر سنة ١٧٧٢) بما لا يخرج عن التعليل الذي ذكر أضاف أن علي بك قدر ظروف المعلم رزق فأعاده إلى منصبه . هكذا تمهد السبيل أمام الخائن رزق لكي يلعب دوره الأخير . فبينما كان

Lusignan, p. 140. (١)

lusignan, pp. 121, 122, 131. (٢)

على بك يمهّد لعودته إلى مصر . ويستوثق من أتباعه بالقاهرة وحسن استعداد جيوشه بالشام يساعده ظاهر ووزيره ابراهيم الصباغ ، أخذ الخائن رزق يسر إليه أن ساعة الرحيل قد أزفت وأن السكواكب تشير بذلك ، وأنه لا حاجة لمولاه بانتظار وصول المدد الروسى ما دام النصر قد كتب له .

وكان أن أسرع على بك بالعودة رغم عدم وصول النجدة الروسية ونصائح ظاهر ووزيره الصباغ فكانت النهاية المحزنة . وأخيراً اختفى المعلم رزق نهائياً بعد أن أدى دوره بنجاح تام (١) .

عدم كفاية مدد ظاهر العمر :

أما العامل السادس الذى ساهم فى هزيمة على بك الأخيرة فهو عدم كفاية المدد الذى هياه ظاهر العمر لحليفه على بك . فقد حاول ظاهر كثيراً أن يمنع على بك من العودة إلى مصر أو على الأقل أن يؤجل تلك العودة ما أمكن لأن وجود على بك فى الشام وهو المخلص لقضية ظاهر كان أكبر ضمان لتفوق الحليفين على عدوهم المشترك . ويدلنا على ذلك رسالة القنصل الفرنسى فى صيدا التى لخص فيها رأيه بقوله : أنه وأن كان يخيل إليه أن على بك هو القوة المنفذة للأعمال التى جعلت تلك المنطقة مسرحاً للسكوارث فانها فى مجموعها ليست سوى مشروع للتوسع أو جدهته أطلع ظاهر للإستيلاء على جميع المدن الساحلية (٢) .

وكان ظاهر يتعمل حيناً بانتظار المدد الروسى ، أو بخيانة ممالك مصر وخدايعهم حيناً آخر ، ولم يكن ذلك مكرراً منه بل كان نصيحاً خالصاً أو حاء إليه موقف على بك وموقفه هو مهددأ من باشوات الشام . وبذلك لم يستطع على بك أن يحصل من حليفه على أكثر من ثلاثة آلاف على رأسهم صهره كريم وابنه صليبي مع بعض الأموال . إذ لم يكن فى استطاعة ظاهر أن يستغنى عن قسم كبير من جيشه لمساعدته ،

(١) Lusignan. pp. 141—142

(٢) Charles-Roux: les Echelles..., p. 97

وإن كان ميخائيل نقولا الصباغ العكاوى صاحب ترجمته يقول بأنه كان فى نية ظاهر أن يجهز تجريدة عظيمة عدتها مائة ألف مقاتل (١). وهكذا اضطر على بك أن يقف فى الصالحية بثمانية آلاف يناضل عشرين ألفا فى ظروف قاسية أفقدته الأمل فى النصر .

* * *

تأخر المساعدة الروسية :

أما العامل السابع والأخير فكان له أثر حاسم فى فشل على بك فى الصالحية ونعنى به تأخر المساعدة الروسية التى ألح على بك فى طلبها .

ونحن لو قلنا أن ثورة على بك ليست سوى لعبة روسية نجحت فى أول الأمر لمساعدة روسيا، ثم فشلت عند انقطاع تلك المساعدة أو تأخرها لبعدها كل البعد عن الحقيقة الثابتة وهى أن ثورة على بك حركة مستقلة تماما عن الحرب الروسية العثمانية وأن تكن الأولى استفادت من حدوث الثانية . كما نخطئ كذلك إذا قلنا أنها قامت بتجريض روسيا حتى تظهر لنا وثائق تنافى ذلك ، وإن كنا نحن لانفى أن حركة على بك صادفت ترحيبا من روسيا ونوعا من التشجيع .

أما على بك فكان ينظر إلى روسيا كدولة تربطها روابط العداء المشترك للدولة العثمانية . وكان يرجو من صميم فؤاده أن يرتبط معها برباط من التحالف الوثيق وأن يعقد معها محالفة ومعاهدة دفاعية ضد الدولة العثمانية ، لأن روسيا فى نظره كانت كما كان ظاهر العمر عنصرا مكملا لقوته الحربية ، فبما كان ظاهر حليفا يمدده بالأموال والرجال وكانت أملاكة قواعد حربية أمامية للدفاع عن مصر فان روسيا كانت تصلح موردا يسد حاجته إلى الفنينين وحاجة جيشه إلى الأسلحة الحديثة وخاصة المدافع المدافع المييدان منها ومدافع الحصار . وكان أسطوها فى نظره سيجا يحمى شواطئ مصر وشواطئ الشام ، وسلاحا يسلطه على الموانئ

العثمانية متى عادته الدولة وهو أخيراً وسيلة ناجحة لتكوين جيوشه بسرعة وسهولة. وأما روسيا فكانت ترى في حركات ظاهر العمر وعلى بك وغيرهما معاول هدم للدولة العثمانية ، ومتاعب تبليبل أفكارها وتضعف من قدرتها على مجابهة الجيوش الروسية المهاجمة فأظهرت ارتياحها ووهبتها تشجيعها وأيدتها بمساعدتها ولكن بالقدر الذي سمحت لها به ظروفها الخاصة .

أما العامل الذي كان يحدد مدى تلك المساعدة فهو رغبة روسيا في عدم تشتيت قوتها ومواجهة جيوش الدولة في أكثر من ميدان وذلك على قدر الامكان. ذكرنا أن على بك اتصل بالروس أكثر من مرة ، وكان أول اتصاله بهم عندما عول على إرسال حملة أبي الذهب لمساعدة ظاهر إذ حمل مندوبه يعقوب الأرمني رسالة إلى أمير البحر الروسي في البحر الأبيض السكونت الكسيس أرلوف يخبره بقيامه بالثورة ويعرض عليه عقد محالفة مع قيصر روسيا ، ووعده بكل ما يحتاج إليه جيشه وأسطوله من معونة ومال . فرد عليه الأمير مهنتاً ومتمنياً نجاح حركته ، ووعده بإرسال طلبه لعرضه على القيصر .

وكان اتصاله الثاني في أبريل سنة ١٧٧٢ على يد يعقوب الأرمني أيضاً ، وذلك عندما اضطر إلى الفرار من القاهرة أمام جمحافل أبي الذهب ، أرسل يخبره بما حدث وبهزمه على التوجه إلى سورية ويرجوه أن يمدّه بمدافع وجنود وخبراء يستعين بهم على العودة إلى مصر . ولكن على بك لم يتلق جواباً عاجلاً على رسالته هذه .

وفي أثناء مرضه في معسكره أمام عكا ، بعد وصوله إلى الشام ، تصادف مرور بعض قطع الأسطول الروسي بقيادة الشفالييه جورج ريزو والشفالييه قسطنطين سارو من مساعدى أمير البحر الروسي فعرجا على معسكره عندما علما بوجوده ، فأكرهما وأرسل معهما ذا الفقار (أغسطس سنة ١٧٧٢) مزوداً بالهدايا وخطاب إلى القيصرة يمتدح فيها خصالها ، وآخر إلى أمير البحر يرجوه أن يرسل إليه مدافع ومهندسين وفرقة من الجنند الألبانيين ، ويعدّه بأن يجعل

تحت تصرفه كل قوة مصر الحربية متى تمكن من العودة إلى وطنه ، واخير اعرض عليه عقد معاهدة تجارية تسمح لروسيا بالدور الأول في تجارة الشرق عن طريق البحر الأحمر وموانئه .

ولم يكذب نصف شهر سبتمبر ، وكان على بك مقيما على حصار يافا حتى وصل ذو الفقار ويعقوب الأرمي على ظهر سفينة روسية تحمل ضابطين روسيين وثلاثة مدافع بجراراتها وسبعة بنادق وبعض الهدايا ورسالة من أمير البحر إلى على بك تتضمن وعودا بالنجدة السريعة .

وقد علق التاجر لوزنيان على تلك الوعود بقوله « وقد اعتمد عليها على بك كثيرا ولسكنها لم تتحقق أبدا وكان الضابطان — الكابتن كلنجيلينوف والملازم سيرجي بليششوف النجدة الوحيدة التي تلقاها على بك من روسيا وهذان كانا قد أرسلنا لتقدير قوة على بك فقط (١) » .

ونحن لا ننكر مدى المساعدة التي قدمها هذان الضابطان لعلى بك في حصار يافا ، ولا ننكر أيضا تلك المظاهرات البحرية التي قامت بها السفن الروسية أمام سواحل الشام ومساهمتها الجريئة في ضرب بيروت ويافا أكثر من مرة ، إلا أنها كانت بدون أثر فعال وغير خالصة بقصد مساعدة على بك أو حليفه ظاهر .

وقد ذكر لوزنيان أن الأميرال أرلوف خطأ خطوة تمهيدية لمساعدة على بك مساعدة عملية بينما كان هذا قائما على حصار يافا فأرسل في فبراير سنة ١٧٧٣ الضابط ماكسميليان بونخارد Maxmilian Bongrde الألماني الاصل وهو في خدمة روسيا بمهمة سبرغور استحكامات ميناء الاسكندرية . وأن هذا اضطر على أثر زوبعة إلى الالتجاء إلى يافا حيث قدمه لوزنيان إلى على بك ثم غادرها إلى عكا ثم صور حيث عاد من حيث أتى دون أن ينفذ مهمته طبعاً (٢) .

Lusignan, pp. 121,122,131 (١)

Lusignan, pp. 141,—142 (٢)

ثم أن المؤرخ همر Hammer يفيدنا بأن فرقة روسية مكونة من أربعائة جندي ساعدت على بك في الصالحية وبوجود أربعة من الضباط الروسين ضمن الأُسرى من جيش على بك في معركة الصالحية وأنهم أرسلوا إلى القسطنطينية (١) ولا شك في أن هذا الزعم لا يستقيم مع رأى لوزنيان الذي أسلفنا ذكره ، فإن جاز لهذا أن يغفل ذكر تلك الفرقة فإنه لا يعقل أن ينص صراحة على عدم وجودها .

وهكذا نجد أن على بك داوم على إرسال طلبات المساعدة من روسيا وأن هذه اكتفت « بالتمنيات والوعود الخلابة بالمساعدة العاجلة » . وفي ذلك يقول السفير الفرنسي بالآستانة سان بريست Saint-Priest في بعض مذكراته « يخيّل إلينا أن الروسية كانت تعمل أهمية كبرى على علاقتها بعلى بك والشيخ ظاهر ، وعلى إعادة الأول إلى سلطته في مصر . ولكنّها لم تبدل كل ما في طاقتها في سبيل ذلك فرغم اشتراكهم في حصار بيروت فإن الحرب في سوريا لا تدخل في حسابنا ، وأن خسارتهم الحقيقية جاءت من تباطؤهم في نصره على بك لاستعادة مركزه في مصر (٢) » .

« إذن ما هو السبب الحقيقي الذي منع روسيا من معاونة على بك معاونة فعالة ؟ لمس ذلك الرحالة جيمس بروس James Bruce ، وتكلم عنه بروح العصر فقال « من المؤكد أن قواد الروس لم يكن لديهم تفويض ، ولم يتضح لهم الحد الذي يمكنهم من أن يساعده (أى على بك) على بلوغه ولا كيف يجب أن يستفيدوا من ذلك — فلم تكن بين الطرفين علاقات صريحة ومستمرة ، ولم يكن لهم ولا له مندوبين أكفاء فضاعت الفرصة قبل أن يصل الطرفان إلى إتفاق حاسم » . ثم أنه نعى على على بك عدم استخدام الشاب البندقي كارلو روستي رغم كفاءته

(١) Hammer : Livre Lxiii p.352

(٢) Charles-Roux, Echelles... p. 109.

وصلاحيته متى زود بتعليمات صريحة للقيام بدور المفاوض الناجح لدى بلاط
بطرسبرج (١).

أما على بك فلم ينتظر المدد الروسى وتقدم قاصداً مصر فى أوائل مارس
سنة ١٧٧٣ . ولسنا على يقين عما إذا كان سينتظر طويلا . ولكن قنصل فرنسا
فى صيدا يخبرنا فى تقريره بتاريخ ٤ يوليه سنة ١٧٧٣ أن حملة روسية بحرية برية
وصلت لمتجدة على بك دون أن تعلم مصيره الأخير . وكانت هذه الحملة مكونة
من إحدى عشرة سفينة وتوابعها ، منها فرقاطتان إحداهما مسلحة بستة عشر مدفعا
وثلاثة منها مسلحة بأربعة وعشرين مدفعا ، وعلى ظهرها حملة برية مكونة من
ألف ومائتين من المقاتلة معظمهم من الروس المجهزين تجهيزاً حسنا . وكثير من
ضباط المدفعية والمدافع والقناصل وبالاختصار كل ما يجعل الحملة كاملة العدد
والعدة (٢).

وبما لا شك فيه أن وصول هذه الحملة قبل ذلك بشهر واحد كان يغير نتيجة
النضال الأخير فى الصالحية بفضل مساعدة الضباط الروس لعلى بك بفنهم الحربى
وأسلحتهم الحديثة .

* * *

ثانيا — أثر الحركة فى تاريخ مصر

غير أن فشل الحركة لا يعنى إنعدام آثارها فانا نلحس لها فى التاريخ المصرى
عدة نتائج . وكانت أولى نتائجها الملموسة لإنفراد على بك بشئون الحكم فى مصر
فقد اختفى الباشا ممثل السلطان وضعفت الأوجاقات العثمانية ما عدا فرقة
المستحفظان التى تولت عمل الشرطة .

Bruce. T. 2. pp. 388' & 251, (١)

Charles-Roux : Les Echelles, ..., p. 211 (٢)

كما كانت الحركة ضربة للسيادة العثمانية لم تنفخ منها حتى بعد وفاة على بك . ولم تعد مصر ، في الفترة الواقعة بين سنة ١٧٧٣ ونزول نابليون بجيشه في مصر سنة ١٧٩٨ سوى مسرح لتجبر بكوات المالك وتجاهلهم السيادة العثمانية — بدأت تلك الفترة في عهد أبي الذهب ، الذي رغم اعترافه بالولاء للسلطان وإرساله الخزنة وأوقاف الحرمين ومعتادات الاستانة ، فإنه انفرد بأمور مصر كما لو كانت مستقلة تماما وكتب الجبرتي يقول في ذلك « أن سنة ١١٨٨ هـ (١٧٧٣ م) استهلت ووالى مصر خليل باشا محجوز عليه ليس له في الولاية إلا الاسم والعلامة على الأوراق ، والتصرف السكلي للأمير الكبير محمد بك أبو الذهب (١) » .

كما قرر ذلك المؤرخ جودت العثماني قال « وبعد مدة وجهت الدولة العلمية خليل باشا واليا على مصر . فجلس على منصة الحكم على العادة القديمة ولكن لم يكن له من الأمر شيء بل كان النفوذ بالاستقلال لأبي الذهب (٢) » .

وتمتع بذلك النفوذ بعد وفاته سنة ١٧٧٥ خشيداشه إسماعيل بك ثم مملوكاه إبراهيم بك ومراد بك . وحوادث مصر في الفترة من سنة ١٧٧٥ حتى ١٧٩٨ نزاع بين هؤلاء مصحوب باضطرابات وظلم وقسوة عمت القطر وكانت شديدة الوطأة على التجار الفرنسيين . وقرر تلك الحقيقة البارون دي توت الذي عينته الحكومة الفرنسية مفتشا لاسا كل اللقنت ١٧٧٧ ، وكلفته بمهمة سرية في مصر . كما لاحظته جميع الرحالة الذين زاروا مصر بعد على بك مثل دي بينو ١٧٧٧ Abbé de Binos واروين ١٧٧٧ Irwin وسافاري ١٧٧٩ Savary وسونيني Sonnini وكابر ١٧٧٩ Capper والكونت دانتريج ١٧٧٩ C. D'Entraigue وروك Rooke وفولني ١٧٨٥ Volney وأوليفيه ١٧٩٣ Olivier وبراون ١٧٩٨ Browne وغيرهم .

(١) ذكر الجبرتي ج١ ص ٣٧٧ أن خليل باشا وصل مصر في اليوم السابع عشر من شهر ربيع الأول ١١٨٢ هـ . (١٧٧٢ م) وطلع القلعة في يوم الخميس ١٩ ربيع الأول .
(٢) ج١ ص ٤٢٨ .

ففي سنة ١٧٧٨ مثلاً وقت أن كان الرحالة سونيني بالقاهرة حبس مراد بك محمد باشا لاتهامه بمؤازرة إسماعيل بك . وعندما وصل كابر إلى القاهرة قيل له أنه لا داعي لزيارة الباشا وضرورة زيارة شيخ البلد . وقد علق على تلك النصيحة بقوله « إن شيخ البلد رئيس الديوان وهو رأس السلطة التنفيذية ^(١) » . كما أشار الرحالة أروين في خطابه من القاهرة بتاريخ ٢١ سبتمبر سنة ١٧٧٧ إلى أن « الباشا الذي يرسله الباب العالي هنا (في مصر) ليس له تأثير فعلي في الديوانين ، بل ليس له صوت عملي في شئون الحكم ^(٢) » .



وقد تكدت شكايات الدولة العثمانية نفسها من سوء الحالة في مصر ، واستدعى الحال إرسال حملة بحرية عثمانية بقيادة حسن باشا الجزائريلى ١٧٨٦ (١٢٠٠هـ) ففر مراد بك وإبراهيم بك إلى الصعيد ، وعاد إسماعيل بك إلى شياخة البلد . ولم تكن لهذه الحملة أية نتيجة عملاقة لتقوية النفوذ العثماني بمصر ، بل على العكس بمجرد وفاة إسماعيل بالطاعون عاد إبراهيم ومراد إلى شياخة البلد وأماره الحج وتجبرا حتى فاجأهما نابليون .

وضعت فرق الحامية عدا فرقة اليكيجرى ، ولم يعد لها كيان حرنى في عهد على بك ، ثم أعيد جمع من بقى من رجالها ابتداء من عهد أبى الذهب ولكن قيمتهم الحربية كانت فى حكم العدم ولم تعد قوة مصر الحربية تتمثل إلا فى المماليك . أشار إلى ذلك فولنى ١٧٨٥ بقوله « والحق أن كل قوة مصر الحربية إنما تتمثل فى فرقة المماليك . ذلك أن على بك — زعيم المماليك — كان قد أذل فرق الحامية العثمانية إذلالاً تاماً لدرجة أننا نجد اليوم أن اليكيجرية والعزب والخمس فرق الأخرى ليست سوى عصبة من ذوى الحرف والاتباع يقومون بخفارة الأبواب ^(٣) » .

Capper, p. 18 (١)

Irwin, p. 340 (٢)

Volney p. 160 (٣)

بل أن الرحالة براون ١٧٩٨ في الملحق الرابع من مؤلفه عاب على سافاري أنه تسكلم عن فرقة العزب (ج ١ ص ٢٧٥) كما لو كانت موجودة حقيقة ، والواقع أنها كانت قد انحلت منذ عدة سنوات ، مثلها في ذلك مثل بقية الفرق بحيث يمكن اعتبارها في حكم العدم . أما اليكيجرية فيمكن اعتبارهم حرسا خاصا للأبواب ونوعا من الشرطة لا أكثر ولا أقل (١) .

وعند ما جاء حسن باشا القبطان بحملته المشهورة سنة ١٢٠٠ هـ للقضاء على إبراهيم بك ومراد بك « نودى على جميع الأعضاضات بالخروج إلى الوطاق . فتكدر الناس لذلك واختفوا في الدور ولبس كثير منهم ملابس الفقهاء والمجاورين وخو طب حسن باشا في شأن إعفائهم من ذلك الأمر وقالوا له : يا سلطانم الجماعة الأعضاضات مكرويون من هذا الحال ، وغالبهم فقراء ومنهم من لا يملك قوته ، وما أعطيتموهم نفقة . فقال ليست هذه الحادثة أحدنناها بل ذلك أمر قديم لأنهم ينتسبون إلى الوجاقات . فقليل له نعم ، ولكن العادة القديمة كان كل وجاق له دفتر وفيه عدة معدودة منهم ، ولهم جامكيات وعوائد وكساوى وهذا الأمر بطل من مدة سنين . فلما فهم حقيقة الحال أعفاهم وأمر الأغا فنادى عليهم بالعفو (٢) ، تلك كانت حال الأوجاقات ورجالها قبيل الحملة الفرنسية فلا نستغرب إذن كيف أن حركة على بك أضعفت القوة الحربية العثمانية بمصر ، ولم توجد بدلها قوة كافية لمصد حملة قوية كالحملة الفرنسية . وكان ذلك من العوامل التي أدت إلى النصر الأول الذي صادفه نابليون .

* * *

وثمة ذيل للحركة أدنى إلى توجيه حملة مصرية إلى الشام انتهت ب وفاة أبي الذهب ثم قتل ظاهر العمر فيما بعد ، وبيان ذلك أن ظاهراً بعد أن فقد حليفه على بك ، وتأكد من عداء أبي الذهب راسل عثمان باشا والى دمشق في التوسط للحصول على عفو الدولة .

(١) Browne : Travels, p. 486

(٢) الجبوتي ج ٢ ص ١٣١ .

وعمدت الدولة إلى خداعه فأرسلت إليه في شوال ١١٨٨ (١٧٧٤) فرماناً — أورد صورته الأمير حيدر في تاريخه — أشار إلى ما حدث من عصيان سابق وعفو لاحق جاء فيه . . . فليكن معلوماً أنك من قديم الزمان من المتنعمين بنعيم الدولة العلية . . . وكنت تؤدي الأموال السلطانية قبل كل إنسان ، وقط ما عرجت عن صدق الخدمة وطرق الاستقامة إلا منذ أزمان قريفة لحدوث بعض أسباب نفسانية أظهرت التردد والوحشة خمس سنوات . . . وكان ما فهم من عرض حالك أنك إذا حصلت على العفو عما جرى منك من الحركات غير المستحسنة وصرت منظوراً إليه بعين الرحمة لتتضع قلادة الطاعة في عنق العبودية وعلى هذه الشروط المذكورة قد أجرينا قلم ما مضى على صفائح ذنوبك إلى يومنا هذا . . . (١) .

وعاد الشيخ ظاهر حاكماً على صيدا وعكا وحيفا ويافا والرملة و نابلس وصفد وأقضى ذلك مضاجع أبي الذهب ، فاستصدر فرماناً من السلطان يسمح له بتوجيه حملة للقضاء على حليف على بك عدو السلطنة ، ولم يتوان الباب العالي في السماح له بذلك . وتبدأت حملة جرارة قادها أبو الذهب بنفسه (٢) . وخرج من مصر في أوائل ١١٨٨ (١٧٧٤) فوصل غزة ، ثم حاصر يافا ستين يوماً وفتحها عنوة ثم ألقى على أهلها درساً لم يترك لهم فرصة بعد ذلك للاستفادة منه ، وبنوا من رؤوس القتلى عدة صرامع ووجوها بارزة تنسف عليها الأتربة والرياح والزوابع . .

ثم توجه قاصداً عكا لملاقاة ظاهر العمر ، وأسرع ظاهر يستنجد بالأمير يوسف شهاب . ولكن هذا أشفق على نفسه وجيشه من هزيمة محققة ومصير

(١) الأمير حيدر ج ٢ ص ٨٢١ — ٢٢١ .

(٢) لمصطحب معه مراد بك وإبراهيم بك طنان وإسماعيل بك ، وهو أحد ممالك إسماعيل بك الكبير . وترك بمصر إسماعيل بك خشداش سيده ، وإبراهيم بك مملوكه . وكانت الحملة مكونة من ستين ألفاً ومجهزة أحسن تجهيز ومن بينها بعض المدافع بقيادة الانجليزى روبنسون ومدفم ميدان كبير ، أجرى سبكه في مصر وسماه الجبرتى — أبو مايله — (الجبرتى ج ١ ص ٢٨٥)

كمصير أهل يافا ، عند ذلك فر ظاهر من عكا ونصح أهلها بعدم مناوأة القائد المصرى . فدخلها هذا في زهوة النصر ، وأرسل يأمر بإقامة الزينة بمصر ، ولكن القدر لم يمهل حتى يفرح بنصره أو يكمل غرضه وفتكت به حمى شديدة في أوائل ١٧٧٥ (٢٤ ربيع أول ١١٨٩) وعاد الجيش المصرى بجثة أبى الذهب إلى القاهرة حيث دفنت في مسجده المعروف بجوار الجامع الأزهر (١) .

(١) يقال أن أبى الذهب أمر في أثناء سيره من يافا إلى عكا بهدم دير إيليا النبى (مار الياس) وقتل رهبانه فسلط الله عليه سيف الحمى ولذا كانت تقاتله أحلام مفزعة فيقول «ردوا عني هذا الشيخ المقتدر» والناس لا يرون حوله أحداً « ولما مات فرح الناس وقالوا فيه شعرا .
لما دنا كل المني والهم عن قلبي ذهب
والسعد أقبل ظاهراً أرخت مات أبو الذهب

يوسف الديس المجلد السابع ص ٣٩٧ إلى ٣٩٩ .

ولعل محمد بك أبو الذهب في غير حاجة إلى تعريف ، فنذ اشتراه على بك سنة ١١٧٥ هـ . وهو ساعده الأيمن أحله خازن دار محل اسماعيل بك ، ثم صبح سيده على بك إلى الحج سنة ١١٧٧ هـ حيث أعتقه على بك « وأرخصي لحيته على بئر زمزم » . ولما عاد إلى القاهرة تقلد الصنجدية في نفس العام . ومنذ سنة ١١٧٨ هـ عرف بلقب أبى الذهب لأنه « لا ليس الخلع بالقلعة سار يفرق البقاشيش ذهباً . وفي حالة ركوبه ومروره يثر الذهب على الفقراء والجيعة حتى دخل إلى منزله ، فعرف بذلك لأنه لم يتقدم نظيره لغيره ممن تقلد الأمريات . واشتهر عنه هذا اللقب وشاع وسمع عن نفسه شهرته فسكان لا يضع في جيبه إلا الذهب ولا يعطى إلا الذهب ويقول أنا أبو الذهب فلا أمسك إلا الذهب » كان بهي الطامة ، جميل الصورة ، أبيض اللون ، معتدل القامة والبدن ، مسترسل اللحية ، مهاب الشكل وقورا محتشما قليل الكلام والانتفات ، ليس بمهدار ولا خوار ولا عجول . قريبا للخير ، يحب العلماء والصلحاء ويعطيهم وينصت أسلامهم ترجم له الجبرتي ج ١ ص ٤١٧ — ٤٢٠ وورد ذكره في عدة مواضع أخرى وقال « ان المترجم كان آخر من أدركنا من الأمراء المصريين شهامة وصراحة وسعدا وحزما وعزما وحكما وسماحة وحلما » .

قام بأعمال باهرة في عهد على بك فتولى رئاسة الشرطة ، وأدب العربان ، وقضى على منافسى سيده . وهو بطل الحجاز والشام ، ولكنه أخيرا الحائن الأكبر . ولأبى الذهب عدة عمائر بالقاهرة أهمها مسجده المجاور للأزهر ، ومدرسته الملحقة به .

وأحسن أهل الشام جميعا بزوال كابوس مخيف . وكان السلطان قد أصدر فرمانا بتأمير أبي الذهب على مصر والشام تشجيعا له على القضاء على ظاهر ، ولكن أبا الذهب توفي قبل تمتعه بذلك الشرف . أما الباب العالي فقد عول إلى إرسال أسطول بقيادة الغازي حسن باشا لتسلم الأموال التي لم يسدها الشيخ ظاهر فرفض ظاهر دفع الأموال بناء على مشورة وزيره إبراهيم الصباغ ، ولم يستمع إلى مشورة حاكمه على صيدا أحمد أغا الدنكزلى زعيم المغاربة . وكانت النتيجة أن ضربت عكا بقنابل الأسطول ، ورفض الدنكزلى أن يرد على ذلك التهديد ، وأسكت مدافع الأبراج . وشدد حسن باشا الضرب وتبين ظاهر الخيانة ، وأيقن بعيب المقاومة فعول على الخروج من عكا . وبينما هو كذلك إذ أطلق أحد جنوده من مرتزقة المغاربة رصاصة أردته قتيلا ، وتسلم القبطان العثماني حسن باشا مدينة عكا وعادت السيادة العثمانية على أملاك الشيخ ظاهر « حاكم عكا وصفد وشيخ أفليم الخليل » كما عادت من قبل على أملاك حليفه على بك قائمقام مصر سابقا .

* * *

وفي عهد على بك أصبحت لمصر شخصية متميزة ، ولأول مرة في العصر العثماني الأول اتصلت مصر مباشرة بالسياسة الخارجية ، وعلى هذا الأساس حاول على بك عقد معاهدات سياسية مع روسيا وجمهورية البندقية ، كما نجح في عقد اتفاقات جرمية مع الانجليز . وتطلع حاكم البنغال وارن هاستنجنس إلى عقد معاهدة تجارية مع مصر لمصلحة التجارة الانجليزية .

والجدير بالملاحظة هنا أن تهافت الانجليز والفرنسيين على عقد معاهدات تجارية مع مصر في عهد على بك والعهود التالية نشأ من تبينهم أن وجود حكومة قوية في مصر تحمي الأمن وطريق التجارة تجعل بضائعهم في مأمن من قطاع الطرق وفي حى من معارضة الدولة العثمانية . ولا شك في أن التوفيق الذى لاقوه في عهد على بك ، ونجاح التجربة أدبا إلى استمرار نشاطهم من بعده وإلى انتعاش

حركة لإحياء الطريق المصرى وما تبع ذلك من نتائج سياسية .

وكان من بعض نتائج ذلك أن عقدت اتفاقية ١٥ ذى القعدة ١١٨٦ (فبراير سنة ١٧٧٣) لمصلحة شركة الهند الشرقية التجارية مع أبى الذهب بفضل وساطة الانجليزى جيمس بروس تأكدت نصوصها بمعاهدة ٤ المحرم ١١٨٩ (٧ مارس ١١٧٥) .

كما عقدت معاهدات مصرية فرنسية بين مراد بك والحكومة الفرنسية فى أوائل ١١٩٩ (١٧٨٥) ، وتلتها معاهدة تجارية على يد بلديون قنصل إنجلترا بمصر فى ٢٨ رجب ١٢٠٨ (فبراير ١٧٩٤) على نمط المعاهدات الفرنسية السابقة (١) .

واستمرت تلك الجهود والأبحاث من ناحية الفرنسيين فى أثناء إقامتهم بمصر فى زمن الحملة ثم فى عهد محمد على وعباس حتى نفذت فسكرتهم فى عهد سعيد بحصول ديليسبس Delesseps على امتياز بحفر القناة التى تصل بين السويس والبحر الأبيض المتوسط ، ثم افتتاح هذه القناة رسميا فى عهد اسماعيل

* * *

وما لا شك فيه أن حركة على بك وحملاته إلى الحجاز والشام ، ونجاح الفرنسيين والانجليز فى جنى الثروات الأولى لإحياء الطريق البرى ، ثم اتصاله بروسيا كلها عوامل لفتت أنظار الدول إلى مركز مصر الخطير كحقله تربط الدنيا القديمة ، ومحط وسط أقصر طريق بين أوروبا والهند ، وبدأت بسبب ذلك اطماع بعضها تجارى وغالبها سياسى من جانب النمسا وروسيا وإنجلترا وفرنسا « فقد فكرت الامبراطورية النمساوية — فى عهد الامبراطورة مارى تريزا — فى السيطرة على تجارة الشرق وتحويلها إلى الطريق البرى عبر مصر تحت إشرافها ، وكان من مؤيدى هذه الفكرة ومروجيها بمصر فى سنة ١٧٨٢ كارلو روسي

قنصل عام النمسا بالقاهرة ، ولكن هذه الأفكار لم تتخذ شكلا عمليا .
وأما روسيا فيظهر أنها ندمت على عدم استغلال الفرصة التي هيأتها لها حركة
على بك فأخذت تنو إلى مصر في أواخر القرن الثامن عشر ، فعيّنت لها قنصلا
بالاسكندرية هو البارون دي ثونيه B. de Thonus وكلفته أن يحرض ابراهيم بك
ومراد بك على الانفصال عن السلطان ، ووعدت بمساعدتهما وحمايتهما . وتبع
ذلك استخدام ابراهيم بك لكثير من المماليك الروس . وشعر بذلك القنصل
الفرنسي بالقاهرة المسيو ماجالون Magallon فكتب تقريرا إلى وزارة الخارجية
بتاريخ ٢٧ أكتوبر ١٧٨٨ قال فيه : «ؤكد لمعاليمكم أن الروس يرونون بأبصارهم
منذ مدة طويلة نحو هذه البلاد الغنية — يقصد مصر — وإذا لم تخضع حكومة
المماليك تماما للسلطان فسوف يصلون — الروس — يوما إلى تحقيق مشروعاتهم ،
ويظهر أن القنصل الروسي كان نشيطا جدا فانه لما قتل لسوء حظه بمدينة الاسكندرية
كان ذلك مدعاة لارتياح القنصل الفرنسي فكتب يقول « ينبغي أن نعتبر
وفاة البارون دي ثونيه حادثا سعيدا ، فانه كان رجلا خطرا . ولو أدركه مماليك
محمد بك — أى ابراهيم بك ومراد بك وكانا منفيعين بالصعيد — على قيد الحياة
بعد عودتهما من الصعيد لسبب لنا متاعب خطيرة ، ولتمكن من أن يحقق لقيصرته
مشروع التحالف مع هذه الحكومة » (١) .

أما إنجلترا فقد أحسّت أن محمد علي الكبير أوجد في مصر ابتداء من سنة ١٨٠٥
حالة استقرار وطيدة ، فعادت إلى محاولة عقد معاهدات تجارية ، وإحياء الطريق
البرى ، حتى نجحت في عهد عباس ١٨٥٤ في الحصول على موافقته على اصلاح الطريق
من السويس إلى القاهرة وإنشاء الخط الحديدي بين القاهرة والاسكندرية .
وإن صح لنا أن نقرر أن النجاح الذي صادف على بك في مستهل ثورته ،
وتأسيسه حكومة حازمة سبب ارتياح الدولتين المتنافسين وهما إنجلترا وفرنسا ،

وجعل مصر ميدانا جديدا لتنافسها ؛ ذلك التنافس الذي بدا في شكل محاولات لعقد معاهدات تجارية مع على بك ، فانه يصح لنا أن نقرر أيضا أن اضعاف الحركة للنفوذ العثماني في مصر ، وما تبع ذلك من تهادى البسكوات في استغلال التجار الأجانب على طريقتهن الخاصة أدى إلى تراكم شكاياتهم ، وشكايات قناصلهم إلى دولهم ، وعبثا حاولت حكومة الثورة الفرنسية الحصول على ترصية كافية وشيء من التعويضات لما لحق التجار الفرنسيين بمصر من جراء تعسف البسكوات ، وأهم تلك المحاولات بعثة دبوا — ثانفيل Dubois — Thanville فقد اقترحت « لجنة الأمن العام » الفرنسية على سفيرها بالاستعانة المسيو فرينناك Verninac أن يرسل بعثة إلى مصر لتحقيق النرض السابق — وندب ثانفيل لهذه الغاية ، فوصل الاسكندرية ن أواخر أكتوبر ١٧٩٥ . وتمسك ثانفيل بصحبة القنصل ماجالون من زيارة الباشا العثماني زيارة رسمية ، وحصل منه على وعود طيبة ، إذ كان هذا كل ما في استطاعته ، ثم زار مراد بك و ابراهيم بك . وتكرر اتصاله بهما في شأن دفع التعويضات والحصول على تأكيدات بحسن معاملة الفرنسيين في مصر . وكانت نتيجة تلك الجهود اغفال مراد بك له والامتناع عن مقابله . فغادر مصر فاشلا في أبريل ١٧٩٦ ، بعد أن أيقن أن مقابلة الباشا العثماني أسهل من مقابلة شيخ البلد .

واشتدت وطأة البسكوات على التجار الفرنسيين ، وواظب القنصل الفرنسي على إرسال الشكاوى والاقتراحات . وكان كاهاتدور حول وجوب قيام فرنسا بعمل حرى حاسم لا يقل عن استعمار مصر ، والتحذير من الاعتماد على فرمانات السلطان ، أو توقع أية فائدة عملية من جانب العثمانيين .

ففي ١٧ يونيو ١٧٩٥ مثلا كتب ماجالون تقريرا من صورتين أرسل إحداها إلى السفير الفرنسي فرينناك بالاستانة ، وأرسل الأخرى إلى لجنة الأمن العام بباريس قال فيه « ينبغي ألا نعتمد في تحسين مركز الفرنسيين في مصر على فرمانات — السلطانية — مهما كانت قوية ، بل على العكس من ذلك ، أن

هذه الفرمانات سوف تؤدي فقط إلى زيادة حرج مركزهم . وعلى ذلك فإما أن يتدخل الديوان العثماني بشكل حاسم ، وأما أن يفاد — الديوان — بأن الجمهورية — الفرنسية — ذات قوة تستطيع بها تأديب جماعة من الذين لا تعدو قوتهم الحقيقية أن تكون كبرياء وغرورا . إلى أن قال « وأما إذا كانت الجمهورية تريد الاهتمام بالتجارة واستغلالها ، فالواجب يحتم عليها احتلال مصر بأكملها »^(١) . ثم تعددت تقارير وشكايات ماجالون ، وكانت خاتمتها التقرير الوافي المفصل الذي قدمه بيده إلى حكومة الإدارة ببواريس في ٩ فبراير ١٧٩٨ واسترشدت حكومة الثورة به وبغيره في إكمال حملة لفتح مصر ١٧٩٨ بقيادة يونا بورت^(٢) .

Charles-Roux : Les origines de l'Expedition.. . p271 & Ghorbal : (١)
The Beginnings of the Eg. Question., p. 28 .
Mogallon : Memoires sur l'Eg. (Revue d'Eg) T. 3 Sep. 1096. (٢)
pp. 205—224.

ثبت بمصادر الكتاب

- أولا — الوثائق الرسمية والنقوش التاريخية .
- ثانياً — المخطوطات .
- ثالثاً — المطبوعات العربية والتركية .
- رابعاً — المطبوعات الإنجليزية والفرنسية .

مصادر الكتاب

أولا - الوثائق الرسمية والنقوش التاريخية :

- ١ - نقوش القبة الرئيسية بمسجد الإمام الشافعى بالقاهرة .
- ٢ - نقوش مقبرة على بك الكبير بالقرافة الصغرى بالقاهرة .
- ٣ - وثائق دار المحفوظات العمومية بالقلعة :
(أ) دفاتر التزامات الولايات البحرية والقبلية .
(ب) مجموعات الفرمانات والتفاسيط الديوانية وتذاكر المرتبات .
(ج) دفاتر مرتبات مردان القلاع .
(د) دفاتر جرایة وعلیق .
(هـ) دفاتر مسموح ومرتبات بدل مسموح عن محلول مقاطعة دباغ خانه .
(و) دفاتر التزامات الجمارك .
- ٤ - وثائق وزارة الأوقاف العمومية بالقاهرة :
(أ) حجة وقف على بك الكبير ١٠ شعبان ١١٨٣ .
(ب) حجة إيقاف وضم ١٨ القعدة ١١٨٥ .
(ج) حجة وقف الست نفيسة قادن بنت عبد الله البيضاء مستولدة الأمير على بك الكبير . (رقم ٦٧ ج ١ أهلى بوزارة الأوقاف) .

* * *

ثانيا - المخطوطات (عربية وتركیة وفرنسية) حسب الترتیب الهجائى :

- ١ - رسمى كرىدى (أحمد بن إبراهيم) : خلاصة الاعتبار (+ ١١٩٧)
مخطوط تركى رقم (٧٨٢٨ - تركى) مكتبة جامعة فؤاد الاول .

٢ — شمعدانی زادة : مرعى التواريخ مخطوط تركى رقم (٧٥٨١ تركى)
مكتبة جامعة فؤاد الاول .

٣ — مينخائيل بريك الدمشقى : وثائق تاريخية للكرسى المملوكى الانطاكى
(+ ١٧٨٣) صورة شمسية لمخطوط رقم (٢٩٨٩ تاريخ) مكتبة
البلدية بالاسكندرية .

4. Compte des sommes payées pour avances faites à l'annexion
française, depuis 1656 jusqu' à présent (1759.)
دار الكتب المصرية برقم (2509 His.)

5. Mémoires des negociants de Marseille faisant le commerce
d'Egypte. (pièce manuscrite datée de. Mavseille le 20 Avril 1777).
دار الكتب المصرية برقم (3692 His.)



ثالثا — المطبوعات العربية والتركية (مرتبة حسب الحروف الأبجدية للمؤلفين)

١ — أحمد بن زبى دحلان : تاريخ ابن دحلان أو تاريخ الدول الاسلامية
بالجداول المرضية (القاهرة ١٣٠٦ هـ) .

٢ — أحمد بن زبى دحلان : خلاصة الكلام فى بيان أمراء البلد الحرام ،
من زمن النبى عليه الصلاة والسلام إلى وقتنا هذا (١٣٠٤ هـ)

٣ — أحمد جودت : وقائع دولتعلية من سنة ١١٨٨ إلى سنة ١١٩٦ - أثر
خامة أحمد جودت - دفعة ثانية ، طبعى أولوب .

٤ — أحمد واصف : محاسن الآثار وحقائق الاخبار ، جزآن تركى ، طبع
استانبول ١٢١٩ (١٨٠٤) .

٥ — أمين باشا سامى : تقويم النيل - جزآن - القاهرة ١٣٣٤ هـ - ١٩١٦ م

٦ — بولس قرالى (الخورى) : السورىون فى مصر ، جزآن ، طبع القاهرة

- ٧ — توفيق الطويل (دكتور) : التبصوف في مصر إبّان العصر العثماني
القاهرة ١٩٣٦ .
- ٨ — الجبرتي (الشيخ عبد الرحمن) : عجائب الآثار في التراجم والأخبار
أربعة أجزاء ، بولاق ١٣٠١ هـ .
- ٩ — حيدر الشهباني (الأمير) : تاريخ الأمير حيدر . ٣ أجزاء ، القاهرة ١٩٠٠ .
- ١٠ — سعيد محمد فرانضي زاده : كلشن معارف ، جزآن تركي ، استانبول ١٢٥٢ هـ .
- ١١ — شفيق غربال بك : مصر عند مفرق الطرق - المقالة الأولى ، مجلة
كلية الآداب مايو سنة ١٩٣٦ .
- ١٢ — علي باشا مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها
وبلادها القديمة والشهيرة ١٦ جزءاً - بولاق ١٣٠٦ هـ .
- ١٣ — عمر طوسون (الأمير) : كتاب مالية مصر من عهد الفراعنة إلى
الآن ، الاسكندرية ١٣٥٠ هـ - ١٩٣١ م - الجزء الأول .
- ١٤ — كوجك جلبي زاده : تاريخ إسماعيل عاصم أفندي (تركي) .
- ١٥ — محمد كرد علي : كتاب خطط الشام - ٤ أجزاء - دمشق ١٣٤٣ هـ - ١٩٢٥ م .
- ١٦ — المرادي : أخبار الأعصار في أخبار الأمصار أو سلك الدرر في
أعيان القرن الثاني عشر - ٤ أجزاء القاهرة ١٣٠١ هـ .
- ١٧ — المقريزي : البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب (٨٤١ هـ)
القاهرة ١٩١٦ .
- ١٨ — ميخائيل بريك الدمشقي : تاريخ الشام ١٧٢٠ - ١٧٨٢ - حرّصا
لبنان ١٩٣٠ .
- ١٩ — ميخائيل مشاقفة (دكتور) : مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان -
القاهرة ١٩٠٨ .
- ٢٠ — ميخائيل نقولا الصباغ العكاوي : تاريخ الشيخ ظاهر العمر الزيداني
حاكم عكا وبلاد صفد .

٢١ — يوسف الدبس (المطران) : تاريخ سورية - ٤ أجزاء في سبعة مجلدات
(بيروت ١٩٠٣) .

* * *

رابعاً — المطبوعات الإنجليزية والفرنسية (مرتبة ترتيباً أبجدياً بالأسماء المؤلفين)

- 1— **Abdulla Zeki** : Essai sur les causes de la Décadence de L'Empire ottoman. These pour le Doctorat 1929. Paris.
- 2— **D'Arvieux** : Memoires du Chevalier D'Arvieux, VI Tomes. Paris 1735.
- 3— **Baldwin. G.** : Political Recollections Relative to Egypt. London 1801.
- 4— **Browne (W.C.)** : Travels In Africa, Egypt and Syria, from the year 1792 to 1798 London 1799.
- 5— **Bruce (L.)** : Voyage en Nubie et en Abyssinie, entrepris pour decouvrir les sources du Nil, pendant les années 1768. 1770, 1772 & 1773.
Traduit de L'Anglais par M.Castera
3 vols, Paris 1790,
- 6— **De Binos (Abbé)** : Voyage par L'Italie Egypte, Au Mont-Liban et en Palestine ou Terre Sainte, 2 Tomes Paris 1787
- 7— **Cantemir** : The History of The Growth and Decay of The ottoman Empire. Lond 1756.
- 8— **Cattaui (J. E.)** : Histoire des Rapports de L'Egypte avec La Sublime Porte Au XVIII ieme siecle 1841. Paris 1919.
- 9— **Chabrol (M. O.)** : Essai sur les Moeurs des habitans modernes de L'Egypte. (Description de L'Egypte Moderne. Tome seconde). Paris 1809.

- 10— **Charles-Roux (F.)** : Autour D'une Route. L'Angleterre, L'Îsthme de Suez et L'Egypte au XVIII Siecle. Paris 1922.
- 11— **Charles-Roux (F.)** : Les Echelles de Syrie at de Palestine au XVIII. S. Mayenne 1928.
- 12— " " : Les Origines de L'Expedition D'Egypte. Paris 1910.
- 13— " " : Le Projet Français de Commerce avec L'Inde, par Suez sous le Regne de Louis XVI. Paris 1928.
- 14— **Capper. J.** : Observations on the Passage to India, Through Egypt, and Across the Great Desert. London 1784.
- 15— **Carré (Jean Marie)** : Voyageurs et Ecrivains Français en Egypte. 2 Tomes. (T. 1 De début à la fine de la domination Turque 1517-1840) Le Caire 1932.
- 16— **Combe (Etienne)** : L'Egypte Ottomane. Premiere Partie : De Sa Conquete par Sélim 1715. à l'arrivée de Bonaparte 1798. (Precis de l'Histoire d'Egypte. T. 3. Le Caire 1935)
- 17— **Déhérain (H.)** : L'Egypte Turque. (Hanotaux, Histoire de la Nation Egyptienne. Tome 5)
- 18— **Delaporte.** : Abrégé chronologique de l'histoire des Mameluks d'Egypte, depuis leur origine jusqu'à la conquête des Français. (Description De L'Eg. Etat moderne T. 1 Paris 1809.
- 19— **Egmont. (Van)** : Travels of the Archipelago, Syria, Palestine Egypt Mount-Sinai, 2vols, London 1759.
- 20— **Estève** : Memoire sur les Finances de L'Egypte,

Depuis sa conquête par Sultan Selym (923-1517) jusqu'à celle du général en chef Bonaparte (Des. de L'Eg. Et. Mod. T. 1.)

- 21— **Funk et Mazarevski** : Histoire de Romanov 1613—1918. Paris 1930.
- 22— **Girard** : De L'Etat des cultivateurs en Egypte, Quelques Notions sur l'administration des Villages. (Des. de L'Eg. Et. Mod. T. 1. Paris 1809).
- 23— **Guémard** : Aventuriers Mameluks D'Egypte. Alexandrie.
- 24— **Guémard** : Les Romformes en Egypte, D'Ali-Bey El-Kebir à Mehémet Ali 1760—1848. Le Caire 1937.
- 25— **Hammer** : Histoire de L'Empire Ottoman. Tomes 15, 16 Paris 1839.
- 26— **Hasselquist (F.)** : Voyages dans le Levant, dans les Années 1749, 50, 51, & 52 Paris 1769.
- 27— **Irwin** : A Series of Adrentures in the course of a Voyage up The Red Sea, on the coasts of Arabic and Egypt in the year 1777. London 1780.
- 28— **Jauna** : Histoire générale des Roiaumes de Chypre, de Jérusalem, d'Arménie et d'Egypte. 2 Tomes. Leide 1785.
- 29— **Jomard** : Description Abrégée de la ville et de la citadelle du Kaire (Desc. de L'Eg. T. 2. Paris 1809).
- 30— **Lammense** : La Syrie, 2 vols. Beyrouth 1921.
- 31— : La Syrie et son Importance Geographique. Louvain 1904.

- 32— **Lancret (M. A)** : Memoire sur la systeme d'Imposition territoriale et sur l'administration des provinces de L'Egypte, Dans les dernieres années du gouvernement des Mameluks (Desc. De L'Et. Moderne T. 1. Paris 1809)
- 33— **Lockroy** : Ahmed le Boucher. La Syrie et L'Egypte au XVIIIieme Siecle Paris 1888.
- 34— **Lusignan (S. L)** : A History of the Revolt of Ali-Bey, against the Ottoman Porte. London 1783.
- 35— **De Maillet** : Description de L'Egypte. Composée sur les memoires de M. de Maillet. par l'Abbé le Mascrier. Paris 1735.
- 36— **Marcel (J. J.)** : Contes du Cheykh El-Mohdy. Traduit de l'Arabe d'Apres le Manuscrit original. 3 vols Paris 1835.
- 37— **Marcel (J. J)** : "Egypte" depuis la conquête des Arabes jusqu'à la domination Français 3 vols, Paris 1848.
- 38— **Magallon.** : Memoire sur L'Egypte (Révue D'Egypte T. 3. Septembre. 1896).
- 39— **Masson (P.)** : Histoire du Commerce Français dans le Levant au dix-huitieme siecle. Paris 1911.
- 40— **Niebuhr** : Description de L'Arabie-Amsterdam 1774.
- 41— **Norden (F.L.)** : Voyage dans L'Empire Othoman, L'Egypte et la Perse. Fait par ordre du Gouvernement 3 vols. Paris 1801.
- 42— **Oliver (G.A.)** : Voyage dans L'Egypte et de Nubie. 3 Tomes. Paris 1795.
- 43— **De Perceval** : Précis Histoique de Guerre des Turcs contre les Russes. Paris 1822.

- 44— **Le Père** : Memoire sur la communication de la Mer des Indes ala Méditerranée par la Mer Rouge et L'Isthme de Souez. (Desc. de L'Eg. Etat modern T.1. Paris 1809).
- 45— **Perry (ch.)** : A View of the Levant. Particularly of constantinople, Syria, Egypt, and Greece etc. In 4 Parts. London 1743.
- 46— **Platonov** : History of Russia-London 1925.
- 47— **Pococke (Richard)**: A Description of the East. 4 books I vol. London 1743.
- 48— **Poliak** : Les Revoltes populaires en Egypte à l'époque des Mameluks et leurs causes économiques. Paris 1935.
- 49— **Rooke (Henry)** : Travels to the Coast of Arabia Felix and From thence by the Red-Sea and Egypt, to Europe. London 1784.
- 50— **Politis** : L'Hellénisme et L'Egypte moderne. 2 tomes Paris 1929.
- 51— **Saint-Priest** : Mémoires sur l'Ambassade de France dans la Turquie Paris 1817.
- 52— **Savary.** : "Lettres Sur L'Egypte" 3 Tomes. Paris 1786. (T.2. Lettre XVI. Histoire d'Ali bey).
- 53— **Sicard (C.)** : Nouveaux memoires des Missions de la Compagnie de Jesus Dansle Ievant T.1; Paris 1723.
- 54— **Sonnini (C.S.)** : Voyage dans la Haute et Basse Egypte Fait par ordre de L'Ancienne gouvernement. 3 vols. Paris 1799.
- 55— **Corel,** : La Question d'Orient au XVIII ieme Siècle. Paris 1889.

- 56— **Thevenot. (Jean)** : The Travels of Monsieur de Thevenot. Into the Levant. In three Parts. London 1687.
- 57— **Thoumin** : Histoire de la Syrie.
- 58— **De Tott.** : Memoires du Baron De Tott. Sur les Turcs et le Tartares. 2 Ts. 5 parties Maestrich 1795.
- 59— **Toynbee & Kirkwood** : Turkey. London 1926.
- 60— **Toynbee** : The Western Question in Greace & Turkey London 1923.
- 61— **Vansleb.** : Nouvelle Relation en forme de Journal d'un Voyage fait en Egypte. Paris 1672.
- 62— **Volney (C. F.)** : Voyage en Egypte et en Syrie pendant les années 1783, 1784 et 1784 suivi de consideration sur la Guerre des Russes et des Turks. 3 Tomes Paris 1823.
- A. (Tome 1. Chap. 111. Précis de l'Histoire d'Ali-Bey).
- B. (Tome 11. Chap. IV précis de l'Histoire de Daher fils d'Omar).

ملحق

للتعريف ببعض مصادر الكتاب

التعريف ببعض مصادر الكتاب

المصادر التي استخدمناها في الحصول على مادة هذا الكتاب ترجع إلى أصول مختلفة أهمها :

أولا — الوثائق الرسمية وشبه الرسمية والنقوش التاريخية .

ثانياً — المخطوطات : فرنسية وتركية وعربية .

ثالثاً — مؤلفات الرحالة الذين زاروا مصر في خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر .

رابعاً — المؤلفات الشرقية : عربية وتركية .

خامساً — يضاف إلى ما تقدم أهم المؤلفات الأوربية التي تكلمت عن مصر في العصر العثماني .

وقد رأينا من الأهمية بمكان أن نعرف الوثائق والنقوش والمخطوطات ؛ وترجم للرحالة والمؤلفين والمعاصرين ، لأن ذلك العمل يوقف القارئ على قيمة هذه المصادر ، ويلقى الضوء على حياة رجال عاشوا في عصر على بك ، وتكلموا عنه في ناحية من نواحيه .

وسوف نبدأ أولاً بالكلام عن الوثائق والنقوش ، ثم نثني بالمخطوطات وترجمة المعاصرين من رحالة ومؤرخين . كما نختم بالكلام عن المؤلفات التركية لما لها من أهمية خاصة في هذا الموضوع .

أولاً — الوثائق الرسمية وشبه الرسمية والنقوش التاريخية :

(١) وثائق العصر العثماني بدار المحفوظات العمومية بالقاهرة .

(١) تقارير قناصل فرنسا في القاهرة والإسكندرية إلى الغرفة التجارية
بمرسيليا .

(٢) تقارير قناصل فرنسا في القاهرة والإسكندرية إلى وزارة الخارجية
والبحرية بباريس .

(٣) تقارير سفراء فرنسا في الاستانة إلى وزارة الخارجية والبحرية بباريس

(ب) كما نقصد بالوثائق شبه الرسمية الخطابات التي كانت ترسل من الإسكندرية
إلى سفارة النمسا بالاستانة فترفق بتقارير سفراء النمسا إلى وزارة الخارجية النمساوية
بفيينا . وقد أشرنا إليها في سياق الكتاب بخطابات الإسكندرية أو وثائق الإسكندرية
وهي محررة باللغة الإيطالية .

والواقع أن كل الفضل في حصولنا على كثير من الحوادث التي تخللت حياة
على بك ، والوقوف على تفصيلاتها إنما يرجع إلى خطابات الإسكندرية وتقارير
القناصل وعجائب الجبرتي ، والمصادر الثلاثة تتساوى في هذا الفضل ولولاها لفقدنا
كثيراً من الحوادث الهامة وضللنا في كثير من التحقيقات التاريخية التي وردت
في الكتاب .

هذا وينبغي أن نشير إلى أن الحادثة الواحدة كانت ترد متشابهة في المصادر
الثلاثة المذكورة ، ومتفقة في ترتيب وقائعها جملة وتفصيلاً بحيث يخل إلى الإنسان
أن أحدها نقل عن الآخرين مع استبعاد ذلك لاستحالة من عدة وجوه كما سنبين
فيما بعد . كما أن التواريخ التي وردت فيها كلها متفقة باليوم والشهر والسنة لأنها
رواية شهود صادقين لحوادث واحدة .

(ج) ونعني بالنقوش التاريخية ، ما أمر على بك بنقشه على القبة الرئيسية
لمسجد الإمام الشافعي بالقاهرة وما أمر أبو الذهب بنقشه على مقبرة على بك
بالقرافة الصغرى .

وثائق العصر العثماني بدار المحفوظات العمومية بالقلعة

ويحتوى « المخزن التركى » بدار المحفوظات العمومية بالقلعة على وثائق العصر العثماني بمصر ، وهى بلا شك على أعظم جانب من الأهمية لمن يدرس أى موضوع فى تاريخ مصر العثمانية أو نظمها المختلفة .

والباحث فى هذا « المخزن » تعترضه عقبات جمة قد تجعله يصدف عما هو مقبل عليه ، ولكن الصبر به أجل فإنه سيعثر بكل تأكيد على ضالته .

أما أهم تلك العقبات فهى تشتت كثير من وثائق العصر بحيث لا يمكن العثور عليها إلا بعد جهد ووقت . والعقبة الثانية عدم وجود بعض أنواع من « الدفاتر » إلا دفاتر سنة أو سنتين منها ، والتعليل المعقول لذلك أن ديوان الرزنامة فى العصر العثماني كان يتخلص من تلك الدفاتر بعد الاحتفاظ بمثل لها أو مثلين . والعقبة الثالثة فقد أنواع بأكملها من تلك السجلات لسبب من الأسباب .

أما العقبة الرابعة فهى أن معظم تلك الوثائق ، وعلى وجه الخصوص كل ما يتعلق منها بديوان الرزنامة ، محرر « بخط قيرمه » وهى الكتابة المختصرة السرية أو الرمزية التى تعود أفندية الرزنامة أن يحرروا بها حسابات المالية المصرية بخط واضح جميل وبحبر ثابت ، على ورق جيد ضيق فإن تسطيرها بخط قيرمه يجعل من الضروري للباحث المبتدىء الاستعانة فى حل رموزها بمن يلم بها وهم قليلون .

وفى ما يلى أهم وثائق دار المحفوظات التى استعنت بها فى بحثى .

١ — دفاتر التزامات الولايات القبلية والبحرية للسنوات من ١١٧٠ هـ إلى ١١٨٨ هـ (١٧٥٦ — ١٧٧٤ م) وهى تزيد عن مائه وثيقة ، وقد أشرنا فى الكتاب إلى أهم تلك الدفاتر وأرقامها ٦/٢٣ ، ٦/٢٤ ، ٧/٢١ ، ٧/٤٤ ، ٧/٥٥ ، ٧/٦١ ، ٧/٦٦ ، ٨/١٣ مخزن تركى .

وعلى ضوء البيانات التى وردت فى تلك الدفاتر درسنا شيئاً ذا غناء عن نظام

الالتزام في العصر السابق لعلي بك ، وفي أثناء عصره ، وفي الفترة اللاحقة به . وخاصة فيما يتعلق بتقسيم القطر إلى ولايات (مقاطعات مالية كبرى) . ونظام منح الالتزام والفئات التي كان يحق لها الالتزام ، كما درسنا ناحية من نواحي سياسة علي بك المالية وحققنا آراء المؤرخين فيما فرضه من ضرائب وأموال .

٢ — مجموعات من فرمانات والتقاسيط الديوانية وتذاكر المرتبات .

(١) مجموعات فرمانات الموجودة « بالخزن التركي » تتضمنها ثلاثة دفاتر فقط بعنوان « دفاتر قيد فرمانات الصادرة من الباب العالي لمصر المحروسة » بأرقام ١ و ٢ و ٣ . وقد حررها أفندية الروزنامة ، وبعضها بالخط الديواني وبعضها بخط قيرمة ، نقلا عن نصوص فرمانات الأصلية . وهي متعلقة بالأموال المالية فقط أي الخاصة بأعمالهم . أما فرمانات الخاصة بالادارة والسياسة أو غير ذلك من أمور الدولة فلم نعثر على السجلات الخاصة بها .

هذا ومن فرمانات الموجودة فرمانات صادرة من الباشا في عهد شيخاخة علي بك ، وفرمانات صادرة من علي بك بصفته قائمقام ، وهي على قلتها ضرورية لدراسة ما تتضمنه من نظام . وتبلغ في عددها نحواً من خمسين فرمان .

(ب) التقاسيط الديوانية :

ونعني بها تقاسيط الالتزام . والموجود منها بالدار مرتب في « محافظ ، موزعة حسب السنوات في « ملفات » بكل منها عدد من « الوثائق » المشار إليها يتراوح بين القلة والكثرة وتزيد عن المائة في مجموعها .

والجزء الذي بحثناه منها في محفظة رقم (١) ملفات أرقامها من ١٩ لسنة ١١٧٥ هـ حتى ٢٨ لسنة ١١٨٥ هـ . وقد أوردنا في متن الكتاب أمثلة لنصوصها وأشرنا إلى أرقامها . ووجه الأهمية في تلك الوثائق أنها تساعدنا بصفة جديدة على دراسة نظام الالتزام الأراضي في العهد العثماني عامة وفي عهد علي بك بصفة خاصة . هذا وجميع التقاسيط الممنوحة للملتزمين في عهد علي بك ابتداء من سنة ١٨٨٢ هـ (١٧٦٨) أصدرها بصفته قائمقام وهي مهيورة بخاتمه في الطرف العلوي منها .

(ج) تذاكر المرتبات :

وقد عثرنا بين صفحات دفاتر المرتبات على عدد كبير جداً من الإخطارات المالية التي كان يرسلها كبير أفندية أوجاق متفرقة إلى أفندية المصرف ، أى الأفندية الذين يتولون صرف الرواتب في القلاع المصرية المختلفة . وقد استخدمنا البيانات الواردة بها في تصحيح آراء المؤرخين فيما يتعلق بسياسة علي بك في صرف رواتب رجال الأوجاقات العثمانية ، وغير ذلك من الشئون المالية لتلك الفرق .

٣ — دفاتر مرتبات مردان القلاع التابعة لمحرسة مصر :

للسنوات من ١١٨١ هـ حتى ١١٨٥ هـ أرقامها من ٥٥/١١٦ إلى ٥٥/١٣٢ مخزن تركي . وتشمل هذه الدفاتر على بيانات تفصيلية دقيقة عن كل ما يتعلق بالقلاع المصرية وخاصة في عهد علي بك . فتذكر اسم القلعة ، ومكانها ، وعدد رجال حاميتها ، والفئات التي تتكون منها ، ومجموعهم السكلي ، وراتبهم اليومي ، وأشارة إلى تاريخ تسلم أقساط تلك الرواتب ، والشخص الذي قام بتسليمها .

وقد تضمنت كثيراً من الرموز والاصطلاحات فمثلاً (رى يعنى ربيع ثانى) (ومصر يعنى محرم وصفر وربيع أول) ، (رشن يعنى رجب وشعبان ورمضان) وقسط يعنى رواتب ثلاثة أشهر عربية متتالية . . الخ .

٤ — دفاتر جراية وعليق :

للسنوات من ١١٧٤ هـ حتى ١١٨٦ هـ أرقامها من ٥٥/٦٢ إلى ٥٥/١٣٤ مخزن تركي . وهذه الدفاتر خاصة بالجراية والعليق الذي يحصل عليه بعض فئات من « خدمة الديوان » ، « أسبان جماعة كشيدة ديوان » ، « جماعت متقاعدین » . وفى السنوات الأولى للعصر كانت كلها طوائف عسكرية ثم انضمت إليها فئات مدنية مختلفة بطرق شتى حتى أصبح معظم من يتقاضى الجراية من غير العسكريين فمنهم قضاة بماليك ونساء وأمرأه جراكسة . . الخ .

٥ — دفاتر مسموح ومرتببات بدل مسموح عن محلول مقاطعة دباغ خانة :

أرقامها متداخلة في أرقام النوع السالف — ووجه الأهمية في الأنواع الثلاثة السابقة المقارنة بين العناصر المكونة لها في العصر السابق لعلي بك ، وفي أثناء عصره لتعرف مدى أضعافه لأوجاقات الحماية العثمانية وسياسته نحوها .

فدفاتر مرتببات عساكر القلاع أثبتت لنا وجود أوجاق متفرقة . ودفاتر الجراية والعليق أثبتت لنا وجود أوجاق عزبان « متقاعدین » ودفاتر مقاطعة دباغ خانة أثبتت لنا وجود أوجاق جاوشان . ولكنها في الوقت نفسه ونحت بصورة قاطعة نقص عدد رجال الفرق تدريجاً لأننا وجدنا كثيراً من الهيئات غير العسكرية تشارك رجال العسكرية في رواتبها .

٦ — دفاتر ساليانات أمراء محافظين ولايت محروسة مصر .

تشمل هذه الدفاتر على رواتب بكوات الممالك السنوية (ساليانات) وهي التي كانوا يتقاضونها نقداً بخلاف (الجراية والعليق) التي كانوا يأخذونها عيناً (قبحاً وشعيراً) كل شهرين ، وقد سهلت لنا هذه الدفاتر الأخيرة (من سنة ١١٦٤ — ١١٨٦ عين ٥٥ مخزن تركي) تتبع بعض المناصب التي شغلها علي بك ، والرواتب التي تقاضاها ، والمرات التي عزل فيها عن تلك المناصب . كما أنها ذكرت لنا البكوات الموجودين في تلك السنوات المذكورة :

٧ — دفاتر التزامات الجمارك :

للسنوات من ١١٧٥ هـ إلى ١١٨٧ هـ أرقامها من ٣٠/٢٥ إلى ٣٠/٤٩ مخزن تركي ، ووجه الأهمية في هذه الدفاتر أنها ذكرت لنا بالتفصيل والدقة عدد الجمارك المصرية والالتزامات المتعلقة بها وإيرادات كل جمرک سنوياً والشخص أو الهيئة التي تتولى إلتزامها . وكانت بياناتها ذات فائدة عظيمة لنا فيما يختص بسياسة علي بك الجمركية ، وعلاقته بالأوجاقات العثمانية التي كان ييدها إلتزام بعض الجمارك ، وتحقيق سياسته مع اليهود من مديري الجمارك ، وأخيراً مسألة منعه

الباشوات العثمانيين من دخول مصر إلى غير ذلك من التحقيقات الهامة التي أشرنا إليها في صلب الكتاب .

* * *

تقارير القناصل والسفراء

منذ ١٦٩١ فرضت قيود على نظام التمثيل التجارى الفرنسى ، فقد نجح الوزير الفرنسى بونشتران Ponchartrain فى إصدار مرسوم ملكى يجعل القناصل موظفين حكوميين يعين الواحد منهم بإسم (قنصل عام Consul Général) ثم حرمت عليهم المتاجرة لحسابهم ، ولم تعد مناصبهم وراثية ، وأصبحوا لا يعينون إلا بعد أخذ رأى الغرفة التجارية فى مرسيليا . وكان مقر القنصلية بالإسكندرية حتى نقلت إلى القاهرة ١٦١١ وعين نائب للقنصل بالإسكندرية ورشيد ، ومنذ سنة ١٧٧٧ عاد قنصل فرنسا لىسكنى الإسكندرية بناء على مشورة البارون دى توت أما القناصل الفرنسيون الذين عينوا بالقاهرة فى عهد على بك فبهم :

1 — Antoine Jockes de lironcourt 1746 — 1751.

2 — De Jonville 1751 — 1758.

3 — D'Amirat 1758 — 1774.

وكان الوساطة بين القناصل وبين الباشا أو البكوات مترجم القنصلية الأول . ولخطورة هذا المنصب وأهميته كانت حكومة فرنسا تختار فريقا من أذكى الفرنسيين وأنشطهم فيعلمونهم اللغات الشرقية فى باريس ثم يرسلونهم بعدها إلى الاستانة للتمرن العمل على النطق الصحيح ، وممارسة الذوق والتقاليد الشرقية وبعدها يعينون فى قنصليات القاهرة والإسكندرية ورشيد وغيرها من المدن الهامة .

ولسكن ينبغى أن نشير إلى أن الفرص التي كانت تسمح للباشا بمباحثته فى مسائل تجارية وسياسية ، أو للمترجم الأول بمقابلة كحياوات الأوجاقات أو البكوات ومباحثتهم كانت قليلة . ولم يكن فى امكان هؤلاء إهداء رأيهم بصراحة

أو الاستفهام الحر لأن البكوات كانوا يعاملون المترجمين بمنتهى الشدة والأزدراء وكذلك كان يفعل على بك في أوائل عهده حتى أصبحت قنصلية القاهرة من المراكز غير المحبوبة لا يرسل إليها إلا (سوء الحظ الذي فقد ظهره ومعينه) . ومن أهم المترجمين الأول في عهد على بك المسيو جيلي وديجون M. Gilly & Digeon . والواقع أن تقارير هؤلاء القناصل المحفوظة في سجلات الغرفة التجارية بمرسيليا ، وسجلات وزارتي البحرية والخارجية الفرنسية إنما تستمد قيمتها التاريخية من أنها أقاصيص وآراء شهود عيان مثقفين عززت آرائهم روايات شهود آخرين . وقد أشرنا في السكتاب إلى أهم هذه التقارير وتواريخها نقلا عن مؤلفات دهران Déhérain وشارل رو Charles-Roux وبول ماسون Paul Masson .

(ب) الوثائق شبه الرسمية : وثائق الإسكندرية :

يغلب على الظن أن قنصل النمسا في الإسكندرية كان يرسل هذه الخطابات إلى السفير النمساوي بالأستانة فيرفقها هذا بتقاريره إلى وزارة الخارجية النمساوية بفينا . وقد نشر المؤرخ همر J. De Hammer النصوص الإيطالية الأصلية لهذه الخطابات لأول مرة . والواقع أنها غدقة الأخبار ، مستفيضة الحوادث في وضوح وجلاء ولا يعد لها في هذه الناحية سوى الجبرتي .

وأهم هذه الوثائق بتاريخ :

١ — ٢ ديسمبر ١٧٥٤ خطاب ملحق بتقرير السفير بنكلر Penkler .

Letter a di Alessandria. 2 dec., 1754.

٢ — ٤ مارس ١٧٦٦ ملحق بتقرير بنكلر بتاريخ ٢ يونيو ١٧٦٦ .

٣ — ١٧ مارس سنة ١٧٦٦ .

Estratta d'una Lettera indata Alessandria d'Egitto 17 Morzo 1766.

٤ — ١٩ أبريل ١٧٦٦ .

٥ — ٢٧ أكتوبر ١٧٦٧ ملحق بتقرير السفير بروينار Brognard بتاريخ

٢٩ ديسمبر ١٧٦٧ .

٦ — ١٥ يونية ١٧٦٨ .

وجميع هذه الخطابات تشرح تفاصيل الكفاح الذى تجشمه على بك فى الوصول إلى شياخة البلد . وهى متفقة تمام الاتفاق مع ماورد فى الجبرقى بخصوص حوادث هذا الكفاح جميلا وتفصيلا . ولا يعقل أن الجبرقى أطلع على هذه التقارير ، لأنه لم يكن يعرف الإيطالية وهى اللغة التى حررت بها تلك الخطابات كما أنها أرسلت إلى الآستانة وكان لا يزال صديا . بل أن بعضها أرسل قبل أن يولد ، كما لا يعقل أيضا أن قناصل النمسا فى الاسكندرية استفادوا من عجائب الجبرقى فى تحرير خطاباتهم لأنهم كتبوها قبل أن يسطر الجبرقى تاريخه .

(ج) النقوش التاريخية :

ونعنى بها النقوش التى أمر بها على بك فى داخل القبة الرئيسية بمسجد الامام الشافعى ، وما انتقش على مقبرته . وكل هذه النقوش أفادتنا من نواحى كثيرة أخصها اللقب الذى كان يتلقب به وتحديد تاريخ وفاته ، هذا عدا أهميتهما من الناحية الأثرية بنوع خاص .

ثانياً — المخطوطات

نظراً لقرب العصر الذى نبهته فإن مخطوطاته أقل كثيراً من مطبوعاته . وهذا ما وقفنا إلى الاطلاع عليه من تلك المخطوطات .

١ — المخطوطات الفرنسية :

(١) بيان المغارم التى دفعها الجالية الفرنسية بالقاهرة سنة ١٦٥٦ حتى الوقت

الحاضر (١٧٥٩) بما فيها الهدايا المعتادة — نقلا عن سجلات قنصلية القاهرة .

Compte des sommes payées pour avances faites à la Nation française depuis 1656 jusqu'à présent (1759) en ce nom compris les présens d'usage, tirées des registres de la Chancellerie du Caire.

وهذا المخطوط محرر بالفرنسية وهو من آثار سياسة الممالك التي اتبعوها نحو الأجانب حتى اضطروهم إلى دفع مبالغ طائلة كمغرامات في حالة غضبهم عليهم ، وأغروهم بتقديم هدايا في حالة رضاهم استبقاء لهذا الرضاء ودفعاً لنفقتهم . وعدد صفحات المخطوط ثلاثة وعشرون من القطع الكبير تحت رقم (his 2509) من فهرس التاريخ بدار الكتب المصرية ، وكانت المعلومات الواردة بها من أهم البراهين القاطعة التي استخدمناها في تحقيق وفاة إبراهيم كخيا أستاذ على بك .

(ب) مذكرة تجار مرسيليا الذين يزاولون التجارة في مصر (١٨٨٦) :

Mémoires [des negociants de Marseille faisant commerce d'Egypte datée le 9 decembre 1776 de faire payer soit par imposition, soit par la caisse de la chambre, les avances, les emprunts demandés à la nation dans les Échelles du Levant et d'emprunter en cors de nation. Pièce manuscrite datée de Marseille, le 2 Avril, 1777 et signé par. Napplon, Rolland l'ainé, B. Thulis, Beaussier et Ventre, Martin fils de Gezar. Ollive et Mazoillier B. Boyer et Gennier, Apitalierets. In fol. llpp.

Curieux Document.

تحت رقم (his 3692) من فهرس التاريخ بدار الكتب المصرية .

والمخطوط زيادة على كلامه عن حالة التجارة الفرنسية علق على الحالة السياسية الموجودة في مصر وأشار في وضوح إلى اختلاف نظم الحكم في مصر عن غيرها من بلاد الفتنة ، كما أكد استقلال مصر الفعلي عن الباب العالي .

* * *

٢ — المخطوطات التركية :

والكتاب الترك في ذلك العصر مشهورون بالتمصّب لدولتهم ، وكل حركة

ثورية كانوا يعتبرونها مروفا عن الدين وكفراً بنعمة السلطان ، كما تعودوا استعمال الكسنيات والاستعارات . فلا تكاد تخلو صفحة من تعابير مجازية . ولعل من أكبر عيوب تلك المؤلفات عادة الاستطراد في الكلام عن نقطة معترضة بحيث ينقطع سياق الموضوع الرئيسى ويبدو مبعثراً في مواضع مختلفة من الكتاب . ولكن تجمل بنا الإشارة إلى جمال الخط المسطرة به تلك المخطوطات مع حسن تنميتها ، بحيث يمكن اعتبار معظمها نماذج لجمال الخط وحسن التجميل .

(١) تاريخ شمعدان زاده المشهور برسى التواريخ :

وهى نسخة مخطوطة بقلم معتمد بخط عبد الصمد عصمت أفندى فرغ منها فى يوم الاثنين ١١ المحرم ١٢٧٨ هـ — تحت رقم (٧٥٧١ تركى) بمكتبة جامعة فؤاد الاول بالجيزة .

والمخطوط ببحث « وقائع الدولة العلية من سنة ١١٦٧ هـ إلى ١١٩١ هـ » وعلى ذلك فهو يتناول حوادث الفترة التى ظهر فيها على بك وقام فيها بحركته . وصفحات المخطوط غير مرقومة ، والطريقة التى سار عليها شمعدانى زاده المؤرخ العثمان طريقة التاريخ السنوى . فيبدأ بذكر السنة ثم يذكر الحوادث التى وقعت فيها حتى إذا ما انتهى العام بدأ بسنة جديدة وموضوعات جديدة ثم أكمل حواشى العام السابق وهكذا .

وقد كتب المؤرخ فصلين هامين عن على بك أولهما فى حوادث سنة ١١٨٠ هـ بعنوان « تفصيل أحوال مصر وظهور على بك ووالى راقم باشا » وثانيهما ١١٨٧ هـ بعنوان « مصر دن على بك خروجى وطغيان ، أى « طغيان على بك وخروجه من مصر » .

والحوادث التى ذكرها المخطوط توافق ما جاء فى المصادر الأخرى . ولكن يمكن أن يستشف من عبارات المؤلف مقدار حقه على على بك وحليفه ظاهر حتى لقد أشار إليهما بلفظ « خنزيرين » وبدا كأن كابوساً قد أزعج من فوق

صدره عند ما أشار إلى وفاة علي بك وكيف أنه « ثمل بكأس يأس الخمسة وسار في قافلة اقليم العدم متأثراً بجراحه » .

(ب) خلاصة الاعتبار : لأحمد بن إبراهيم المشهور برسمي كريدی المتوفى سنة ١١٩٧ هـ مخطوط بقلم الرقعة مسطرة ١٧ ، تحت رقم (٧٨٣٨ تركي) مكتبة جامعة فؤاد الأول

وصفحات هذا المخطوط كسابقه غير مرقومة . وطريقة المؤلف هي التأريخ حسب السنين . أما الجزء الخاص عن علي بك فقد ورد في الفصل السادس بعنوان « فصل ساد سينه محسن زاده صدا رتندن أولان يوز سكسان سكر سمنة سي حوادثي بيانده در ، أي « الفصل السادس في بيان حوادث سنة ١١٨٨ هـ الواقعة في أثناء صدارة محسن زاده » وهي مكتوبة بروح موالية للعثمانيين معادية لبكوات الماليك عموما ولعلي بك على الوجه الخصوص ، فقد اعتبره « مفسدا » واعتبر حركته « من المصائب التي لا تخطر بالبال » . وقد تكلم عن علاقته بروسيا وأثر حركته في الحرب القائمة بين الدولتين في ذلك الحين . ورغم ذلك فحوادث المخطوط صحيحة في جملتها . وأهمية المخطوطين السابقين هو دراسة وجهة النظر العثمانية في حركة علي بك .

٣ — المخطوطات العربية :

(١) وثائق تاريخية للكرسي الملكي الانطاكي :

أو تاريخ الشام من سنة ١٧٢٠ م إلى ١٧٨٢ م للخوري ميخائيل بريك الدمشقي وصورة المخطوط بمكتبة بلدية الاسكندرية تحت رقم (٢٩٨٩) من فهرس التاريخ .

والمخطوط يتضمن تاريخ الشام بين عامي ١٧٢٠ و ١٢٨٢ وبذلك أورد الحوادث التي كانت سورية وفلسطين مسرحا لها في عهد علي بك . وهو مقسم

حسب السنين ، ويتضمن « تاريخ الشام وفلسطين ولبنان — سياسيا للوزراء والحكام من بيت العظم ومعاصريهم ، مزاحمهم ومواليهم ، وما كان من حروب وأحكام ومظالم وحوادث مهمة دينيا للإسلام والنصرانية . . . » أما مؤلفه الخورى ميخائيل بريك الدمشقي فكان رئيسا لدير السيدة المشهور بصيدا ، رغم كونه راهباً متزوجاً ثم فوضت إليه أمور البطركية في دمشق . ولهذا تحسب شهادته ذات قيمة في تاريخ دمشق

وقد أشار المؤرخ إلى أنه كان شاهد عيان لتلك الحوادث بقوله « اعلم بأني عزمت أن أورد من سنة ١٧٢٠ مسيحية الموافقة لسنة ١١٢٢ لثلاث أسباب : الأول لأن هذا ما شاهدته بنفسى ، وهو أول وعي على الدنيا وثابت عندى من الذين هم أكبرهم سناً منى . . الخ »

والحوادث التي تدخل ضمن تاريخ على يك تسكلم عنها في سنوات ١٧٦٩ ، ١٧٧١ ، ١٧٧٢ ، ١٧٧٣ ، وهى عادية وليكن يكسبها قيمة تاريخية أنها رواية شاهد عيان موثوق بصحة أقواله . ويلاحظ أن عبارة المؤلف عربية ركيكة فى بعض الأحيان ، وتتضمن بعض اصطلاحات ذلك العصر وأسلوبه سلس وصرى والنسخة المصورة أخذها الخورى قسطنطين الباشا التلصى بالتصوير الشمسى عن النسخة الوحيدة الموجودة فى مكتبة مدينة برلين تحت رقم (٩٧٨٦ مخطوطات عربية) وقد قام أيضا بنشر المخطوط دون زيادة أو نقص حرصا على قيمته التاريخية بمكتبة القديس بولس بمدينة حريصا بلبنان سنة ١٩٣٠ .

(ب) أجوبة حسين افندى عن ترتيب الديار المصرية فى عهد الدولة العثمانية :

مخطوط بقلم معتاد فى ٧٥ صحيفة بدار السكتب المصرية تحت رقم (١١٥٢ تاريخ) .

وحسين أفندى من أفندية الروزنامة (الإدارة المالية) فى العصر السابق للحملة الفرنسية فلما جاء نابليون عهد بتنظيم الإدارة المالية إلى الميسيو بوسيلج M. Poussielgue ومساعدة استيف Estève (الذى ترأسه فيما بعد) وقد اجتهد

هذان في الوقوف على موارد البلد المالية ونظمها عن طريق المباشرين الأقباط،
ولكن هؤلاء كانوا أحرص من أن يفضوا بأسرار مهنتهم للفرنسيين وأخيراً
تمكن استيف من غرضه بمعونة حسين أفندي فأجاب عن الأسئلة التي وجهها إليه
المسيو استيف ، ونظم إجابته في ستة عشر باباً . وكان هذا في ١٣ محرم ١٢١٦
(أواخر مايو ١٨٠١) أي قرب انتهاء العهد الفرنسي .

وقد جاءت إجاباته وافية إلى حد كبير ، فهد بشرح نظم الحكم والقائمين
بأموره ، وتقسيم البلاد المصرية ، ثم الأفندية واختصاصاتهم ، والملمزمين
وحقوقهم ، والأطيان وضبطها منذ دخول السلطان سليم ثم الميرى ومقداره
ومصارفه .. وبالاختصار كل ما يخص المالية المصرية . ولكن يلاحظ أن حسين
أفندي هذا قد تجنب تفصيل الأنظمة السائدة حينئذ تجنباً يكاد يكون تاماً ، إلا
في موضع أو موضعين فذكر الأمور على ما كان يجب أن تكون عليه . وقد قام
الاستاذ محمد شفيق غربال بك بنشر هذا المخطوط في مجلة كلية الآداب المجلد الرابع
الجزء الأول مايو ١٩٣٦ بعد أن مهد له بتعريف حسين أفندي ، وناقش مدى
قيمة أجوبته من الناحية التاريخية ، ثم علق على تلك الأجوبة بما أكمل النقص
الذي كان يعتورها ، ووضح الغموض الذي كان يحيط ببعض نقاطها ، واستعان
في ذلك ببعض المراجع الهامة كان من أخصها بعض مباحث علماء الحملة الفرنسية
والمخطوط أساس في دراسة النظم التي كانت سائدة من الوجهة الشرعية .



ثالثاً — مؤلفات الرحالة

زار مصر العثمانية عشرات السائحين من مختلف الأجناس ، ولمؤلفاتهم عن
مصر قيمتها من حيث أنها دراسة لتاريخها من الناحية السياسية أو الاجتماعية أو
الاقتصادية — ولا شك في أن دراسة حكاية تلك الرحلات ، وتراجم أولئك
الرحالة بمستوعب رسائل بأكملها ، ولذلك سنقتصر هنا على إبراز أهم العوامل

التي جعلت مصر ميدانا لسياحات عدة في ذلك الحين ثم نأتى بتعريف لاشهر أولئك الرحالة مع نقد مؤلفاتهم من الناحية التاريخية .

فمنذ فشل الغرب المسيحي في الاستحواذ على الأرض المقدسة بفلسطين ، بقيت الروح الصليبية ناثرة في صدره ؛ نفس عنها بالحج وإيفاد الإرساليات التبشيرية الكاثوليكية على وجه الخصوص . وأعقب ذلك اهتمام الغرب بفنون الشرق وآدابه ، فأقبل الأوروبيون على مطالعة مؤلفات الرحالة ، عن الشرق عامة ومصر خاصة ، حتى طبعت تلك المؤلفات أكثر من مرة ، وترجمت إلى أكثر من لغة ، وكان النجاح الذى صادف الرحالة الأوائل خير مشجع لعشرات آخرين معظمهم من الفرنسيين فالإنجليز فالهولنديين والدانمركيين وغيرهم .

وفي أثناء القرن السابع عشر ، وعلى وجه الخصوص في عهد الملك لويس الرابع عشر ، اتجهت أنظار فرنسا إلى الشرق حيث قامت بمجهودات تجارية ومحاولات دبلوماسية في تركيا وسورية وفلسطين وفارس ومصر والحبشة والهند والصين وسيام ، وتلا نشاط العلاقات التجارية والسياسية نشاط الإرساليات الدينية ووضع ذلك كله أساسا صالحا لنشاط على أساسه الدراسات التاريخية والجغرافية واللغوية ، تطور بعد ذلك إلى ما صار يعرف بالاستشراق L'orientalisme وظهر بين الرحالة بعض المستشرقين الأوائل . ولما كانت هذه الرحلات وما قام به الرحالة من دراسات أفادت العلم واسترشدت بها الحكومات نال الرحالة عطف حكوماتهم وتشجيع الهيئات العلمية وتعضيدها ، بل أن كثيراً من الرحالة قام بسفراته بأمر من حكومته على نحو ما نسيبه فيما بعد .

ومنذ أواسط القرن السابع عشر . وعلى وجه التحديد منذ رحلة جان دى تيفينو Jean De Thévenot (١٦٣٣ — ١٦٦٧) بدأ عصر الرحلات الأعظم بظهور كثير من « الرحالة المحترفين » ، أو ما نسميهم الآن « المستكشفين » ونال مصر من تلك الحركة النصيب الأوفر ، تم بفضلها تعرف الأوروبيين للوجه البحرى

ومصر الوسطى كما بدأ كشف مصر العليا عليا وبعض أعلى النيل جغرافيا في أثناء القرن الثامن عشر .

وبعد أن انتهت مرحلة الكشف هذه بدأت مرحلة جديدة هي بحث مصر بحثا علميا ودراستها دراسة منظمة . وقد قام باحياء هذا الدور علماء الحملة الفرنسية . ولسهولة دراسة هؤلاء الرحالة قسمناهم إلى ثلاث فئات .

١ — من زاروا مصر في أثناء القرن السابع عشر ، والثامن عشر قبيل عصر حكم بك .

٢ — من زارها في عصره .

٣ — الرحالة المتأخرون .

١ — الرحالة السابقون :

ووجه الاستفادة من كتابات الرحالة السابقين لعصر على بك هو دراسة حوادث مصر العثمانية وتطور نظمها المختلفة ، ولذا سنسكتفي هنا بذكر أسمائهم وناريخ زياراتهم لمصر . وقد ذكرنا عناوين مؤلفاتهم بثبت المراجع .

١ — فرمانيل الفرنسي زار مصر سنة ١٦٣١ م .

٢ — جان دى تيفينو الفرنسي (١٦٥٧ — ١٦٥٩) ، (١٦٦٣) .

٣ — دارفييه الفرنسي (١٦٥٨) .

٤ — كويان الفرنسي (١٦٣٨ — ١٦٤٠ ، ١٦٤٤ — ١٦٤٦) .

٥ — فانسليب الألماني الأصل وفرنسي الجنسية (١٦٦٣ ، ١٦٧٢ — ١٦٧٣) .

٦ — پول لوكاس الفرنسي (١٧٠٤ — ١٧١٧) .

٧ — القنصل الفرنسي دى ماييه (١٦٩٢ — ١٧٠٨ ، ١٧١٥) .

٨ — كلايتون الإنجليزي (١٧٢٢) .

٩ — سيكار الفرنسي (١٧١٢ — ١٧٢٦) .

١٠ — جرانجييه الفرنسي (١٧٣٠ — ١٧٣٢) .

- ١١ — فان اجمونت الهولندى (١٧٢٠) .
- ١٢ — نوردن الدانمركى (١٨٧٨) .
- ١٣ — طومسون الانجليزى (١٧٣٤ — ١٧٣٥) .
- ١٤ — بوكوك الانجليزى (١٧٣٧ — ١٧٤١) .
- ١٥ — هازلسكيست السويدى (١٧٥٠ — ١٧٥١) .

* * *

(ب) كتابات المعاصرين الأوربيين :

وجل مؤلفاتهم لا تتناول على بك وأعماله إلا بالإشارة فقط . والواحد منها بمفرده لا يكاد يكفى لتكوين فكرة واضحة عن الموضوع . وأهمها ما يلى :

١ — رحلة جيمس بروس :

ولد جيمس ١٧٣٠ من أسرة عريقة باسكتلندة ، ونشأ قوى البدن ، طويل القامة ، أشرب بالشجاعة والاقدام وحب الأسفار . وقد طاف بكثير من بلدان أوربا وخصوصا أسبانيا والبرتغال وأنعم عليه ملك إنجلترا لذلك بلقب بارون من رتبة فارس ، ثم عينه قنصلا لإنجلترا فى شمال أفريقيا ١٧٦٢ وهناك فى مدينة الجزائر استغل مهارته الفنية فى رسم الأطلال الرومانية والنقوش التاريخية من الآثار .

ولما عاد إلى إنجلترا ١٧٦٧ تشوقت نفسه إلى كشف منابع النيل . ولما كان الشائع فى ذلك الوقت أنه ينبع من الحبشة فقد عول على الرحلة إلى تلك البلاد ، وكلفه اللورد هاليفاكس Halifax وزير خارجية إنجلترا أن يعرج فى طريقه على مصر . فغادر لندن إلى فرنسا فإيطاليا فسورية برآ ، وفى ١٥ يونيه ١٧٦٨ أبحر من صيدا إلى مصر فوصل إلى الاسكندرية فى فجر يوم ٢٠ يونيه ١٨٦٨ . ووصل إلى القاهرة فى أوائل يولييه حيث قابل على بك عدة مرات . ثم ركب النيل حتى قنا ومنها اتجه إلى القصير ، حيث أبحر إلى ينبع ثم جدة فوصلها فى أوائل

سنة ١٧٦٩ . وهناك قابل قباطنة مراكب تجارية انجليزية حدثوه في المتوسط لدى على بك في شأن عقد معاهدات تجارية بين مصر وشركة الهند الشرقية الانجليزية فوعدهم بتحقيق ذلك بعد عودته من الحبشة . ثم غادر جدة في ٨ يولية سنة ١٧٦٩ إلى الحبشة لكشف منابع النيل ، فنزل مصوع وسار إلى عدوة ثم العاصمة غندار قرب تسانا فوصلها في يناير سنة ١٧٧٠ حيث أدى خدمات طبية للرأس ميخائيل والملكة استر وسمحا له بعد ذلك بمشاهدة منبع النيل فوصل إلى نهر آباى وبحيرة تانا فظن أنهما مبدأ النيل . ثم غادر العاصمة في يناير سنة ١٧٧١ وسار شمالا بغرب مارا بسنار . ولما وصل إلى ملتقى النيل الأزرق — الذى استكشف — بالنيل الأبيض ظن هذا الأخير رافدا للنيل مع أن الصحيح عكس ذلك . ثم سار شمالا إلى شندى ، فبربر ، فأسوان . وانهكت قواه رياح السموم الحارة المحملة بالرمال ونفذ منه الزاد والمال فبقى عدة أيام على الطوى . وكاد يفقد متاعه ومذكراته ورجاله وحياته بين كشيان الرمال لولا معونة أغا أسوان الذى انقذه وأكرمه . ثم انحدر مع النيل إلى القاهرة فوصلها في ١٠ يناير ١٧٧٣ وغادرها في مارس إلى اسكتلندا ، حيث دون مذكراته بعد أن أتم « أخطر مغامرات عصره » على حد وصف فولنى . فانه عند ما وصل إلى دير القديس جورج عند مدخل القاهرة في ١٠ يناير ١٧٧٣ كان كسافا أكثر منه رحالة . وكتب يصف نفسه في آخر الجزء الثالث بقوله « لم يكن يغطى جسمى قميص ما ، وكان قد مضى على أربعة عشر شهراً دون أن أملك واحداً منها . وكل ما كان عندى صديرية ومزى طويل من النيل الاسمر الحشن ، وإن كنت لا أزال أحمل شاربا طويلا . وكنت أضجع على رأسى ليلا ونهاراً غطاء من الموصلى الأبيض يلتف حول طربوش أحمر على الطريقة التركية ، وأحمل حول وسطى منطقة فى ثمان لفات أو عشرة تصل حتى معدتى . أما أقداى فكانت حافية ولسكنى كنت مسلحا بغدارتين انجليزيتين مكفتتين بالفضة أحملهما فى جانبي الايسر ، خنجر حبشى مقوس صنعت قبضته من قرن الخرتيت » .

هذا وقد نشرت رحلته بالانجليزية ثم ترجمها مسيو كاستيرا إلى الفرنسية ونشرها في حياة مؤلفها بعنوان :

Voyage en Nubie et en Abassinie, entrepris pour decouvrir les sources du Nil, pendant les années 1768, 1769 1770, 1771, 1772, 1773. Par M. James Bruce. 3 vols. Paris 1790.

ولنا عدة ملاحظات عن تلك الرحلة :

أولاً : يتضح من كتابة بروس أنه كان مثقفا ثقافة عالية ، واسع المعلومات وعلى درجة كبيرة من الذكاء واللباقة والفضائل النفسية . وقصة رحلته ممتعة للغاية وأسلوبه سلس وحوادثه شيقة .

ثانياً : يشمل الجزء الأول من الترجمة الفرنسية الكلام عن مقدمات رحلته والاستعدادات التي اتخذها لذلك ثم أخبار مقابلاته مع علي بك وتاريخ العلاقات التجارية بين الهند وأفريقية الشرقية والحبشة منذ عصر البطالسة والرومان . الخ ويشمل المجلد الثاني تاريخ بلاد الحبشة من ١٧٦٨ — ١٧٦٩ . أما المجلد الثالث فقد أورد فيه قصة رحلته واستكشافاته مع أعماله في الحبشة . . . الخ .

ثالثاً : جاء الرحالة إلى مصر مرتين كانت المرة الأولى في عهد علي بك من يونية ١٧٦٨ إلى ديسمبر من السنة نفسها . والمرة الثانية من ١٠ يناير ١٧٧٣ إلى مارس من نفس السنة في عهد محمد بك أبي الذهب . وكان علي بك في ذلك الحين لاجئاً إلى حمى خليفة الشيخ ظاهر ، يستعد للعودة إلى مصر . ورغم قصر تلك المدة فإنها كانت كافية لتحصيل ما كتب ، لأنه كان على اتصال مباشر بعلي بك نفسه وبجماله ثم بمحمد بك أبي الذهب ورجاله .

رابعاً : الجزء الذي ذكره عن مصر في المجلد الأول طريف جداً لم يرد في كتابة رحالة غيره ، وذلك لأنه لم يقدم نفسه في مقدمات تاريخية كما كانت العادة بل قص علينا ما حدث بينه وبين علي بك في أسلوب شيق جذاب وحدثنا عن كثير من صفاته الشخصية ، وعن حركته وموقفه من الباب العالي ، واتصاله

بروسيا ، والظروف التي استغلها للقيام بثورته . وقارن بين حكومته والحكومات السابقة له . كما ناقش أهم العوامل التي رأى أنها كانت سبب فشله . وأخيراً ساهم بنفسه في حركة إحياء طريق التجارة البرى .

خامساً : نشاط جيمس بروس ، وكفائاته المتعددة ، ولباقته ، وتكييفه لنفسه حسب مقتضيات الحال : ففي مصر تظاهر بأنه عالم بالفلك عند ما علم بتقدير على بك لعلائه ، ثم ادعى بأنه ذاهب إلى الهند ليقيم من معارضة تركيا ومصر للرحلات الاستكشافية ، لاعتقاده أنها مؤسسة على أطماع سياسية . وهذا هو سبب سفره إلى جدة أولاً بدل الحبشة مباشرة . وفي أثناء الطريق تصنع التنسك والزهد خوفاً على حياته من الأعراب وتسهيلاً لمهمته . وفي الحبشة ادعى أنه عالم بالطب ، ولولا خدماته الطيبة للأسرة المالكة ، لسمح له بالتجول بحثاً عن منبع النيل . ولما عاد إلى مصر عرف كيف يكسب احترام أبى الذهب وحسن تقديره فلقبه « يعقوب الحكيم » واستصدر منه بروس فرماناً فى الشهر التالى لوصوله (فى ابر ١٧٧٣ — ١٥ ذى القعدة ١١٨٦) لمصلحة شركة الهند الشرقية التجارية . ومجمل القول فى رحلته أنها أضافت كثيراً إلى معلوماتنا التاريخية عن الفترة الأولى من عصر على بك .

* * *

٢ — مذكرات البارون دى توت :

البارون دى توت مجرى الأصل ولد فى سنة ١٧٣٣ ، ثم دخل فى خدمة فرنسا ، وكان على درجة عالية من المهارة السياسية ، والكفاية الحربية ، بزغ اسمه فى إبان اشتداد الأزمة التى سبقت الحرب الروسية التركية ١٧٦٨ ، فكلفته الحكومة الفرنسية بمهمة رسمية لدى خان التتار بالقر . ولما تهدد بوغاز الدردنيل بمدافع الاسطول الروسى الظافر بعد احتراق معظم سفن الاسطول العثمانى فى خليج جشمه ، وعانت الامبراطورية العثمانية كثيراً من ثورات على بك الكبير فى مصر

وحليفه ظاهر في فلسطين وحركات غيرهما من الولاة « حول دى توت مهارته السياسية إلى أعمال السيف » تعهدت إليه الحكومة العثمانية تحصين البواغيز وإصلاح المدفعية والبحرية ، والإشراف على تدريب الجند العثماني وإدخال الأسلحة الحديثة . وقد أنجز دى توت مهمته وأدى خدمات جليلة للدولة العثمانية

ولما انتهت الحرب بصلح قينارجى ١٧٧٤ عاد دى توت إلى باريس . وفي أبريل ١٧٧٧ اقترح وزير البحرية الفرنسية المسيو دى بويتس M. De Boynes إيفاد دى توت في بعثة سرية الغرض منها إعداد دراسة تمهيدية لمشروع إرسال حملة فرنسية لفتح مصر . وقد وافق وزير الخارجية المسيو فيرجن M. Vergennes فعينه « مفتشاً لاسا كل اللغنت » وكانت مهمته الظاهرية بحث الوسائل اللازمة لزيادة النشاط التجارى الفرنسى في شرق البحر الأبيض .

وقد بدأ توت مهمته فغادر طولون في ٢٦ أبريل ١٧٧٧ قاصداً مصر ، ومعه مساعده لالون la loan ورافقه الرحالة العالم الفرنسى سونينى Sonnini ووصل الجميع إلى الاسكندرية في يونيو ثم القاهرة حيث درس توت أحوالها السياسية والتجارية وعاد إلى الاسكندرية فدرس قدرتها على الدفاع وصلاحيه الشواطىء المصرية لنزول حملة غازية . وفي سبتمبر ١٧٧٧ عاد إلى فرنسا وقدم إلى حكومته مذكرتين إحداهما عن مهمته السرية والثانية عن مهمته الرسمية ، وفي عام ١٨٧٤ نشر « مذكراته » عن الترك والتتار في أربعة أجزاء بعنوان .

“Memoires du Baron De Tott, Sur les Turcs et les Tartares, à Maestricht 1785 2 Tomes. 5 Perties.”

وفد ضمت هذه المذكرات أخبار رحلاته السالفة الذكر وخلاصة آرائه السياسية في الدولة العثمانية . وكان من رأيه أنها آيلة إلى الانحلال فالسقوط ولا يمكن الحيلولة دون ذلك بحال من الأحوال ، وأنه يجب على فرنسا الاستفادة من ذلك بأخذ نصيب ذات قيمة وأشار إلى مصر (التي تسلم عنها في الجزء الرابع من الصفحة الأولى حتى صفحة ٧٤) وتناول بحث أحوال السكان والتجارة

والزراعة وفوضى الحكومة . ومؤلفه يهم موضوعنا من ناحيتين : فهو أصدق وأكمل مصدر لتوضيح الظروف الخارجية التي انتهزها على بك للقيام بحركته ، وقد كان معاصراً لها ومن المؤثرين في حوادثها ، ولسكنه لما كان في خدمة الدولة العثمانية فقد نظر إلى على بك بعين عثمانية فتحامل عليه واعتبر نضاله أساس الفوضى التي كانت بمصر حينئذ . كما تهمننا أيضاً من حيث أنها أظهرت حالة مصر كعامل ممدد للحملة الفرنسية التي كانت لا تزال في ذلك الحين مشروعا تحت الدرس والبحث . وكان دى توت من أنصارها والداعين لقيام فرنسا بتحقيقها .

سان يريست Saint-Priest :

كان سان يريست من رجال السياسة الفرنسيين الأكفاء ، فلما تجمعت الأحوال الدولية قبيل الحرب الروسية التركية ١٧٦٨ — ١٧٧٤ عينته حكومته سفيراً في الاستانة فوصلها في ١٣ نوفمبر ١٧٦٨ . ووقف يحكم مركزه على جميع المحاولات والمناورات السياسية التي سبقت اعلان تلك الحرب وكان على اتصال دائم بالصدور العظام والسلاطان مصطفى الثالث . وفي سنة ١٧٧٧ ذهب إلى باريس ، وانتهاز السماح له بعطلة للاستجمام فدون مذكراته ثم نشرها فيما بعد بعنوان :

Memoires Sur L'Ambassade de France En Turquie.

Par M. Le Conte de Saint Priesr 1777.

وتلك المذكرات تهمننا من حيث أن صاحبها كان معاصراً لحركة على بك منذ مبدئها حتى نهايتها ، وهو وإن لم يحضر إلا مصر فإنه كان في الاستانة يقف على أخبارها الرسمية من الديون العثماني وشبه الرسمية من تقارير قناصل فرنسا بالقاهرة وغيرهم من التجار ، وقد وضع لنا ، أكثر من القنصل دى توت ، الظروف الخارجية التي اكتنفت حركة على بك من أولها حتى ختامها . وهو مؤمن بضعف الدولة العثمانية ، وقرب انحلالها ما لم تمددها فرنسا بمهونة صادقة ناجحة . كما كان من رأيه الاتفاق مع النمسا على حساب روسيا لمصلحة الدولة

العثمانية . وأخيراً نصّح حكومته بأن تجعل مصر نصب عينها إذا قدر للدولة العثمانية أن تزول .

* * *

٤ — سوفير لوزنيان كوزهو پوليتس . Sauveur lusignan Kosmopolites.

هيأت لنا العناية كتابات بروس لتحليل شخصية على بك ، ودى توت وسان بريست لتوضيح الظروف التي انتهزها للقيام بثورته ، كما أنها أتاحت لنا بكتاب لوزنيان مصدراً شاملاً دقيقاً لكثير من أعماله ، ووقفنا منه على حوادث عصره ونهايته .

وسوفير لوزنيان هذا يوناني جاء مصر صديداً مع أخيه الأكبر في سنة ١٧٤٦ . وكان عمره حينئذ عشر سنوات ، فأقام بدمياط أسبوعين أرسله أخوه بعدها إلى خاله بالقاهرة ، وكان هذا في خدمة محمد راغب باشا وإلى مصر في ذلك ابن .

قص علينا اتصاله بعلى بك فقال في الصفحة الخامسة من المقدمة « وكان خالي على اتصال وثيق بإبراهيم كخيا أستاذ على بك — وكان على بك خازن داره حينئذ . وقد تعمد أن يصحبني كلما زار إبراهيم كخيا ، الذي كان يأمر علياً أن يقدم لي بعض الهدايا . كما أن علياً كان كثيراً ما يزور خالي في منزله بالقلعة فتقدم له بعض الهدايا ، مثل الفراء والأقمشة ومنتجات الخارج الأخرى . وهكذا زادت معرفتي بعلى ، وكنت لا أزال في ميعة الصبا . حتى إذا ما عزل راغب باشا سنة ١٧٤٩ واضطر خالي إلى اللحاق به غادرنا مصر إلى الأناضول ، حيث أقمنا أربعة عشر شهراً ، ذهبنا بعدها إلى القسطنطينية . وفي سنة ١٧٥٣ انفردت بأعمالي ، فأخذت أمارس التجارة . فحملت تجارتى على سفينة إلى دمياط حيث قابلت المهم ميخائيل فرحات وكيل ديوانها ، وكان من أتباع إبراهيم كخيا ومن المقربين إلى على بك الذي سبق اتصالي به ، فاشترى مني (ميخائيل) عروض تجارتى . ورجوته أن يتوجه إلى على بك بالتحية والتبنيات . ومنذ ذلك الحين وأنا أتراسل مع المعلم

فرحات فكان يؤكد لى أنه يبا تحياتى إلى على بك كما كان يطلب منى فى كثير من الأحيان شراء بعض البضائع الأوربية لحساب على بك وكنت أجيئه إلى طلبه .

وفى سنة ١٧٦٩ بينما كنت مقيما فى أوربا وصلنى خطاب من المعلم فرحات يطلب فيه باسم على بك أداء بعض المهام ، ويدعونى إلى الحضور إلى مصر بأسرع ما يمكن حتى يعهد إلى بأحد الأعمال . ولكن ظروف العمل اضطرتنى إلى البقاء فى أوربا حتى سنة ١٧٧١ ، فوصلت إلى الاسكندرية ومنها إلى القاهرة حيث كان لى شرف المشول بين يديه عندما قدمنه إليه المعلم فرحات . ومنذ ذلك الحين بقيت لى خدمته حتى هزيمته الأخيرة التى أوقعتنى فى المتاعب التى أعانيها .

وبعد هزيمة على بك فى الصالحية سنة ١٧٧٣ سمح له بالرحيل فتوجه إلى فلسطين حيث أبحر على سفينة انجليزية إلى لندن . ولما كان لوزنيان قد فقد بفراره كل ما يملك فإنه وصل إلى إنجلترا صفر اليدين ، وهناك بدأ يكتب مؤلفه التالى عن تاريخ على بك ونشره فى لندن سنة ١٧٨٣ بعنوان :

“A History of The Rovolt of Ali Bey. Against The Ottoman Port, Including an Account of The Form of The Government of Egypt, Together with a Description of Great Cairo, and of general Celebrated Places In Egypt, Palestine & Syria . . . By S. L. Kozmopolites. (London 1783.)

أما عن غرضه من نشر الكتاب فقد أشار فى الصفحة الثالثة من المقدمة إلى أنه نظراً لظهور بعض مقالات عن (حركة عصيان على بك ضد الحكومة العثمانية) باللغة الألمانية وجد من الواجب عليه أن يكتب تاريخاً يوضح فيه قصة هذا « الأمير السىء الحظ » ، لا سيما وأنه اتصل به اتصالاً وثيقاً لمدة طويلة وكان شاهد عيان لمعظم مخاطراته ومغامراته . كما صرح بأنه فعل ذلك نزولاً على إرادة كثيرين من أصدقائه . والذى يتضح لنا أن لوزنيان كتب مؤلفه هذا ونشره بقصد التمسك ، فالغالب أنه كان يعيش عيشة رقيقة ، إذ كان يدرس

اللغة اليونانية ، وكتب إعلانا عن نفسه بذلك بعدمقدمة الكتاب . ثم إنا نفهم من سياق كلامه في الصحيفة الأخيرة من الكتاب أنه كان يعيش على ما يوجد به عليه بعض معارفه من الانجليز إذ قال : « ولا يسعنى سوى انتهاء هذه الفرصة لأبدي كامل عرفاني بالجميل لما لاقيت من إحسان بعض أصدقائي . وكلى أمل — رغم عجزى عن رد جميلهم — أن يظلوا يشملوني بعطفهم حتى يمكننى أن أجد المعونة فى هذه البلاد البعيدة عن أرض الوطن ، . ويتضح من ذلك أن أصدقائه نصحوه حقاً بكتابة تلك القصة ، وأنه نشر الكتاب طمعا فى المكسب أكثر من أى شئ آخر . وعلى كل حال فهذا لا ينتقص من قيمة الكتاب .

والكتاب غنى بمعلوماته ! تسلم على الحركة بإسهاب لم تصادفه فى مؤلف آخر ، وهذه هى الموضوعات التى تسلم عنها حسب ترتيبها الذى وردت به :

أولا : نبذة عن مصر ، بولاق ، نهر النيل وحكومة مصر .

ثانيا : المظهر الملبكى لحكومة مصر .

ثالثا : المظهر الجمهورى للحكومة مميزاته وقوته .

رابعا : تاريخ على بك .

الفصل الأول : ويشمل نبذة عن مولده ، وأسره وحضوره إلى مصر وترتيبه بها .

الفصل الثانى : ويشمل أخبار عن على بك حتى قيامه بالثورة .

الفصل الثالث : ويشمل الكلام عن بدء ثورة على بك وحوادثها .

خامسا : وصف مختصر للحالة الحاضرة فى صور ، صيدا ، وإرشادات للمسافر فى تلك الجهات .

سادسا : وصف للأماكن الهامة فى فلسطين .

سابعا : وصف موجز لحالة الرعايا المسيحيين فى الدولة العثمانية .

ملحق جريدة أحد المسافرين (خط سيره) من حلب إلى مدينة البصرة .

والكتاب من القطع الصغير مكون من مائتين وسبعين صفحة تبدأ بمقدمة وتنتهى بملحق .

القيمة التاريخية للكتابات :

وقد اعترف المؤلف صراحة في مواضع كثيرة من الكتاب (ص ٣ ، ٤ مقدمة ، ١٤٥ ، ١٦٢ . . . الخ) بدقة روايته فقد ذكر أنه كان شاهد عيان لها في المدة من ١٧٤٦ إلى ١٧٤٩ ثم من ١٧٧١ — ١٧٧٢ . أما بقية حوادث الحركة في غير تلك المدينتين فقد أخذها باعترافه عن المعلم فرحات ، على بك الطنطاوى والمعلم رزق وذى الفقار وعلى بك نفسه ، كما أنه اعتذر عن ذكر حوادث لا يثق بصحتها ، وفي الوقت نفسه نصح بعدم الاعتماد على التواريخ التي أوردها لأنه فقد مسوداته في أثناء «الفرار» أما الحوادث التي انفرد لوزنيان بذكرها واعتمدنا عليها كثيرا فتشمل حياة على بك الأولى . والفترة الأخيرة من حياته التي تبدأ من فرار على بك الأخير من مصر وأعماله بالشام ثم عودته الأخيرة إلى مصر وتفاصيل معركة الصالحية .

ويصح اعتبار هذا الكتاب مصدرا أساسيا لتلك الفترة ، أما في الفترة السابقة فينقصه كثير من التفاصيل .

* * *

رابعا - المؤلفات الشرقية المعاصرة

١ - « عجائب الآثار في التراجم والأخبار » للشیخ عبد الرحمن الجبرتي .
ولد عبد الرحمن الجبرتي سنة ١١٦٧ هـ (١٧٥٥ م) بالقاهرة . وهو كما ذكر في ترجمته لنفسه ، من أسرة يرجع أصلها إلى بلاد جبرت « وهى بلاد الزيلع بأراضى الحبشة تحت حكم الخطى ملك وهم عدة بلاد معروفة تسكنها هذه الطائفة وهم المسلمون بذلك الإقليم ويغلب عليهم التقشف والصلاح » - ج ١ ص

نزل جده السابع « الشيخ عبد الرحمن » بمصر في أوائل القرن العاشر الهجرى بعد أن جاور بمكة والمدينة ، ثم جاور بالأزهر ، وتولى مشيخة رواق الجبرية وتوالى أجداده على مشيخة هذا الرواق نحو ثلاثة قرون . وكانوا كلهم من المسلمين الصالحين ..

وقد توفي صاحب « عجائب الآثار » في اليوم السابع والعشرين من شهر رمضان سنة ١٢٣٧ (١٧ يونيه سنة ١٨٢٢) بعد أن ترك مسودات كتاب أسماء « عجائب الآثار في التراجم والأخبار » نشر بالعربية عدة مرات وترجمت بعض أجزائه إلى اللغتين الفرنسية والتركية . والطبعة التي اعتمدنا عليها طبعت ببولاق ونشرت سنة ١٣٠١ هـ في أربعة أجزاء . ويعرف الكتاب أيضا بتاريخ الجبرتي . وهذا وقد نشرت عدة تراجم للشيخ الجبرتي ولكن ثمة أمور ينبغي أن نشير إليها .

١ — مهد الجبرتي لكتابه بمقدمة عن تاريخ مصر منذ ضعف الخلافة العباسية ثم بدأ بذكر حوادث مصر منذ القرن الثاني عشر الهجرى (١٦٨٩ م) .
١ — أشار الجبرتي إلى أنه وعى الحوادث في سن التمين ، وأخذ يدون كتابه وهو في سن الأربعين ، ولما كان قد أدرك أواخر القرن الثاني عشر الهجرى ، وأوائل الثالث عشر (النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادى وأوائل التاسع عشر) فإن روايته لحوادث تلك المدة رواية شاهد عيان — وقد أشار إلى ذلك بقوله « أنى كنت مسودت أوراقا في حوادث آخر القرن الثاني عشر وما يليه ، وأوائل الثالث عشر الذى نحن فيه ، جمعت فيه بعض الوقائع إجمالية وأخرى محقة تفصيلية . وغالبها محسنة أدركناها وأمور شاهدناها . » (ج ١ ص ٢) .

٣ — حوادث الفترة من أوائل القرن الثاني عشر إلى سنة ١١٧٠ هـ (١٦٨٩ — ١٧٥٦ م) سابقة لعهد نقلمها من الشيوخ المسنين ، وسجلات دفاتر الأندية والكتبة والمباشرين وشواهد قبور المتوفين . وفي ذلك قال « واستطردت في

ضمن ذلك سوابق سمعتهما ، ومن أفواه الشيخه — جمع شيخ — تلميذتها ، وبعض تراجم الأعيان المشهورين ، ومن العلماء والأمراء المعبرين ، وذكر لمع من أخبارهم وأحوالهم وبعض تواريخ مواليدهم ووفياتهم .

٤ — أما حوادث الفترة من ١١٧١ هـ (١٧٥٧ م) إلى سنة ١١٩٠ هـ (١٨٧٦ م) فقد عاصرها وشاهدها ، ورواها رواية من وقف على تفاصيلها . ولكنه دون حوادثها بعد وقوعها بمدة تتراوح بين الطول والقصر ، لأنه كما سبق أن أشرنا لم يدون أوراقه إلا بعد بلوغه سن الأربعين . وفي ذلك يقول « فرجعنا إلى النقل من أفواه الشيخة المسنين . وصكوك دفاتر الكتبة والمباشرين ، وما انتقش على أحجار ترب المقبورين ، وذلك من أوائل القرن (الثاني عشر) إلى السبعين (١١٧٠) — وما بعدها إلى التسعين (١١٧١ — ١١٩٠ هـ وهذه الفترة تشمل عصر على بك) أمور شاهدها . ثم نسيناها وتذكرناها ، ومنها إلى وقتنا الحاضر أمور تعلقناها وقيدناها وسطرناها . » (ج ١ ص ٦) وحوادث كتابه تنتهي بوقائع سنة ١٢٣٦ (١٨٢١) وكان سنه عشرين عاما عند وفاة على بك الكبير .

٥ — وقد جمع ما دونه من حوادث مرتبة على حسب السنين والأشهر والأيام قال « فأحببت جمع شملها وتقييد شواهدا في أوراق متسقة النظام ، مرتبة على السنين والأعوام ، ليسهل على الطالب النبيه المراجعة ، فانها حوادث غريبة في بابها متنوعة في عجائبها وسميته « عجائب الآثا في التراجم والأخبار » (ج ١ ص ٢) .

٦ — كان الشيخ حسن الحبرقي واليد الشيخ عيد الرحمن من علماء الأزهر ، نبغ في العلوم الدينية وذاع صيت كهانيته في العلوم الرياضية والهندسية وعلوم الرصد والتوقيت والفلك « حضر إليه طلاب من الإفرنج وقرأوا عليه علم الهندسة ، كما اشتهر بالوقار . وكانت له منزلة كبيرة في قلوب الأكابر والأمراء والوزراء والأعيان يسعون إليه وينذهب إليهم » ج ١ ص ٣٩٥ ، ٢٥٤ « بل إن السلطان مصطفى الثالث كان يرأسه لعلمه وفضله » ج ١ ص ٣٨٣ ، فكان الشيخ حسن خير مورد يستقى منه عبد الرحمن أصدق الروايات . وقد توفي

الشيخ حسن في العام التالي لوفاة علي بك سنة ١١٨٨ هـ .

٧ — كان الشيخ عبد الرحمن الجبرتي من علماء الأزهر النابهن مثقفا كوالده وصف الحوادث بأسباب وتحري الدقة في كل ما قال وتوخي الحق ما أمكن أن يتوخي المعاصر الحق فيما يقول « ولم أقصد بجمعه خدمة ذي جاه كبير ، أو طاعة وزير أو أمير ، ولم أداهن فيه دولة بنفاق أو مدح أو ذم مبين للأخلاق ، لميل نفساني أو غرض جسماني .

٨ — حوادث عصر علي بك في مصر فقط أورد معظمها في الجزء الأول ، وما قل منها في الأجزاء الباقية مبعثرا في تراجم العلماء والأعيان ، وكلها على شيء كبير من الدقة ، استفاض في أكثر تفاصيلها لجاءت خير هاد في دياجير هذا هذا الموضوع الغامض ، وقد سبق أن أشرفنا إلى إتفاق رواياته مع ما جاء بخطابات الإسكندرية ، وتقارير القناصل الفرنسيين . وعلى أن للجبرتي الفخر في أنه أقرب الثلاثة إلى السكال . كما أن كتابته تمتاز عن كتابات الرحالة من حيث أنه مصري يحس شعور المصريين ، وقضى حياته بين ظهرانيهم ، فخالطهم ومازجهم ووقف على دخائل نفوسهم حكما ورعية . فكتابته عنهم إنما هي كتابة العارف بأحوالهم ، الواثق مما يقول . على خلاف الرحالة الأجانب الذين مهما طالت إقامتهم بمصر فهم أجانب عنها وعن شعبها وحكامها ، لم يتيسر لهم المشاهدة والرواية وجمع الأخبار واستخراج الزائع منها بمثل ما تيسر ذلك للجبرتي . وأصح نسخة هي المطبوعة ببولاق في أربعة اجراء سنة ١٣٠١ هـ وقد اعتمدنا عليها .

* * *

٢ — « تاريخ الشيخ ظاهر العمر الزيداني . حاكم عكا وبلاد صفد » :

تأليف المرحوم ميخائيل نقولا الصباغ العكاوي . عن نشره والتعليق على حواشيه الخوري قسطنطين الباشا الخالص .

ندرت المراجع التي تسكمت عن أعمال على بك في فلسطين وفسرت العلاقة التي كانت بينه وبين الشيخ ظاهر العمر . ورغم وفرة المراجع التي تسكمت عن تاريخ سورية وفلسطين في عهد العثمانيين ، فإن الأعمال المشتركة باسم على بك والشيخ ظاهر لم تنل قسطا وافرا من اهتمامهم ليس لأنها لا تستحق الاهتمام ، وإنما لأنها موضوع قائم بذاته . ولحسن حظنا عثرنا على مؤلف يتناول هذه المسألة في تفصيل دقيق ، يتفق مع لوزنيان إلى حد كبير . وإن كان يزيد عليه في الكلام عن حملتي أبي الذهب الأولى والثانية .

وهو مؤلف « للمرحوم ميخائيل نقولا الصباغ العكاوي » كان جده إبراهيم الصباغ كاتب الشيخ ظاهر ووزيره « أخذ عن أبيه وأعمامه وأساتذته المقرئين إلى ظاهر » . جاء هذا المؤلف « أوسع تواريخه — أى تواريخ ظاهر — تفصيلا وأجملها تعليلًا وأفضلها ترتيبًا وأقربها للصدق والصواب » والنسخة الخطية الوحيدة موجودة في المكتبة الشرقية التابعة لكلية الآباء اليسوعيين ببيروت . وقد نشرها الخوري قسطنطين في كتاب بالعنوان المذكور .

وناشر المخطوط مشهور بالدقة وسعة الاطلاع . وله سابق الفضل في نشر عدة مخطوطات سهلت كثيرا من الأبحاث التاريخية . ومخطوط نقولا الصباغ لا تقتصر أهميته على كونه معاصرا فقط بل تزيد لأنه استقى معلوماته من مصادر أصلية . ولا يغرب عن البال أن جده إبراهيم الصباغ وزير ظاهر ومشيره كان المتصرف في كل شيء ، وكان ظاهر لا يصدر أمرا في شيء إلا بعد مشورته . والكتاب سلس الأسلوب تسكمت يتوسع عن ظاهر وعلاقته بالدولة العثمانية والوقائع التي كانت بين الطرفين . ثم أسهب في الكلام عن علاقة على بك بحليفة ظاهر واتصالهما بروسيا . إلا أنه في مناقشة خاتمة على بك كان ميالا لظاهر نحورا بجده إبراهيم ، وكأنه أراد أن يتصل باسم ظاهر والصباغ من تبعة فشل على بك وفيما عدا ذلك فوقانعه صحيحة غدقة .

٢ — « سلك الدور في أعيان القرن الثاني عشر » للسيد محمد خليل المرادى هو السيد محمد خليل بن علي بن محمد المرادى البخارى الدمشقى النقشبندى مفتى السادة الحنفية بدمشق ، ويعتبر من أجل علماء القرن الثاني عشر الهجرى . جمع تراجم مشاهير رجال عصره من علماء ، وحكام ، وقواد وتحرى في أخبارهم الدقة البعيدة عن الهوى . واهتم على وجه الخصوص بأعلام الشام ومن اتصل بها وبحوادثها من رجالات الأقطار المجاورة . وأدرج تراجمهم مرتبة على حسب الحروف الأبجدية ، وأخرجها مطبوعة في ثلاثة أجزاء باسم « أخبار الأعصار في أخبار الأمصار » واشتهر أيضاً باسم « سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر » وقد فرغ منه في اليوم السادس من شهر شعبان سنة إحدى وتسعين ومائة وألف من الهجرة .

وقد ذكر المؤلف في الصحيفة الثالثة من الجزء الأول الدافع له على التصنيف والجمع فقال « لم أزل منذ أميطة عن التأمم مكباً على الكتب التاريخية ، منهمكا في جميع الدواوين الإخبارية . تدعوني إلى ذلك غيرة الفضل كل آونة وتحثني عليه حمية الأدب فتطرد عن عيوني السنة » .

واعتمد في كتابته على الرواية ، ومحصها بدراسة المعاجم والإثبات . وقام بالرحلة إلى مختلف البلدان للتثبت . وكلامه عن أبى الذهب وظاهر العمر وعلى بك كلام ثقة لامطعن فيه ولا يعيبه سوى الإيجاز .

ونشير إلى أنه كان معاصراً لعلى بك بل أنه ذكر في الصفحة الرابعة والخمسين من الجزء الأول أن على كان يرأس والده السيد على بهاء الدين المرادى في شأن إقناع علماء دمشق بعدم مناصرة عثمان باشا وإلى الشام العثماني وذلك قبل حملة أبى الذهب الأول على الشام .

٤ — المؤلفات التركية .

والمؤلفات التركية تهمننا بصفة خاصة لأنها توضح لنا وجهة نظر الدولة

العثمانية في الحركات التي انبعثت في كثير من أنحاء أملاكها ، ومن بينها حركة على بك في مصر . والملاحظ في كتابة هؤلاء المؤرخين وقوفهم عند حد الحقائق الموجودة . فهم لا يحاولون بأفكارهم إلى ما وراء تلك الحقائق يلتمسون خفايا السياسة . وعلى وجه الخصوص ما اتصل بالسياسة الأوربية الكثيرة التعقيد . ونحن لو اعتبرنا ذلك عيبا يشوب المؤلفات التركية القديمة ، فإنه يصح أن يكون لها فضيلة أيضا . إذ أن ذلك يمهّد للمؤرخ الحر مصدرا للحوادث كما وقعت ثم هو عليه بعد ذلك أن يحول بنفسه كما يشاء ويستعين بغيرها من المؤلفات . والتواريخ العثمانية كانت تطبع عادة دون فواصل . وحوادثها غير متسلسلة أو موحدة العلاقة . فلا اعتبار للتسلسل التاريخي عندهم ، فقد يذكر المؤرخ منهم حادثة عارضة حدثت في مكان آخر من الدولة تخرج بنا عن الموضوع ، وتبعدنا عن التاريخ ثم يعود إلى موضوعه الأصلي وهكذا . أما الأسلوب ففخم العبارة ضخّم الألفاظ . والمؤرخون الأتراك مغرمون باستعمال المحسنات البديعة إلى أقصى حد ، وقلما تخلو لهم عبارة من استعارة أو مجاز . فمن توفي من زعماء الثورات فأنما « سار في قافلة العدم » . ومن توفي من العظماء « نقل إلى مكان الصامتين » ، والسيوف عندهم في مضائهم « متعطش للدماء » ودولتهم إنما هي « شجرة غرسها عثمان » والحوادث التي كادت تودى بها « خريف » لا يلبث أن يعقبه « ربيع الاعتدال » . . . الخ .

محررو الوقائع الرسميون

وقد تكلمنا في موضع سابق عن مخطوطين تركيين . وثم أربع مؤلفات تركية لا تقل أهمية عن سابقيها بل قد تفوقها في الأهمية لأن مؤلفيها من محرري الوقائع « واقعة نويس » . ومعنى ذلك أن السلطان العثماني كان يكلف أحد المؤرخين ، ممن يثق في كفايته ، تدوين حوادث الدولة في عصر من العصور . وله الحرية في سبيل ذلك أن يصحب الجيش لتدوين الحوادث أو الرحلة من

مكان إلى آخر بقصد إجراء تحقيقات تاريخية ... الخ فحررو الوقائع شهود عيان .
ولسكن مؤلفاتهم كانت تطبع بأمر السلطان وعلى نفقته وتحت إشرافه ، فهم
كانوا خاضعين لمؤثرات شتى حادت بهم عن الحكم العادل في كثير من الأحيان .
ومعظم تراجم المؤرخين العثمانيين ومحررو الوقائع نشرها الأستاذ جمال الدين
المؤرخ العثماني في كتاب بعنوان « آينا ظرفا » أي « مرآة الظرف » في استانبول
١٣١٤ . وللكتاب اسم آخر هو « عثمانلى تاريخ ومورخلى » أي « التاريخ العثماني
ومؤرخوه » .

وسنذكر فيما يلي أهم المحررين الذين عاصروا على بك السكبين .

(١) « اسماعيل عاصم افندى » الشهير بكوجك جلبي زادة ، مؤلف « تاريخ
اسماعيل عاصم افندى » ، وقائع من سنة ١١٣٥ — ١١٤١ .
كان والده كوجك جلبي رئيسا للكتاب (وزيراً للخارجية) ، ربي ولده
تربية حسنة حتى تولى القضاء فى الأناضول ، والمدينة المنورة ، والرومللى .
وفى سنة ١١٧٢ هـ عين مفتياً « مفتى الأنام » وتوفى فى ٢٧ جمادى الآخر ١١٧٣ .
وكان فوق مهارته فى العلوم قادراً على الكتابة وقول الشعر بالعربية والفارسية
والتركية ، والتاريخ الذى تركه يبحث أخبار الدولة العثمانية من سنة ١١٣٥ هـ —
١١٤١ هـ ، وقد اهتم بصفة خاصة بجوادر مصر فى الفترة التى سبقت على بك
مباشرة ولم يستطع أن يخفى أمر الفوضى التى كانت سائدة حينئذ .

(ب) أحمد واصف أفندى :

ولد ببغداد وتمتف ثقافة عالية ، ثم اشتغل بالكتابة فى دواوين الحكومة
والأسطول حيث أظهر تفوقاً على أقرانه ، ومنذ سنة ١١٧٦ صار يلحق بوفود
المفاوضة مع روسيا . ثم وشى به لدى السلطان فقرر نفيه . ثم عاد وعفا عنه ،
ولسكنه لم يعين فى منصب حكومى « ففضى زمنا طويلا فى فقر وعوز ، مقلباً

صحائف الصباح والمساء بتحرير الوقائع . ثم عاد الحظ يلزمه فتقلب في عدة مناصب حكومية حتى عين صدرا أعظم في أواسط سنة ١٢٢٠ هـ لمدة عام ونصف وتوفي سنة ١٢٢١ .

وقد ظهرت مهارته في العلوم العقلية والثقافية وملكوته في الشعر والانشاء من كتابه المسمى «محاسن الآثار وحقائق الأخبار» . وقد اكتسب خبرة طويلة بتقلبه في مناصب الدولة ، واشتركا في المفاوضات ، ووجوده في الجيش عدة مرات . وبفضل صداقته للصدر الأعظم محسن زاده كلفه السلطان مصطفى الثالث بتحرير الوقائع ، بعد غضبه عليه . وقد أشار واصف أفندي إلى أثر ذلك بقوله « أن تعطف مولاي صاحب السلطنة أجرى العصاحة بقلبي وجعل صفحات مؤلفي في رقة النسيم ونضارة الورد الغض » . وقد كلفه السلطان أن ينقح كتابات أنورى وغيره من محررى الوقائع السابقين . وقد أشار إلى ذلك بقوله : « كلفنى صاحب العظمة السلطان أن انقح مذكرات أنورى أفندى كما نقحت مذكرات محررى الوقائع السابقين ، وأن أصحح الأخطاء وادعم الحقائق . وقد كنت كنفنا لانجاز تلك المهمة إذ أنى صحبت الجيش منذ أوائل سنة ١١٨٤ هـ (١٧٧٠ م) ... وتوليت أمر المكاتبات ، ومقابلة السفراء المفوضيين لعقد الصلح ، وعملت في المؤتمر الثانى كسكرتير للمفاوضات . وزيادة على ذلك فأنى تقريرا الوحيد الذى حررت جميع التقارير المسببة التى بعث بها الصدر الأعظم إلى السلطان ولذا فقد وقفت على معلومات أكيدة ، واتصلت بالحوادث أكثر من أنورى أفندى . وهكذا قمت بإعطاء تدوين ذلك التاريخ ، خللت الشخصيات البارزة وحكيت الحوادث كما حدثت ، وذكرت التفاصيل كلها »

وتاريخه قسمان : القسم الأول اعتمد فيه على تواريخ من سبقه من محررى الوقائع : حكيم ، جشمى زاده ، موسى زاده ، بهجت حسن أفندى . وينتهى بسنة ١١٨٢ هـ (١٧٦٨ م) قبل نشوب الحرب الروسية التركية . والقسم الثانى : قصة الحرب الروسية التركية ١٧٦٨ — ١٧٧٤ . ومعظم ما ورد فيه جاء نتيجة

لملاحظته الشخصية إذ كان شاهد عيان لحوادث الحرب . ولم يعتمد على تاريخ أفندى أفندى إلا قليلا . إذ وجدته مملوءا بتفاصيل غير مهمة أو غير صحيحة . وحق أن مصادر الأخبار الصحيحة كانت طوع بنان واصف أفندى . وكتابه مصدر عام معاصر لحركة على بك أوقفنا على الظروف الخارجية التي انتهزها على بك للقيام بثورته كما تناول حوادث مصر قبل عصره ، وفي أثناء عصره ، والفترة التالية له مباشرة بأسهاب لا بأس به . وربط حركته بحرب روسيا وحوادث بلاد الحجاز . وكان أول من أورد النص الأصلي العربي المنشور الذي أرسله على بك عن طريق أبي الذهب إلى أهل دمشق ، وكان له الأثر الفعال في تسليم المدينة .

وكتابه جزآن يشمل الجزء الأول حوادث الدولة العثمانية من سنة ١١٦٦ إلى ١١٨٣ ، والجزء الثاني من سنة ١١٨٣ إلى ١١٨٨ وطبعوا باستانبول سنة ١٢١٩ هـ (١٨٠٤ م) .

وقد قام الاستاذ دى پرسيفال M. A. Caussin de Perceval مدرس اللغة العربية بمدرسة اللغات الشرقية بباريس عام ١٨٢٢ بنشر موجز بالفرنسية لمذكرات واصف أفندى عن الحرب الروسية التركية ، ونشره بباريس سنة ١٨٢٢ بعنوان :

Précis Historique de la Guerre Des Turcs Contre les Russes, Depuis l'Année 1769 Jusqu'au l'année 1774, Tiré des Annales De l'Historien Turc Vassif Effendi.

✱ ✱ ✱

(ج) سعيد (محمد فرائضى زاده) :

كلشن معارف . تاريخ من ابتداء الخلق إلى سنة ١١٨٨ . جزآن استانبول . كان السيد محمد سعيد بن فرائضى ، حطيب مسجد سلطان بروسه . وكاتب محكمها . قضى عشرة سنوات في كتابة تاريخ بداه بأخبار العالم منذ الخليفة

باختصار ثم اسهب في تاريخ الدولة العثمانية حتى عصر السلطان عبد الحميد واسماه « كلشن معارف » أى « روضة المعارف » . وقدمه في سنة ١٢٥١ إلى السلطان عبد الحميد فقدر هذا العمل وقرر له خمسمائة قرش شهريا طول حياته . وأمر بطبع الكتاب على نفقته . وقد توفي محمد سعيد في نفس السنة ونشر كتابه في العام التالى .

والكتاب على غرار الكتب السابقة من حيث الاسلوب والعبارات ومبلغ تحرى الدقة التاريخية مشربة بالروح العثمانية ، وقد تسكلم عن حوادث على بك وحملة أبى الذهب بالشام وناقش مسألة انسحابه منها .



(د) أحمد جودت باشا :

ولد جودت باشا بمدينة لوفه عاصمة إحدى ولايات الدانوب . وثقف ثقافة عالية ، وتولى القضاء والتدريس ، وتقلد مناصب حكومية محترمة حتى عهد إلية سنة ١٢٧١ بتحرير الوقائع . ثم عهد إليه بعدة مناصب سياسية وإدارية حتى ١٢٨٧ عند ما استقال واعتكف على المطالعة والتأليف . ثم عين ناظرا للأوقاف سنة ١٢٨٩ . فالمعارف وغيرها من نظارات الدولة . وكان فيها كلها موضع التقدير والثناء .

كلفه السلطان عبد الحميد سنة ١٢٧١ ضبط الوقائع متصلا ذلك من تاريخ سنة ١١٨٨ إلى سنة ١٢٤١ . وقد بدأ العمل في سنة ١٢٧٠ هـ . وطبع كتابه في الاستانة باسم « وقائع دولتعلية من سنة ١١٨١ إلى سنة ١١٩٦ » ثم ترجمه إلى العربية عبد القادر أفندى الدنا رئيس محكمة بيروت ونشره ببيروت في جزئين سنة ١٣٠٨ .

والكتاب جهم المعلومات ، ناقش عوامل اضمحلال الدولة العثمانية . والحوادث التى وقعت بسبب هذا الاضمحلال وكنتيجة له . ورغم أنه ذكر

سنة ١١٨٨ كبدء لتاريخه إلا أنه أورد فصولا عن أهم الحوادث السابقة مباشرة ونالت حركة على بك نصيبا لا بأس به من اهتمامه . تسكلم عنها في صراحة يشوبها ميل « محررى الوقائع » إلى الدولة العثمانية . وكتابه مشهور أيضا باسم « تاريخ جودت » وهو لا يقل أهمية عن تاريخ واصف . كما أنه في الحوادث السابقة لعصره اعتمد على كتابات أشهر المؤرخين العثمانيين ممن ذكرنا وغيرهم . ثم على أدق المؤلفات الشامية ، وتاريخ الجبرقى المصرى فجاء وافيا بالغرض إلى حد كبير .

« انتهى »

موضوعات الكتاب

مقدمة في نشأة البيوت المملوكية (٥-١٧)

نشأة البيوت المملوكية (١١) البيوت المملوكية في العصر العثماني (١٤)

الباب الأول — ظهور علي بك الكبير (١٨-٣٤)

نشأته (١٨) ، تلبسه بالصنجدية (١٩) ، توليته شياخة البلد (٢٠) ، تقلده إمارة الحج (٢٤) ، نفيه وعودته إلى مصر (٢٦)

الباب الثاني — تمهيدات الحركة (٣٥-٦٤)

الفصل الأول : تعبير الطريق

سياسته نحو العثمانيين (٣٤) ، شل نفوذ الحامية والديوان (٣٨) ، القضاء على نفوذ العربان . معركتا دجوة وأسيوط (٤٣)

الفصل الثاني : انفراد علي بك بحكم مصر

فرصة الحرب الروسية العثمانية (٥٣) ، بدء الثورة وتخلصه من الباشا العثماني (٥٥) أغراض علي بك من الحركة (٥٧)

الباب الثالث حركة التعديل والاصلاح (٦٥-١٣١)

الفصل الأول : سياسة علي بك الداخلية

الإدارة الحكومية والأمن (٦٥) ، التزام الأراضي (٧٥) ، النقود (٨٣) ، السياسة المالية وإدارة الجمارك (٨٧) ، المنشآت (٩٦) ، الجيش (١٠٣) .

الفصل الثاني : مسألة التجارة والطريق البري

تجارة مصر الخارجية (١١١) . مسائل التجارة (١١٣) . نشاط الفرنسيين (١١٥) ،

محاولات الانجليز (١٢٢) ، إحياء الطريق البري في عهد علي بك (١٢٦)

الباب الرابع — الحملات الخارجية (١٣٢-١٧١)

الفصل الأول : حملة الحجاز

بلاد العرب تحت حكم العثمانيين (١٣٢) ، مقدمات الحملة المصرية (١٣٦) ،
تجهيز الحملة (١٤١) ، سير الحملة وعوامل نجاحها (١٤٢)

الفصل الثاني : حملات الشام

حكم الشام في عهد العثمانيين (١٤٥) ، مقدمات الحملة المصرية (١٥٤) ، الحملات
التهديدية (١٥٧) ، تجهيز الحملة المصرية (١٦١) ، أغراض على بك من حملة
الشام (١٧٠)

الباب الخامس — نهاية على بك الكبير (١٧٢-٢٠٩)

الفصل الأول : انشقاق أبي الذهب

عودة أبي الذهب من الشام (١٧٢) ، نفيه إلى الصعيد (١٧٧) ، نجدة مصرية
أظهر العمر (١٨٠)

الفصل الثاني — الكفاح الأخير

معركة بياضة وانتصار أبي الذهب (١٨٢) . فرار على بك إلى الشام (١٨٤)
كفاحه في الشام (١٨٦) . عودته إلى مصر (١٩١) ، معركة الصالحية وأسر
على بك (١٩٥)

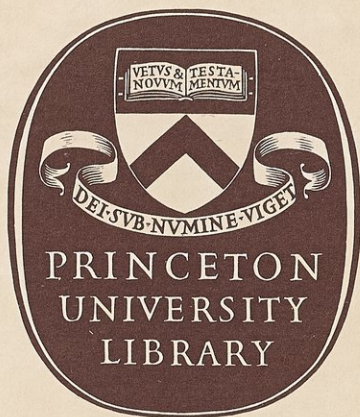
الفصل الثالث : وفاة على بك وتقديره

وفاته (١٩٨) ، تحليل شخصيته (٢٠٠) ، تقدير حركته (٢٠١)

الخاتمة (٢١٠-٢٢٦)

عوامل فشل الحركة وأثرها في تاريخ مصر

مصادر الكتاب (٢٢٧-٢٤٦)



Princeton University Library



32101 106118118